

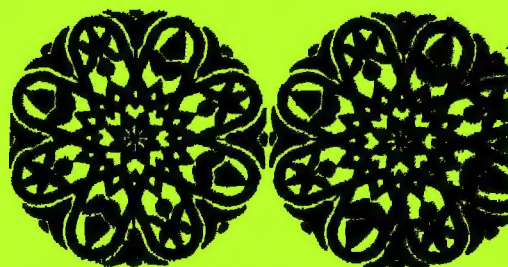
المفید فی تاریخ المغرب

للسنة الثالثة الشانوية

تأليف

محمد علي الرضائي

محمد الأمين محمد



وفق برنامج وزارة التربية الوطنية المغربية

المفید فی تاریخ المغرب

للسنة الثالثة
من الطور الثانوي الأول

تأليف

محمد علي الرحماني

محمد الأمين محمد

نشر
دار الكتاب
القار البيضاء

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لله وشكراً على نعمائه ، والصلاة والسلام على خير أنبيائه .
وبعد : فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة « المفيد » الخاص بالقسم
الثالث من الطور الاول للتعليم الثانوي بالمدارس المغربية . وهو يسير
— كسابقيه الأول والثاني — وفق مقرر وزارة التربية الوطنية ، إلا أننا
اضطررنا إلى إضافة زيادة طفيفة ، رأينا من الضروري إثباتها كي تبقى
الحلقات التاريخية مترابطة ، لا اختلال بينها . من ذلك اننا زدنا درساً
هو الدرس الثالث عشر وعنوانه: الموحدون في المغرب والأندلس وواقعة
الأراك ، فالكلام عن الموحدين ، ولو بصورة موجزة — كما فعلنا —
إذا لم يضاف إلى المقرر ، تبقى هناك حلقة تاريخية مفقودة ، وهوة
زمنية سحيقة تفصل بين عصري المرابطين والمرينيين ، بل انه لن يكون
هناك أية أهمية لتاريخ المغرب ، الذي يجمعه هذا الكتاب بين دفتيه.
باختصار .

كما زدنا عرضاً تاريخياً عن جلالة الحسن الثاني ، عاهل المغرب المعاصر – أعانه الله – لأننا رأينا ان الإغضاء عن ذلك يعتبر نقصاً في الموضوع ، وبترأ لحركة تاريخية ما زالت في طور الاستكمال .

ولا شك ان القارئ الكريم باطلاعه على هذا الكتاب سيدرك مبلغ الجهد الذي عايناه في سبيل إخراجه بهذه الصورة ، من الوضوح والبساطة والتبث من الحقائق التاريخية وإعطاء كل ذي حق حقه ، ومع ذلك فإننا لا نزعم بتاتاً أننا بلغنا الكمال في استيفاء هذا الكتاب ، اذ ان تاريخ المغرب : قديمه وحديثه ما يزال في حاجة ماسة الى جهود كبيرة ، متواصلة ، حتى يزاح الستار عن الغموض الذي يكتنف كثيراً من فتراته الزمنية وحقائقه التاريخية .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب أُلّف ليسد فراغاً شاغراً كبيراً، في مرحلة التعليم الثانوي، حيث لا يوجد بين ايدي الطلاب كتاب مدرسي مهم في تاريخهم المقرر ، عدا سلسلة « المفيد » ، التي من بينها هذا الكتاب .

وإننا نرجو ان يكون عملنا هذا مفيداً لطلابنا الأعزاء، اولاً، وللأساتذة الكرام ثانياً، ولكافة من يشرفنا بالاطلاع عليه ثالثاً ، والله ولي التوفيق .

المؤلفان

برنامج التاريخ الاسلامي المقرر للسنة الثالثة من الطور الثانوي الأول



- (1) المغرب قبل الفتح الإسلامي – السكان الأصليون – حياتهم ..
- (2) الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون في المغرب .
- (3) أثر الحضارتين الفينيقية والرومانية في المغرب .
- (4) الفتح الاسلامي في المغرب – الفاتحون الأولون .
- (5) فتح الأندلس – المغرب والأندلس في عهد الولاة .
- (6) الإدارة : بناء مدينة فاس – جامعة القرويين .
- (7) قيام الدولة الأموية في الأندلس – عبد الرحمن الداخل .
- (8) ازدهار الحضارة الاسلامية في الأندلس – عصر الخلافة لأموية،
الناصر ، المستنصر .
- (9) المغرب بين الفاطميين والأمويين – إمارتا مغراوه وبنو يفرن .
- (10) سقوط دولة بني أمية في الأندلس – ملوك الطوائف .
- (11) المرابطون : يوسف بن تاشفين – بناء مدينة مراكش .
- (12) المرابطون في الأندلس – واقعة الزلاقة .

- (13) الحياة الفكرية والفنية في المغرب والأندلس في عهد المرابطين
والموحدين - اتصال الفكر المغربي والفكر الأندلسي .
- (14) عهد بني مرين - بنو حفص في تونس - وبنو عبد الواد في
الجزائر .
- (15) بنو الأحمر في غرناطة - سقوط مملكتهم ونهاية دولة الإسلام
بالأندلس .
- (16) المغرب في عهد السعديين - واقعة وادي المخازن - المنصور
الذهبي .
- (17) هجوم الأسبانيين والبرتغاليين على شواطئ المغرب - كفاح
المغاربة ضد هجائهم - الوطاسيون .
- (18) الحياة الثقافية في عهد المرينيين والسعديين .
- (19) الدولة العلوية - عصر النشوء والاستقرار - المولى رشيد ،
والمولى اسماعيل .
- (20) عصر الازدهار - المولى محمد بن عبد الله وحركته الإصلاحية .
- (21) المغرب والمطامع الأجنبية - المولى الحسن وأعماله الإصلاحية .
- (22) المغرب والاحتلال الأجنبي - أسبابه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .
- (23) المقاومة الوطنية للاحتلال - ثورات الريف ، والصحراء ،
والأطلس - الحركة الوطنية .
- (24) عهد الانبعاث والاستقلال - جلالة محمد الخامس .
- (25) الحياة الفكرية والاجتماعية في عهد العلويين .

تمهيد

بلادنا المغربية^١



الموقع والحدود

تقع بلادنا العزيزة في الجزء الشمالي الغربي من قارة إفريقيا ، وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من الشمال الافريقي ، او المغرب العربي الكبير، وتنحصر بين درجة 15 و 36 عرضاً شمالاً، وبين درجة صفر و 18 طولاً غرباً. ويحدها من جهة الشمال البحر الابيض المتوسط ، حيث لا تبعد عنها

^١ اصطلاح على تسمية اقطار الشمال الافريقي في عصرنا كما يأتي : تونس وكانت تعرف بالمغرب الادنى ، الجزائر وكانت تعرف بالمغرب الاوسط ، المغرب (بلادنا) وكانت تعرف بالمغرب الأقصى . وما زالت بلادنا المغربية تعرف في الشرق بمراكش ، وهو اسم لا يطلق عندنا الا على مدينة مراكش في الجنوب .

اسبانيا من جهة سبتة أكثر من 13 ميلاً، ومن الغرب المحيط الاطلسي،
ومن الشرق حدود الجزائر الشقيقة، ومن الجنوب مالي والسنغال
بادخال الصحراء الكبرى التي ما زال معظمها مغتصباً . وتقدر مساحتها
بنحو مليون ونصف مليون كيلومتر مربع .

وقد تحرر وطننا اليوم من سيطرة الأجنبي، بفضل جهود ابنائه الأباة،
ملكاً وشعباً، ولكن ما زالت اجزاء مهمة منه خاضعة للغاصب الاجنبي ،
كموريتانيا ووادي الذهب وإفني بالصحراء الكبرى ، وكسبتة ومليلية على
البحر الأبيض ، وهي تنتظر دورها في الحرية والاعتاق .

التضاريس والأنهار

تحترق بلادنا سلسلتان جبليتان عظيمتان : سلسلة جبال الريف الشمالية
المحاذاة لشاطئ البحر الابيض المتوسط، وسلسلة جبال الأطلس الجنوبية،
التي تنفرع الى ثلاثة أقسام عظمى : الأطلس الصغير، والأطلس المتوسط،
والأطلس الكبير، وتعد جبال الأطلس حاجزاً طبيعياً بين الاراضي الخصبة
والصحراء ، كما تعتبر جبال الأطلس المتوسط خزاناً عظيماً للمياه ، التي
تغذي أشهر الانهار المغربية ، كأم الربيع ، ووادي سبو، ووادي درعة،
عدا أنهار صغيرة متعددة ، وبحيرات وينابيع لا حصر لها .

وجبالنا شاهقة ، يبلغ علو بعضها (4165 متر) . ولذا
فان الثلوج تكسو مناطق منها ، مما يدفع بعشاق الانزلاق على الثلج الى
قضاء ايام عدة بين تلك المناظر الثلجية الجميلة ، ذات أشجار الصنوبر
الباسقة للتمتع برياضة الانزلاق .

والمغرب واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية، ويطل على بحرين عظيمين ، ولذا كانت امطاره غزيرة شتاءً، وحرارته معتدلة صيفاً . وبلادنا هي البلد العربي الوحيد الذي يقترب من اورويا كثيراً ، حيث ان المسافة بين اسبانيا ومغربنا لا تزيد عن 13 ميلاً ، لدرجة اننا نرى ارض اسبانيا بوضوح وربما رأينا بعضاً من سكانها يدرجون على اليابسة اذا كان الجو صحواً .

الثروة النباتية والحيوانية

وبلادنا بلد فلاحى ، لأن معظم اراضيها خصبة صالحة لكثير من انواع النباتات واهم حاصلاتها الزراعية : الحبوب والزيتين والقطن والفواكه والخضر والأزهار ، كما توجد بها الغابات الكثيرة ، والمراعى الطبيعية ، التي تعيش على اعشابها قطعان هائلة من البقر والغنم والمعز والإبل ، والخيول والحمير والبغال، كما تكثر الدواجن المتنوعة وأنواع شتى من حيوان الصيد البري وأسماك البحر والنهر .

الثروة المعدنية

يحتوي باطن الأرض المغربية على ثروة طائلة من المعادن المختلفة ، أهمها : الفوسفات والفحم الحجري ، والحديد والنفط والنحاس، وتصدر من الفوسفات والحديد والفحم الحجري كميات عظيمة إلى الخارج . والأمل معقود في ان تتمكن بلادنا في المستقبل من استغلال ثرواتها المعدنية بنفسها ، وذلك بإنشاء المعامل الضخمة اللازمة لصناعة الصلب .

وقد بدأت بوادر ذلك الأمل المنشود تظهر للوجود بالفعل ، حيث شُرع في تأسيس بعض المصانع الكبرى للقيام بتلك المهمة . وهكذا ستجمع بلادنا بين أهميتها في الناحية الفلاحية ، وأهميتها في الناحية الصناعية ، وهذه الميزة لا تشاركها فيها كثير من اقطار العالم .

السكان والمدن.

يبلغ تعداد السكان حوالي 13 مليوناً بما في ذلك الأجزاء المغتصبة . وهم يتألفون من : البربر (سكان المغرب الأقدمين) ، ومن العرب الطارئين على المغرب أيام الفتح الإسلامي وبعده ، ومن الأندلسيين . الذين هاجروا اليه في فترات مختلفة ، خصوصاً بعد إجلاء الإسبان لهم من الأندلس ، ومن اليهود وهم قلّة . وقد دخل بعضهم المغرب قبل الإسلام بأزمنة متقدمة ، كما جاء البعض الآخر من الاندلس فراراً من ظلم الإسبان وتعصبهم الكاثوليكي ضدهم .

وتكثر المدن في المغرب، وأهمها : فاس ذات المجد العلمي التليد ، ومراكش عاصمة المرابطين وحاضرة الجنوب حالياً ، ومكناس عاصمة المولى اسماعيل ، والرباط عاصمة المغرب السياسية ، والدار البيضاء عاصمته الاقتصادية ، وتطوان نزل الأندلسيين المهاجرين ، وطنجة ملتقى البحرين: الأبيض والمحيط ، وسبتة ومليلية ، وغيرها .. وهاتان الأخيرتان ما زالتا تحت النفوذ الإسباني .

المغرب بلد سياحي

وتعتبر بلادنا من اجمل بلدان العالم من حيث المناظر الطبيعية الخلابة،

فجبالها شاهقة تغطي الثلوج مساحاتٍ شاسعةٍ منها ، والأنهارُ والبحيرات
والعيون متعددة فيها ، والغابات الكثيفة والحقول الياقة ، والحاجيات
الضرورية والكمالية متوفرة بها ، ثم الأمن السائد ودمائة أخلاق السكان
واكرامهم للضيوف - كل ذلك يجعلنا نستبشر خيراً بمستقبل بلادنا في .
كافة النواحي ، خصوصاً في الميدان السياحي ، الذي هو مصدر مهم
في دعم اقتصادنا الوطني ، بالإضافة الى المصدرين الفلاحي والمعدني
للبارزين اليوم أكثر من غيرهما .

المغرب قبل الفتح الاسلامي



السكان الأصليون

تدل الآثار على ان المغرب كان مسكوناً منذ اقدم العصور، حتى أنه لا تُعرف بدايتها بالضبط ، ولكن تقدر بعدة آلاف من السنين قبل ميلاد المسيح عليه السلام . وتدل الآثار على ان المواطنين الأولين لشمال افريقيا وجنوب اوروبا كانوا من السلالة السوداء ، ولكنهم انقرضوا ، كما تدل الآثار على ان الصحراء الكبرى كانت اراضي خصبة ، كثيرة الثبات ، وفيرة المياه ، لطيفة الهواء . وكانت تسكنها جماعات انسانية كثيرة العدد ، غير ان العوامل الطبيعية قَسَتْ عليها، فغيرت من روائها وأبادت نباتاتها وأغاضت مياهها ، فهاجر سكانها الى الشمال الافريقي . وتدل الآثار كذلك على ان طوائف من الجنس السامي الكنعاني قدمت

الى المغرب من الشرق ، منذ الأعصر الغابرة . ويقول العلماء بأن اولئك الكنعانيين هم سكان المغرب الأقدمون . وهكذا تكون الآثار واقوال العلماء قد ايدت ما ذهب اليه ابن خلدون، حيث يقول : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم ، انهم من ولد كنعان » .

ويبدو من اقوال العلماء ان هؤلاء الكنعانيين وفدوا على المغرب في هجرات متعددة ابرزها اثنتان: الاولى حصلت من جنوب جزيرة العرب، والثانية حصلت من فلسطين ونواحيها ، في حوالي سنة 1215 ق . م ، وهذه الاخيرة كانت نتيجة لانتصار بني اسرائيل على اهل فلسطين الأولين أي الكنعانيين فهاجرت طوائف منهم الى المغرب، وذلك في عهد الفينيقيين. وفي هذا الصدد يقول احد المؤرخين : بأن اهل فلسطين* عندما تغلب عليهم بنو اسرائيل هاجرت طوائف منهم الى المغرب عن طريق مصر فليبيا ، كما ان بعضهم الآخر ذهب الى فينيقيا فنقلتهم السفن الفينيقية الى المغرب . ويذكر المؤرخون بأن هؤلاء الكنعانيين كانوا على قدر من الحضارة والمدنية .

ويقول العلماء بأن سكان المغرب الأقدمين وفلسطين وفينيقيا ومصر (والعرب) كلهم كنعانيون . وقد كان هؤلاء الكنعانيين – وبالأخص الفينيقيين والمصريين – فضل عظيم على الانسانية في الزمن القديم ، لأنهم أسبق الأمم الى الحضارة، كما كان الفينيقيون اول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الابجدية .

وتخالف طائفة اخرى من العلماء ما قاله ابن خلدون ومن شايعه من

= اهل فلسطين هؤلاء من اصل كنعاني وكانوا متحضرين ، الى ان هاجمتهم طوائف متهمجة آتت من جزيرة كريت فخربت ديارهم ومحقت حضارتهم .

المؤرخين حول اصل البربر المغاربة حيث تقول : إن اصل البربر من الجنس ذي الشعر الأسود والعيون السود، واللون الأدهم والجمجمة الطويلة، وأنهم من نفس السلالة التي تقطن اسبانيا وغرب فرنسا وإيطاليا ، هذا مع اعتراف اولئك العلماء بوجود عنصر الكنعانيين الوارد من الشرق ، والذي يتميز بلونه الأسمر .

ولى جانب هذين الجنس (الأدهم والأسمر) يوجد جنس آخر ذو لون ابيض وشعر اشقر وعيون زرقاء ، وهو فيما يرجح لا يمت بصلة الى الجنس السابقين ، ويسكن اليوم بلاد الريف بمغربنا الأقصى ، وبلاد جرجرة ببلاد الجزائر الشقيقة . وينسب بعض العلماء هذا الجنس الى الاصل الجرمانى ، كما يقولون بأنه اقدم وجوداً في المغرب من العناصر البربرية الاخرى .

وما يزال العلماء الى يومنا يعثرون على اجناس جديدة اخرى من بين البربر ، او السكان الاصليين ، وهذا يدل على تشعب أصلهم منذ القدم ، الشيء الذي أدى الى تضارب اقوال العلماء في نسبتهم : هل هم من الجنس الكنعاني المحض الوارد من الشرق ؟ ام أنهم من ذاك ومن جنس او اجناس اخرى وردت من اوروبا ومن افريقيا نفسها ؟

والسبب في قلة المعلومات عن اصل البربر الأقدمين يرجع الى ان تاريخ وجودهم في المغرب ظل مجهولاً آلاف السنين ، لأنهم لم يدونوا تاريخهم ، ولم يكشف عن امرهم الا بعد وصول الفينيقيين الى الشمال الافريقي ، في القرن الثاني عشر ق . م تقريباً ، حيث وجدوا به دولاً مستقلة كدولة موريتانيا وتوميديا وتوسكا وملقا . ولكن الشيء السذي تعجب منه العلماء اكثر من غيره هو ان اللغة السائدة بين البربر أجمعين

كنعانية الاصل ، وكذلك التقاليد والعادات ، فلعل الجنس الكنعاني كان أرقى من الاجناس الاخرى فأثر فيها ، او انه كان اكثرها عدداً فطغت لغته وعاداته عليها بحكم الأغلبية وابتلاع الكل للجزء .

وقد حكم المغرب من القبائل البربرية الكبرى في عهد الاسلام : أَوْ رَبَّةَ ، التي آوت مولاي إدريس وناصرته ، وصنهاجة ، التي هي أصل المرابطين ، ومصمودة التي ينتمي اليها الموحدون ، وزناة التي منها ينحدر المرينيون .

حياتهم القديمة

حياتهم الدينية :

كان البربر القدامى يعبدون مظاهر الطبيعة ، وأصناماً من الأحجار وغيرها ، كما كانوا يؤمنون بالسحر وأعمال السحرة . وقدسوا وعبدوا ايضاً بعض الحيوانات ، كالكبش ذي القرون الكبيرة والأفعى والقردة .

حياتهم الاجتماعية :

سكن البربر في بداية عهدهم الكهوف ، ولما ارتقوا قليلاً اتخذوا لهم مساكن من اكواخ بسيطة ، من اغصان الشجر ، أو من القصب ، كما سكنوا بيوتاً من الطين والاحجار . وما زالت هذه مساكن أغليبتهم في البادية إلى يومنا . ولم يعرفوا ابناء المدن إلا بعد احتكاك الفينيقيين بهم . وكانت قراهم ذات نظام يشبه النظام الجمهوري ، حيث يتوفر لدى كل منها مجلس مهمته النظر في مصالح القرية .

أما لباسهم فقد تطور عندهم وانحصر في جبات وبرانس من الصوف ،
بينما يضعون في أرجلهم نعالاً . اما رؤوسهم فتظل عارية مخلوقة الشعر ،
وقد يضعون فوقها أكاليل من الريش . وكان كل من الرجل والمرأة
يتزين ، ولكن الرجال يُمَيِّزُونَ بأقراط في آذانهم ، بينما النساء يميزن
بالخلائل في أرجلهن وبالوشم في وجوههن. وكان البربر يحترمون الروابط
العائلية .

أما ثرواتهم الرئيسية في عهدهم الاول فكانت تربية الماشية من
بقر وغنم ومعز ولبل وحمير ، اما الفلاحة فتأتي عندهم في الترتيب الثاني.
ويقال بأن البربر او الكنعانيين القادمين من الشرق صحبوا معهم الى
المغرب تلك الحيوانات الأليفة ، كما حملوا معهم المعلومات البدائية في
الفلاحة ، من مصر على الخصوص .

وكان سكان المغرب الاقدمون يعرفون القول ، وهو أصيل في البلاد
لم يجلب من الخارج ، كما كانوا يعرفون القمح والزيتون والكروم ،
وغذاؤهم الرئيسي الكسكس ، والألباب والنباتات السائغة ، لأنهم كانوا
في عهودهم الاولى نباتيين ، لا يأكلون اللحوم .

هل للبربر أدب وفن ؟

الواقع انه لم يكن للبربر أدب بالمعنى الصحيح ، ويعزى السبب في
ذلك الى ان اللغة البربرية - ان صح ان نطلق عليها لغة - كثيرة
اللهجات ، لا تستطيع ان تعبر عن الافكار الراقية بأسلوب ادبي خلاب ،
وبدقة متناهية ، كما هو الشأن في اللغة العربية والفارسية والهندية واليونانية ،

فالبربرية إذن مجرد لهجات بدائية محددة المعاني ، وتتميز في الغالب بالخشونة .

ورغم ذلك فقد كان للبربر حكايات يروونها عن الخوارق وأخرى عن بطولتهم وشجاعتهم في الحرب ، بشيء لا بأس به من جودة التعبير . كما كان من بينهم من يعرف القراءة والكتابة ، وما زالت بعض الحجارات الى يومنا مكتوبة باللغة القديمة ، ومن بينها ما كتب باللغة الحميرية ، مما يؤكد أصالة روابطنا بالعروبة منذ القدم .

وأما الفن فإن البربر قد نالوا فيه بعض الحظ ، ويتمثل ذلك في زخرفة الزرابي والملابس ، وتزيق الاواني الفخارية ، وفي وشم النساء ، ونقش الصور الآدمية والحيوانية على الصخور ، ولكنه فن بدائي توحيه الاشكال الهندسية ، وهو على كل حال ينم عن صفاء الطبع وسذاجة الفكرة ، وفطرية الذوق .

نحن أمة عربية

ومهما اشتد الخلاف حول الاصل البربري فإن مما لا شك فيه ان ارتباطنا بالشرق او بالعروبة أشد وأمتن لأسباب عدة ، منها :

1) حصول هجرات كثيرة من الكنعانيين من بلاد العرب وما جاورها الى المغرب .

2) اللهجة الكنعانية التي يتكلم بها سائر البربر ، حتى يومنا هذا واحتواؤها على مئات الكلمات العربية الأصل ، ثم ان القواعد النحوية البربرية تشبه كثيراً قواعد النحو في العربية .

(3) ان البربر يتصفون بنفس الخصال العربية الصميمة، كالكرم وحماية الجار والدفاع عن أفراد القبيلة، الى جانب اتصافهم بالشجاعة مع البساطة في العيش ، وما الى ذلك .

(4) ثم ذلك التجاوب الروحي والفكري ، وذلك الانسجام التام ، الذي حصل بين البربر والعرب الفاتحين، ولو بعد مدة طويلة ، فتوثقت بينهما الاخوة القديمة، التي تربطها ، لدرجة ان كثيراً من القبائل البربرية نسيّت لغتها القديمة ، وأصبحت تتكلم العربية ، كما ان كثيراً من القبائل العربية نسيّت لغتها واصبحت تتكلم البربرية .

(5) ولكن القرآن الكريم كان أكبر عامل على تقوية تلك الأخوة ، وعلى استعرا بنا ، حتى أصبحنا اليوم امة عربية او مستعربة على الأقل، دماً ولحماً ، ولغة وديناً وعاداتٍ وتقاليد . وانه لمن الحق ان ينادى اليوم بأننا لسنا عرباً .

● نقاط التلخيص ●

- البربر هم سكان المغرب الأصليون ، ويرجع بعض العلماء انهم جميعاً من الاصل الكنعاني العربي ، كما يرجح البعض الآخر ان معظمهم من اصل آخر .
- عبّد البربر القدامى مظاهر الطبيعة وبعض الحيوانات وأصناماً حجرية.
- سكنوا الكهوف ثم الاكواخ ثم بيوتاً من الطين والحجارة، وتطور لباسهم الى جبات وبرانس ، وكانوا يهتمون بتربية الماشية اكثر من الفلاحة في اول حياتهم .
- ليس للبربر ادب بالمعنى الصحيح ، اما الفن فكان لهم فيه بعض الحظ ، ولكنه بدائي يشف عن صفاء وفطرة .
- بالرغم من الاختلاف حول اصل البربر فإننا امة عربية نسباً وتاريخاً وديناً وتقاليده ، والأدلة على ذلك كثيرة .

استئلة

- 1 - هناك قولان بارزان يناقض الواحد منها الآخر حول اصل البربر فما هما ؟ أيهما ترجح ؟
- 2 - بماذا تملل غلبة اللهجة الكنعانية على البربر ؟
- 3 - لم لا توجد لدينا المعلومات الكافية عن احوال البربر القدامى ؟ متى بدأنا نعرفهم بكيفية علمية ؟
- 4 - ما السبب في انعدام حياة الادب لدى البربر ؟ هل الفن هو الآخر كان متعدياً عندهم ؟
- 5 - أورد ما تستطيع من أدلة تثبت بها اننا امة عربية .

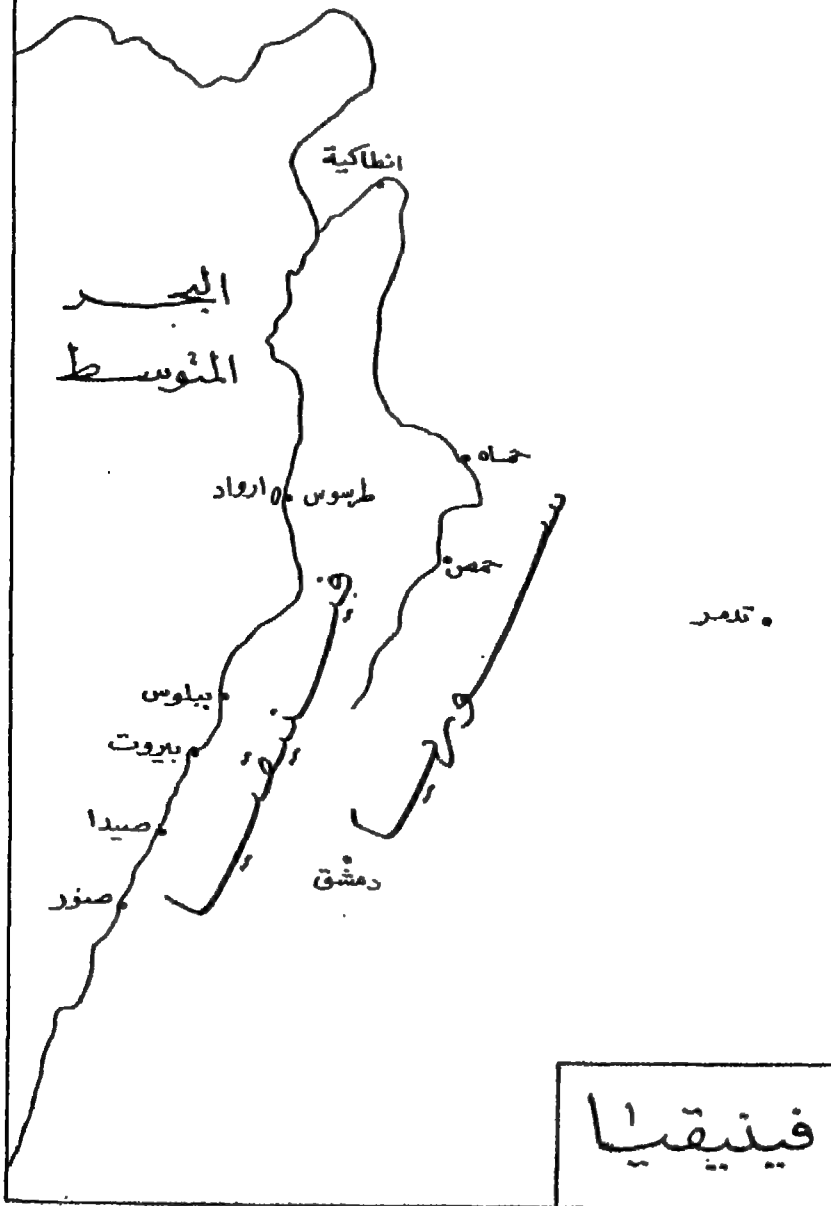
الفينيقيون والقرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون في المغرب



الفينيقيون (منذ أكثر من 1000 ق.م)

الفينيقيون من الاصل الكنعاني ، وهم أمة تجارية صناعية امتازت بنشاط عظيم . وكانت بلادهم تعرف بفينيقييا ، وقد برزوا في التاريخ كأمة ذات حضارة عظيمة منذ مئات السنين قبل الميلاد المسيحي، وكانت مدنها عامرة زاهرة ، وبلغوا شأواً بعيداً جداً في التمدن والحضارة . وهم أول من استعمل الزجاج، وأول من ركب البحار بسفنهم البحرية . التي صنعوها ، وأول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الهجائية . وكان من دأبهم ان يجوبوا البحار بسفنهم الكثيرة ، ويؤسسوا مراكز تجارية على الشواطئ الهامة ، لأنهم لم يكونوا يفكرون الا في التجارة وجمع الثروة من وراء تجاربهم واستقرارهم في الأماكن التي تروقهم من

الأناضول



فينيقيا

جهات العالم .

وأهم مراكزهم على الشاطئ الأفريقي الشمالي، هي : بزيوم بطرابلس الغرب ، وزجيتان وقرطاجنة ، وكلاهما بتونس ، وهييون بالجزائر ، وروسادير (مليلية) ، ولوكوس (العرائش) ، وتنجيس (طنجة) ، وغيرها ، وكلها في المغرب الأقصى .

وكانت صلتهم بالمغاربة تجارية محضة ، تتمثل في تبادل السلع عن طريق المقايضة . وقد استفاد المغاربة من حضارة الفينيقيين بعض الاستفادة.

القرطاجيون (883 ق.م - 146 ق.م)

في سنة 883 ق.م تأسست مدينة قرطاجنة - على الأرجح - على الساحل التونسي ، وكانت في أول عهدها ميناء تجارياً عادياً ، الى ان هاجرت اليها أسرة فينيقية برئاسة الأميرة عليشة (Elissa) سنة 480 ق.م ، فند ذلك الوقت فقط بدأت تظهر عظمة هذه المدينة ، اذ حكمتها تلك الاميرة حكماً ملكياً في بداية الأمر، وظلت محتفظة بتبعيةها لفينيقيا ، ولكن بعد مرور زمان تحولت حكومة قرطاجنة الى جمهورية، وانفصلت في الحكم عن الوطن الأم نهائياً . وأخذت تشق طريقها نحو العظمة والازدهار ، حتى بلغت في ذلك ذروة المنتهى . وقد استولت هذه الجمهورية القوية على الشمال الأفريقي كله ، ومعظم اسبانيا وعدة جزر في البحر الابيض ، وكان لها جيش عتيد ، وأسطول بحري كبير، استطاعت بواسطته ان تصول وتجول في البحر الابيض وحدها زمناً طويلاً . وعاشت هذه الأمة الفتية القوية ما يزيد على ستة قرون ونصف قرن،

في مجبوحة العز والسلطان والحضارة والمدنية.وقد حاربت اليونان منافستها في البحر الابيض المتوسط ، وانتصرت عليها فأصبحت بذلك سيدة البحر بدون منازع .

ثم اشتبكت قرطاجة مع الرومان في عدة حروب مهولة ، دامت أكثر من مائة سنة كانت خلالها تنتصر على الرومان انتصارات حاسمة ، ولكنها في النهاية انهزمت أمام جحافلهم ، فكان ذلك سبب خرابها ودمارها ، وذهاب عزها وعظمتها،ولقد دخلتها الجيوش الرومانية، فهدمت مدنها وأحرقت كتب العلم والأدب والحكمة بنحزائها العامرة ، وقتلت وشردت وعذبت آلاف القرطاجيين،فكان ما حل بهذه الجمهورية المغربية مأساة إنسانية قلما وجد لها مثيل في التاريخ .. وهكذا تحولت زعامة البحر الابيض المتوسط إلى أيدي الرومان .

وكان القرطاجيون كأبناء عمومتهم الفينيقيين أمة تفضل الكسب والثراء في حياة الهدوء والسلام . وقد استفاد المغاربة من إخوانهم القرطاجيين كثيراً من أساليب الحضارة في شتى الميادين ، وبالاخص في ميدان الفلاحة والصناعة والتجارة والتعليم . وكانت أهم مدنها في المغرب هي: Coricon Teichos (الصويرة) ، و Thimiaterion (المهدية) ، و Luxus (العرائش) ، و Tangis (طنجة) ، وكلها على ساحل المحيط الأطلسي . و Rusaddir (مليلية) على ساحل البحر الأبيض .

الرومان (146 ق . م – 439 م)

عندما تغلب الرومان على دولة قرطاجة ومحقوها محقاً كباراً استولوا على بلادها وجميع مستعمراتها ، التي كانت تابعة لها ، ومن ضمنها

سواحل المغرب الأقصى . فاحتلوا أولاً تونس ، وبعدها الجزائر ، أما سواحل المغرب فإنهم لم يتمكنوا من احتلالها إلا في سنة 42 م ، أي بعد اندحار قرطاجة بمائة وثمانين سنة . وقد اطلقوا على المغرب اسم موريتانيا . ومما تجدر ملاحظته ان الاحتلال الروماني في المغرب لم يتعد (سلا) على مصب نهر (بورقراق) وفي الداخل لم يتجاوز مدينة **Helupulis** (قرب مدينة زرهون) ، أما باقي الوطن فقد ظل مستقلاً يثور منه البربر على الرومان المستعمرين في كل فرصة سانحة ، فينغصون عليهم العيش والاستقرار .

وأهم المدن الرومانية في المغرب : سلاكولونيا (سلا) ، ولوكسوس (العرائش) وتنجيس (طنجة) ، عاصمتهم بالمغرب الأقصى ، وكل هذه المدن تقع على الشاطئ الغربي . ومن مدنها على الساحل الشمالي : مدينة روسادير (مليلية) ، ومن المدن الداخلية : مدينة هيلوبوليس . وكانت هذه المدن تتصل ببعضها بواسطة طرق حسة التعيد ، وكانت هناك قلاع وبروج منصوبة في كل مكان للمحافظة على الأمن .

وقد عامل الرومان المغاربة بمنتهى ما يتصوره العقل من القسوة والوحشية ، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سادة وأهل البلاد عبيداً لهم . وقد ظل المغرب خاضعاً لهم الى سنة 435 م ، إذ في هذه السنة أعلن بونيفاس الحاكم الروماني العصيان على دولته ، واستدعى الوندال الذين كانوا يحكمون اسبانيا - للقدوم الى المغرب قصد نصرته ، فلبى الوندال دعوته ، ودخلوا المغرب في نحو ثمانين ألف مقاتل ، بقيادة مليكهم جنسريك ، ولكنهم بدل ان يعينوا بونيفاس حاربوه ، كما حاربوا جيوش أعدائه ، وظلت الحروب قائمة بين الرومان والوندال ، الى ان قضى نهائياً على الرومانيين.

في المغرب . وكثيراً ما كان المغاربة يعينون الوندال على الرومان في تلك الحروب ، ظناً منهم أنهم جاءوا لتخليصهم من الاستعمار الروماني . وقد ظل حكم الرومان في المغرب مدة ستة قرون تقريباً ، وبعد هذا التاريخ جاء عهد الوندال .

الوندال (429 م — 534 م)

الوندال من السلالة الجرمانية ، وهم قبائل متبربرة متوحشة استعانت بهم الدولة الرومانية على ضبط النظام أيام ضعفها ، إلا أنهم مع مرور الأيام أصبحوا السادة المتحكمين في الرومان ، ثم احتل هؤلاء الوندال فرنسا ثم اسبانيا ، واستوطنوا على الخصوص في جزئها الجنوبي ، الذي سمي باسمهم : بآندلوش (الأندلس) .

وقد علمت أنهم دخلوا الى المغرب واحتلوه ، ورغم ان المغاربة وقفوا في جانبهم ضد الرومان ، فإنهم ما ان صفا لهم الجو في المغرب حتى بدأوا يرتكبون فيه أشنع الفظائع ، فأحرقوا وهدموا المباني والمزارع وبقروا بطون الحوامل ، وألقوا بالأطفال الرضّع على الأرض، وحسكوا رؤوس الشيوخ والشبان ، وهاكوا الاعراض ، لأنهم كما قلنا كانوا قوماً جهلاء متوحشين ، وهكذا كان عصرهم بالمغرب أسوأ من سابقه ..

وفي المغرب كوّن الوندال لهم دولة ملكية يرأسها قائدهم العظيم «جنسريك» ، وقد حكمت هذه الدولة رقعة الشمال الافريقي من طرابلس الغرب الى شاطئ المحيط الاطلسي ، وكذلك اسبانيا ، وأهم الجزر بالبحر الأبيض المتوسط . وكان لها جيش قوي يعد بعشرات الآلاف ،

وأسطول بحري ضخيم مهيب الجانب ، وكانت عاصمتها بالمغرب
« Tangis » (طنجة) .

وقد هاجم جنسريك روما وتمكن من الاستيلاء عليها ، وأباحها
لجنوده طيلة خمسة عشر يوماً ، فعاثوا فيها فساداً وخراباً . وقد ظل
هذا الملك الجبار يحكم دولته في حزم ونشاط وقوة مدة عشرين سنة ،
ولما توفي سنة 477 م دب الاضطراب في دولته ، وانشقت على نفسها ،
فقامت ضدها الشعوب التي كانت تزح تحت نيرها ، ومن بين هذه
الشعوب المغاربة ، الذين لم يستفيدوا من هؤلاء الوندال شيئاً ذا أهمية
لأنهم كانوا متوحشين .

وانتهزت الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) هذه الفرصة ،
فبعثت بقائدها **Belisrio** (بلزار) ، فاحتل قرطاجنة ، واستمر يحارب
الونداليين في الشمال الافريقي حتى قضى على دولتهم نهائياً . وبذلك انتهى
العهد الوندالي بالمغرب ، بعد ان دام فيه زهاء 151 سنة ، وابتدأ العهد
البيزنطي .

البيزنطيون (534 م – 640 م)

علمت سابقاً ان الدولة الرومانية قد وهن عظمها ودب فيها الضعف ،
وظلت كذلك الى ان أدى بها الامر في النهاية الى انقسامها قسمين
سنة 390 م :

- 1 — الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعاصمتها روما .
- 2 — الامبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية)

حالياً) . وعُرفت هذه الدولة عند العرب بالدولة الرومية .
وقد علمت ان الدولة الرومانية الشرقية هي التي قضت على الوندال
في المغرب ، وقد دام حكمها للشمال الافريقي مدة 154 سنة . ولم
يتغلغل احتلالها في المغرب كثيراً ، كما كان الشأن في العهد الروماني ،
بل اقتصر فقط على طنجة وسبتة ونواحيها . كما ان البيزنطيين عاملوا
المغاربة بشيء من العدل والانصاف، ولكن المواطنين لم يتأثروا بمحضارتهم
تأثراً يستحق الاعتبار .

● نقاط التلخيص ●

- الفينيقيون أعظم أمة تجارية صناعية ظهرت في التاريخ من أصل كنعاني ، وهم أول من صنعوا السفن البحرية وركبوا البحار ، وهم أول من علموا الدنيا الكتابة بالحروف الأبجدية ، ولم يكشف عن وجود البربر في الشمال الافريقي الا بفضلهم .
- القرطاجيون من الأصل الكنعاني أسسوا لهم دولة عظيمة تجارية صناعية أيضاً في الشمال الافريقي ، وظلوا سادة البحر الابيض الى ان تغلب عليهم الرومان، ومحو آثارهم الحضارية والعلمية والادبية، وقد استفاد البربر منهم كثيراً، كما استفادوا من اخوانهم الفينيقيين من قبل .
- قضى الرومان على قرطاجة فأصبحت لهم السيادة على البحر الابيض، وقد استولوا على الشمال الافريقي ، ولكنهم لم يحتلوا من المغرب الا أجزاء ، نظراً لمقاومة السكان لهم .
- قدم الوندال الى المغرب من اسبانيا، وأسسوا لهم فيه دولة وندالية، وقد عاثوا في البلاد الخراب والدمار وعاملوا الاهالي بمتهى الوحشية، ولذلك لم يستفيدوا منهم شيئاً مذكوراً .
- انقسمت الدولة الرومانية ايام ضعفها الى دولة رومانية غربية ودولة رومانية شرقية ، وقد حاربت هذه الاخيرة وندال المغرب الى ان قضت عليهم بأقصى ما يُتصور من القسوة ، بينما عاملت السكان المغاربة بشيء من العدل والانصاف .

أسئلة

- 1 - ما اهم ميزات الفينيقيين ؟ كيف كانت علاقتهم بالمغرب ؟
- 2 - كيف ظهرت قرطاجة كدولة عظيمة في التاريخ ؟ ما صلتهم بالفينيقيين اولاً، وبالببر ثانياً من النواحي التي تعرفها ؟
- 3 - علل اسباب ما يأتي : احتفاظ الببر بمقاماتهم الموروثة في العهد الروماني : آ - عدم تأثيرهم بالحضارة الرومانية التأثير المتشود. ب - اكتفاء الرومان باحتلال جزء من الوطن. ج - استمرار مقاومة الاهالي لهم .
- 4 - اشرح كيف تمكن الوندال من تأسيس دولتهم في المغرب .
- 5 - ما الفرق بين حكمهم وحكم الرومان والبيزنطيين في المغرب ؟

آثار الحضارات

الفينيقية والقرطاجية والرومانية والبيزنطية في المغرب



أثر الحضارة الفينيقية والقرطاجية

علمت من قبل أن الفينيقيين أمةٌ بلغت من الرقي والحضارة حداً بعيداً ، وإن اهتمامهم الأكبر كان موجهاً نحو التجارة والصناعة، وجمع الثروة ، وانهم أنشأوا من أجل ذلك اسطولاً بحرياً قوياً كان يجوب البحر الأبيض في حرية تامة، وانهم أنشأوا على سواحلهم مراكز متعددة، وقد عرفت ما كان يوجد منها على الشواطئ المغربية . وكانت تلك المراكز والمدن عامرة مزدهرة ، تتمتع بقسط وافر من الحضارة والنشاط في جميع الميادين ، وبالأخص في الميدان التجاري ، غير أن ما كان منها في المغرب اندثر ولم يبق له أثر ، وأنشئت مكانها مدن جديدة . وقد تأثر البربر الى حدٍ ما بحضارة الفينيقيين ، وقلدوهم في المسكن

والملبس والمأكل ، خصوصاً سكان المدن . وكان العامل الأكبر في استفادة البربر من الفينيقيين هو التجارة، التي كانت تتم فيما بين الفريقين عن طريق المقايضة ، لأن استعمال النقد لم يكن معروفاً آنذاك عند الفينيقيين . فقد كان التجار الفينيقيون يقدمون الى البربر المغاربة الأقشة المتنوعة ، والأواني النحاسية والزجاجية والطينية ، والأسلحة والخمور ، بينما كان البربر يدفعون لهم مقابل ذلك : الجلود والعاج والذهب والصوف ، وأحياناً العبيد أيضاً .

ومن الأشياء التي تعلمها البربر من الفينيقيين غراسة الأشجار وبعض الصناعات وإتقان تربية المواشي، ثم إن الفينيقيين هم الذين حملوا على ظهر سفنهم الى المغرب جموعاً عظيمة من الكنعانيين ، الذين كانوا على قدر كبير من الحضارة والغنى .

ولما ظهرت قرطاجة الفينيقية الأصل كدولة عظيمة في البحر الأبيض ، سارت هي الاخرى مع المغاربة على منوال اجدادها من حيث المعاملة الحسنة ، والتبادل التجاري عن طريق المقايضة . وقد بسط القرطاجيون نفوذهم في المغرب ، وبالأخص على سواحله ، لأنهم كانوا أيضاً أمة تجارية لم تعنهم السياسة إلا بقدر ما يحتاجون اليها في معاملتهم التجارية وحياتهم الاجتماعية . ولقد تصاهروا مع السكان البربر ، ولم يكونوا يتدخلون في شؤونهم ، وظل الصفاء قائماً بين الجانبين ، لم تكدره حروب أهلية ذات أهمية . وكان هذا من الأسباب التي حملت البربر على التأثير بحضارتهم في شتى الميادين : في اللغة والدين والثقافة والفن ، والفلاحة ، كما تعلموا منهم كيفية استخراج المعادن من باطن الأرض ، وعصر الزيتون والخمر .

ولقد عبد المغاربة الكباش القرطاجي « عمون » ، وتعلموا لغتهم البونيقية* وكتابتها ، كما أخذوا عنهم هندسة البناء ومختلف الصناعات والفنون . وفي العصر القرطاجي كانت مدن المغرب الآتفة الذكر ، أكثر عمراً وحضارة مما كانت عليه سابقاً . وقد اعتمد القرطاجيون على المغاربة اعتماداً كبيراً في حروبهم ضد الرومان ، حيث كانت معظم جيوشهم تتألف منهم . وكان هؤلاء الجنود من أسباب انتصاراتهم في كثير من المعارك ضد أعدائهم ، ولكن خاتمة تلك الحروب مع الرومان انتهت باندحارهم وفناء دولتهم كما علمت .

وقد قام الرحالة القرطاجي هانون (Hannon) برحلة استكشافية هامة حول السواحل المغربية ماراً بأعمدة هرقل** ، وذلك سنة 450 ق.م ، وفي تلك الرحلة اتصل بكثير من أصناف البربر وغيرهم ، وعقد معهم صلات تجارية وودية . وهذا يؤكد أيضاً مبلغ اهتمام القرطاجيين بالاتصال بالسكان . ولا عجب فيما ساد من الصفاء والاخوة والانسجام بين البربر من جهة ، وبين الفينيقيين والقرطاجيين من جهة أخرى ، لأن قسماً مهماً من هؤلاء — ان لم يكن جلهم — يتحدثون معهم في أصل واحد هو الاصل الكنعاني العربي .

* اللغة البونيقية هي مزيج من الفينيقية والعبرية ، وتكونت في الشمال الإفريقي ، وكانت لغة العلم والحضارة لدى القرطاجيين والمغاربة .

** هرقل ، هو إله اقام له الفينيقيون معبداً عظيماً في اسبانيا قرب مدينة قادش ، وربما اقاموا له أيضاً عدداً من الاصنام فوق الجبال المحيطة ببوغاز جبل طارق ، ولذا اطلقت على هذه الجبال اعمدة هرقل .

أثر الحضارة الرومانية والبيزنطية

ما أن تغلب الرومان على قرطاجة سنة 146 ق.م حتى اسرعوا في الاستيلاء على جميع مستعمراتها ، ومن بينها سواحل الشمال الإفريقي ، ولكنهم في المغرب لم يتمكنوا من الاستيلاء الا على أجزاء من سواحله ومن داخله ، نظراً للمقاومة المستمرة ضدهم من جانب الأهالي . فأقصى نقطة وصلوا اليها على الساحل الغربي مدينة سلاكولونيا (سلا) ، وابتعد نقطة في الداخل هيمنوا عليها مدينة هليوبوليس . وكان المغرب في أول عهدهم مقاطعة مهمة لم يدخلوه في مجلسهم النيابي ، الذي يحدد اختصاصات الحاكم ، ويضمن بعض الحقوق للمواطنين ضمناً . ولكن في سنة 43 ق.م أيام كلود قيصر ، قُسم الشمال الإفريقي تقسيماً جديداً ، وأصبح المغرب الأقصى يعرف عندهم بموريتانيا الغربية ، أو موريتانيا التنجيسية ، نسبة الى تنجيس (طنجة) . ومنذ ذلك الوقت فقط ، وجه الرومان اليه كبير اهتمامهم .

وقد عرفت ان الرومان أسسوا بالمغرب عدة مدن ، وكانت تلك المدن عامرة جميلة ، بها القصور الفخمة ، والأسواق الرائجة والحمامات النظيفة ، والمسارح الواسعة ، والدكاكين المليئة بمختلف البضائع ، والمصالح الحكومية والمحاكم وبعض المدارس العلمية . وقد جعل الرومان لغتهم اللاتينية هي اللغة الرسمية في البلاد ، كما حثوا الأهالي على سكنى المدن بدل سكنى البادية ، الشيء الذي دفع بكثير من البربر الى ترك باديتهم ، والعيش في المدن المتحضرة ، وأدى ذلك الى تزايد السكان في الحواضر وتزايد البناء بها ، فكثرت المدن ، وكانت تتصل ببعضها بواسطة شبكة من الطرق المعبدة والقناطر المقامة على الأنهر .

ورغم ما كان الرومان يتمتعون به من حضارة ومدنية ، ورغم كثرة مدنها بالمغرب ، وحشهم الاهالي على سكانها ، ورغم جعلهم لغتهم اللاتينية رسمية في البلاد - رغم كل ذلك فإن البربرية الأصلية والبولنيكية (لغة قرطاجنة) وتقاليدهم البربر الموروثة عن أجدادهم الأولين ، وعن اخوانهم القرطاجنيين ، ظلت هي السائدة بين اغلب البربر طيلة الخمسة قرون ، التي استمر الرومان خلالها مهيمنين على المغرب . ذلك لأنهم كانوا يعاملون المغاربة معاملة سيئة جداً ، ويفرضون عليهم أفدح الضرائب ، يأخذون خيراتهم بالقوة ، ويحسّدون شبانهم قسراً ، كما كانوا يعتبرون انفسهم سادة ، والبربر عبيداً لهم . وهكذا كان الرومان يمثلون في المغرب النموذج المثالي للاستعمار الممقوت ، وهكذا رفض المغاربة يلباء وشمم ، ان يرضخوا للذل والصغار ، فاستمروا يحاربون السادة الرومانيين وينغصون عليهم الراحة والتنعم بلذيد الحياة طيلة مكوثهم بالمغرب . وكان كلما تقدم الرومان في ناحية ، ارتحلت القبائل البربرية عنها إلى ناحية اخرى .

وقد اعتمد الرومان على جنود المغرب ، وحاربوا بهم أوروبا على نهري الرين والدانوب ، وقد خلد ترجان ذكراهم في تمثاله بعد حرب داسي ، وأشاد ببطولتهم وشجاعتهم .

وقد كان الرومان يأخذون من المغرب القمح والزيت ومواد غذائية اخرى ، والجلود والصوف والمواشي والخيول والعقارات الطيبة . وكان معبر تلك التجارة هو اسبانيا . وهنا نعيد الى الأذهان ان المغاربة لم يتأثروا بحضارة الرومان التأثير الذي كان مستظراً ، لأسباب عدة منها : معاملة الرومان القاسية للأهالي ، ثم غرابة الجنس الروماني ولغتهم وتقاليدهم.

بالنسبة لهم، وأخيراً طبيعة المغاربة التي تأبى الذل والخنوع . هذا باستثناء البربر سكان المدن ، لأن أغنياءهم على الخصوص تعلموا اللغة اللاتينية وقلدوا الأسياد الرومان في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ومشربهم ، ولكن بالرغم من ذلك فإن هذا المظهر الحضاري الروماني سرعان ما زال ، ولم يبق منه إلا بعض الأطلال هنا وهناك في البلاد ، فكأنه كان مجرد طلاء مغشوش أو سراب خادع .

ثم جاء البيزنطيون الى المغرب وقضوا على الوندال وأذاقوهم مر العذاب، وجرعوهم كأس المنايا ، بينما عاملوا البربر وبقايا الرومان معاملة حسنة . الا ان نفوذ هؤلاء في المغرب لم يتعد نواحي طنجة ومبته . ويرجع ذلك الى ان البيزنطيين لم يكن يهمهم في استعمارهم الا الاستيلاء على الموانئ التجارية ، او لأن المغاربة كانوا ينغصون عليهم الحياة بسبب الهجمات العنيفة التي كانوا يشنونها عليهم في كل وقت وحين . وربما يعزى ذلك ايضاً الى ان الاهالي البربر كانوا في عهدهم متحضرين ، يدل على ذلك كثرة المدن المغربية التي كانت موجودة آنذاك . ولعل هذا ايضاً من الاسباب التي لم تجعل المغاربة يتأثرون بحضارتهم كثيراً. وفي عهدهم هبت ريح الفتنة على البلاد بسبب اختلاف المذاهب المسيحية ، فأطاحت بأخضرها ويابسها واحتدم القتال بين طوائف الدين ، وشاع الخراب والدمار في المدن الآهلة .

• نقاط التلخيص •

- أسس الفينيقيون في المغرب عدة مدن ، وعاملوا سكانه البربر معاملة حسنة ، وتبادلوا معهم السلع عن طريق المقايضة ، ونتج عن ذلك تأثير البربر بحضارتهم .
- لما قامت دولة قرطاجة في الشمال الافريقي استولت على اجزاء مهمة من المغرب ، وعاملت سكانه معاملة كريمة كأجدادهم الفينيقيين ، فتأثر بهم البربر أبلغ تأثر في كافة النواحي .
- تغلب الرومان على القرطاجيين واستولوا على مستعمراتهم ومن بينها المغرب الأقصى ، الذي بنوا فيه عدة مدن ، وأحكموا ادارتهم للبلاد ، ولكن البربر لم يتأثروا بحضارتهم التأثير المطلوب .
- استعان الرومان بالجيش المغربي في حروبهم بأوروبا ، وقد خلد ذكراهم ترجان في حروب داسي على نهري الرين والدانوب لما أبدوه من شجاعة وبطولة .
- قضى البيزنطيون على الوندال بالمغرب وحلوا محلهم ، ورغم معاملتهم الحسنة للسكان فانهم لم يتأثروا بحضارتهم الا طفيفاً .

اسئلة

- 1 - اذكر ما تعرفه عن الفينيقيين وتأثير البربر بحضارتهم .
- 2 - كيف تأسست دولة قرطاجة ، واين ؟
- 3 - ماذا استفاد البربر من حضارة القرطاجيين ؟
- 4 - ما الفرق بين معاملة كل من : الفينيقيين والقرطاجيين والرومانين والبيزنطيين للمغاربة ؟
- 5 - علل لم لم يستفد البربر كثيراً من الحضارتين : الرومانية والبيزنطية ؟

الفتح الاسلامي في المغرب الفاتحون الاولون

(62 - 172 هـ)



تمهيد :

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب تقدمت جيوش الإسلام الى برقة وطرابلس ثم فزان بأرض ليبيا ، ثم رجعوا عنها بعد فرض جزية على أهلها . وفي ايام الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي سرح . وفي سنة 36 هـ أمر الخليفة واليه على مصر بأن يتقدم نحو الشمال الإفريقي ، الذي كان خاضعاً للروم البيزنطيين، يحكمهم بطريقهم « جرجير » - وكانت مدينة اسبيطلة مقر حكمه بتونس ، فدخل عبدالله بجيوشه المؤمنة في أرض افريقية (تونس الحالية) . وصحب معه في هذه الحملة بطلاً فذاً هو عقبة بن نافع الفهري . وإلى هذا البطل يرجع كثير من الفضل في

انتصار المسلمين على الأعداء الروم ، وقتل بطريقهم « جرجير » في آخر معركة . وأمام ذلك لم يسع الروم إلا أن يطلبوا الصالح ، فقبله المسلمون على أن يدفع الروم لهم تعويضاً مالياً عظيماً يقدر بآلاف الدنانير .

ويمكننا أن نعتبر فتح مصر في عهد عُمر ، وكذا الانتصار الحاسم الذي حققه المسلمون على الروم في افريقية ، بداية الفتح لشمال افريقية ، ذلك الفتح الذي تصدى له أربعة قواد مسلمين عظام ، هم : عقبة بن نافع الفهري - زهير بن قيس البلوي - حسان بن النعمان الغساني - موسى بن نصير .

عقبة بن نافع الفهري (المتوفى سنة 63 هـ)

ابتدأ ظهور هذا البطل العظيم كمثائد حربي محنك ، منذ شارك في حروب الروم بإفريقية ، التي أسلفنا ذكرها . ولما تولى معاوية بن أبي سفيان أمر الخلافة ، كلفه بفتح الشمال الإفريقي سنة 50 هـ ، على أن يتولى إدارة جميع البقاع التي يحقق الاستيلاء عليها . وجعل ولايته على البلاد المغربية (الشمال الإفريقي) منفصلة تماماً عن تبعيتها لوالي مصر ، كل ذلك تقديراً لكفاءته ومهارته . وتقدم هذا البطل غازياً البلاد ، فاستولى على طرابلس وعلى تونس ، بعد أن تغلب على مقاومتها ، وأسس بتونس مدينة القيروان وجامعها الذي يحمل اسمه ولا يزال قائماً الى يومنا ، وجعل المدينة عاصمة حكمه ، فكانت أول عاصمة إسلامية في المغرب العربي (الشمال الإفريقي) .

وبينا عقبة عاكف على تنظيم الشؤون بالبلاد التي استخلصها من

أيدي الروم والبربر ، إذا بالخليفة معاوية يأمر بعزله ، بسبب وشاية بعض الخبثاء الذين لا يخلو منهم عصر ، غير ان هذا البطل لم يستسلم للتهمة التي ألصقت به ، فذهب الى دمشق وقابل الخليفة وأقنعه ببراءته مما نسب إليه ، وأنه الوحيد الذي يعول عليه في القيام أحسن قيام بمهمة الفتح ، نظراً لأنه يعرف البلاد المغربية وطبيعة أهلها . غير ان المنية عاجلت الخليفة بعد مدة قليلة قبل تنفيذ وعده ، فلما تولى ابنه يزيد، الخلافة نفذ ما وعده به والده . وهكذا رجع عقبة إلى إمارته السابقة سنة 62 هـ ، بعد أن أمده الخليفة بكثير من الرجال والعناد والمؤن .

ولما حل البطل عقبة بالقيروان نظم جيوشه تنظيمًا يضمن له النجاح في مهمته ، وجعل زهير بن قيس البلوي نائباً عنه على القيروان مدة غيابه . ثم مضى في بلاد المغرب يحارب البربر فتتمكن من الاستيلاء على ما بقي من المغرب الأدنى ، ثم المغرب الأوسط والأقصى . وتقدم إلى جبال الأطلس معقل البربر فاستولى عليها، ثم توجه إلى الصحراء فأخضعها. وبعد ذلك اتجه نحو الشاطئ الأطلسي ، حيث مدينة آسفي ، وهناك أدخل قوائم فرسه في البحر ورفع كفيه إلى السماء ، فقلده جميع رجاله المجاهدين ، وقال ما معناه : اللهم إننا مدافعون عن دين الإسلام ، لا نطلب مالاً أو جاهاً من وراء ذلك ، ولولا هذا البحر العائق لمضينا .نقاتل في سبيلك ، حتى لا يبقى أحد يعبد سواك .

ثم سار عقبة بجيوشه الباسلة إلى مدينة طنجة ، ومنها أمرهم إلى القيروان ، على أن يلتحق بهم مع ثلة من فرسانه ، فنفذ المسلمون أمره وعادوا . أما هو فتبعهم مع قليل من رجاله يقدر عددهم بثلاثمائة فارس تقريباً . ولكن ما أن وصل المغرب الأوسط ورآه البربر في قلة من

جنوده حتى هاجمته آلاف منهم بقيادة أميرهم العظيم كسية أو كسيلة ،
فدافع عقبة هو وأصحابه عن أنفسهم دفاع الأبطال اليامين ، وانتهت
المعركة باستشهاد ذلك القائد العربي العظيم وجميع من كان في صحبته
من المجاهدين الأبرار . وقد دفن - رضي الله عنه - في المكان الذي
سقط فيه شهيداً ، بالقرب من مدينة بسكرة ، وقبره اليوم مزار مقدس
لكافة المغاربة ، يستوحون منه معاني العظمة والبطولة والشرف .

وعقب ذلك تقدم الزعيم البربري كسيلة إلى مدينة القيروان فاستولى
عليها ، بعد معارك دامية نشبت بينه وبين المسلمين ، الذين اضطروا
إلى التقهقر نحو برقة ، أمام القوات البربرية الكثيرة العدد . وظل كسيلة
يتتبع فلول العرب في كل مكان فيقضي عليهم ، وأصبح منذ ذلك
الوقت السيد المطاع والأمير المهاب في طول البلاد المغربية وعرضها .

وقد تعجب لماذا لم يترك عقبة بن نافع قوة كافية من الجيش الإسلامي
في المغرب ، ليضمن بذلك استتباب الأمن ؟ ثم لماذا رجع مع قليل من
رجاله ، بينما كان الواجب ألا يتنقل في أطراف البلاد إلا بمعية كثير
من جنده ، خصوصاً وأن البلاد كانت حديثة العهد بالاحتلال العربي ؟..
ويعلل البعض السبب في ذلك كما يأتي :

1 - ربما اعتقد انه قضى على شوكة البربر ، ولن يستطيعوا القيام
ضده بعد تغلبه عليهم ، واستيلائه على بلادهم ، قياساً على ما كان
يفعله العرب مع كثير من الأقطار التي فتحوها في المشرق .

2 - أو ربما اعتقد ان البربر الذين تغلب عليهم بحد السيف قد
فهموا الغاية السامية ، التي جاء المسلمون من أجلها إلى بلادهم ، وهي .

نشر دعوة الله الواحد الأحد ، ونبد عبادة الشرك والوثنية .

زهير بن قيس البلوي

بعد مقتل عقبة بن نافع - رضي الله عنه - هدأت حركة الفتح الإسلامي في المغرب، مدة من الزمان ، إلى ان بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة ، فعين زهير بن قيس البلوي أميراً على الأقاليم المفتوحة في المغرب، وأمره بمتابعة الفتح لاستعادته كله إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى . وهكذا تقدم زهير بجيوشه الجسارة المؤمنة في البلاد غازیاً سنة 69 هـ ، فاشتبك مع البربر والروم في حروب يشيب لها الولدان ، أسفرت نهايتها عن سقوط مدينة القيروان في أيدي العرب، وموت الأمير كسيلة البربري في ساحة القتال ميتة أبطال الوطنية .

وهكذا استولى زهير على المغربين الأدنى والأوسط . وبينما هو عائد مع رجاله من افريقية، في طريقه إلى المشرق إذا بمجموع الروم تهاجمه ، فاشتبك معهم في الحرب وتغلب عليهم . ثم واصل سيره . وما ان اقترب من مدينة برقة حتى علم بأن الروم أغاروا عليها ، وانهم نهبوا نهباً ، وقتلوا وسبوا ، وأخلوا كثيراً من المسلمين أسرى . فما كان من زهير إلا أن أسرع إلى ساحل المدينة ، حيث جيوش العدو المغيرة لينقذ المسلمين ولكن ما ان رأى الروم في قوة عظيمة لا قبل له بالوقوف في وجهها حتى همّ بالتراجع . غير انه لم يطق صبراً عندما سمع صياح المسلمين واستغاثتهم به ، في الوقت الذي كان الروم يدفعونهم دفعاً إلى مراكزهم ، ليستخدموهم كعبيد في ديارهم .

وما ان برز زهير ورجاله أمام الروم حتى نزلوا من مراكبهم وحلوا عليهم كالجراد ، فاشتعلت نار الحرب بين الطرفين . وقد استشهد فيها معظم جيش العرب ، وفي مقدمتهم قائدهم البطل زهير بن قيس . وما أن سمع الخليفة عبد الملك بما حل بالمسلمين عموماً ، وبالقائد زهير خصوصاً حتى حزن حزناً عظيماً ، وصمم على الأخذ بالتأثر . وهكذا كانت نهاية زهير كنهاية عقبة - رضي الله عنها .

حسان بن النعمان

بعد موت زهير عين عبد الملك قائداً عظيماً آخر عوضاً عن المتوفى ، وأمره بالعمل على استرجاع البلاد المغربية إلى حوزة المسلمين . فأعد هذا القائد العدة ، وذهب في طريقه يحارب ، فاحتل مدينة قرطاجة ، وكانت عاصمة الروم بالشمال الإفريقي كله ، ولم يسبق للعرب من قبل ان فتحوها .

أما البربر فإنهم بعد موت أميرهم كسيلة تولت قيادتهم امرأة قوية الشخصية تسمى « داهية » وأطلق عليها العرب « الكاهنة » ، لأنها كانت تدعي علم الغيب ، وتشتغل بالسحر ، وربما كانت متعلمة ايضاً . وكان مقرها بجبال « أوراس » ، بالمغرب الأوسط ، وآمن بها جميع البربر ، ودانوا لها بالطاعة العمياء ، فأصبحت عليهم ملكة تأمر فتطاع . وهكذا أصبح لزاماً على القائد العربي حسان - إذا أراد تحقيق غايته - أن يحارب هذه المرأة الجبارة ، رغم ما تملكه من الجحافل البربرية ، التي لا حصر لها ، والمؤيدة بفلول الروم : الذين انضوا تحت لوائها .

وسرعان ما توجه حسان لمحاربة الكاهنة ، فاشتبك معها في حرب

ضروس ، انهزم فيها القائد العربي أول الأمر . فلما أمده الخليفة عبد الملك بما يحتاجه من الرجال هاجمها ، فتغلب على البربر ، وقتل ملكتهم « داهية » ، التي سقطت في ساحة الوغى ، كبطله عزيمة ، دافعت عن الوطن دفاع الأجداد . وليتها اعتنقت الإسلام ، إذن لكانت قد جمعت بين البطولة في الدين ، والبطولة في الوطنية .

ومن غريب ما قامت به هذه الملكة البربرية . الغيرة على حرمة الوطن ، أنها - بعد موت كسيلة وتوليها على البربر - أمرت بهدم جميع المدن والحصون ، وأتلفت ما حولها من بساتين وحقول ، وكل ما يستفاد منه من مظاهر الحضارة المغربية ، اعتقاداً منها أن العرب إنما يحاربون من أجل الثروة . والعيش في نعيم مستديم ، وأنهم لا محالة عائدون الى صحرائهم . ما لم يجدوا في المغرب بغيتهم ، وبذلك ينجو الوطن من سيطرتهم . وهكذا اتبعت هذه المرأة الداهية ، سياسة الأرض المحروقة، وفضلت هي ورجالها البربر سكنى الجبال والكهوف والأكواخ، على سكنى الحواضر ، وان يعيشوا عيشة التتشمش في ظل الحرية ، على نعيم الترف والمدينة .

وبعد أن قضى حسان على الزعيمة البربرية ، دان له معظم البربر بالطاعة ، فكون منهم القائد العربي أول حكومة إسلامية بالشمال الإفريقي . ويقال بأن حسان استصحب معه في عودته الى المشرق كثيراً من التحف الثمينة ، التي هي من مظاهر الحضارة المغربية القديمة ، وقدمها هدية الى الخليفة عبد الملك . غير أن أخا الخليفة عبد العزيز بن مروان ، عزل حساناً من منصبه ، على الرغم من أنه كان مجرد أمير على مصر ، مثل حسان الذي كان أميراً على البلاد المغربية .

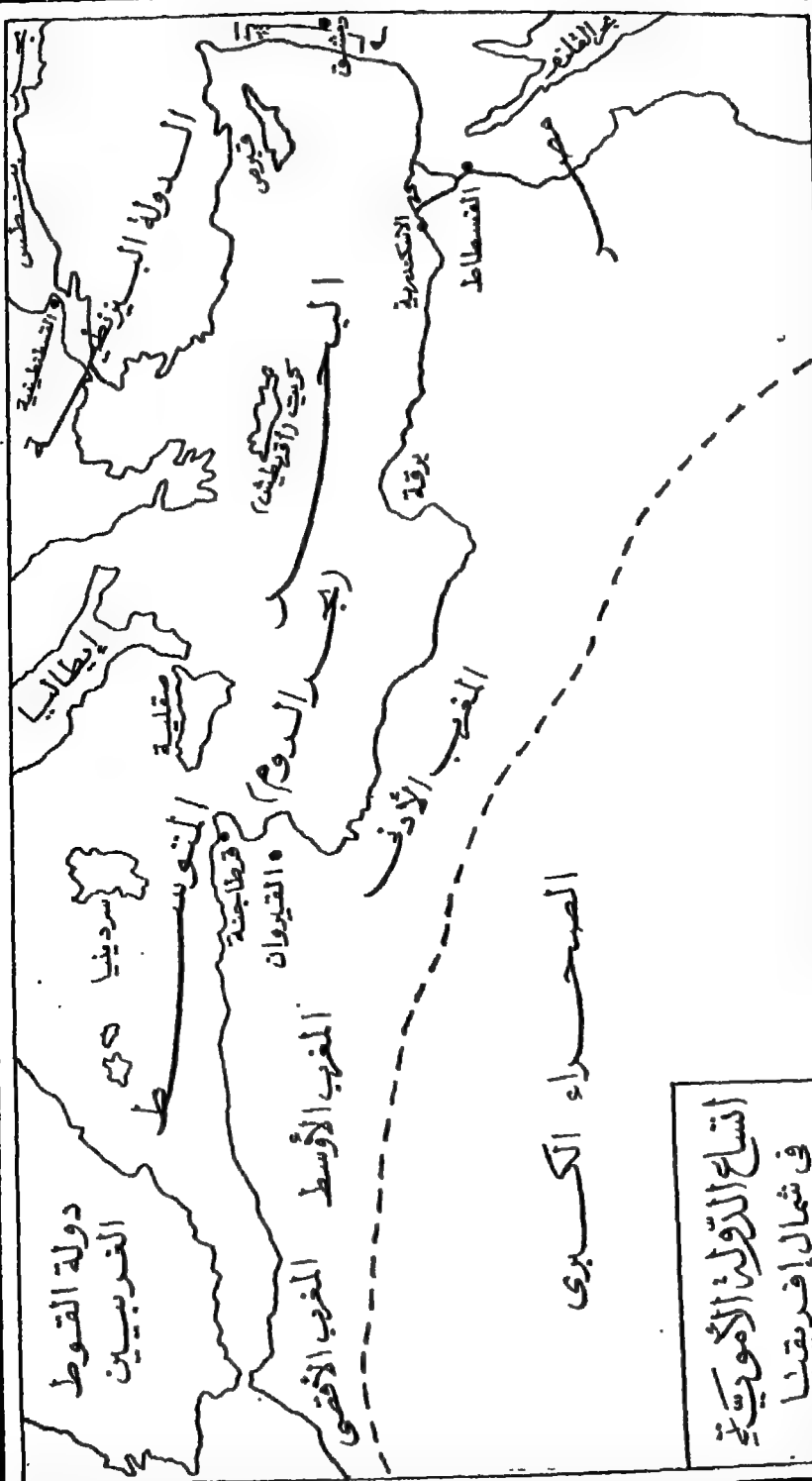
ويلاحظ أن بداية اعتناق البربر الاسلام - بكيفية صحيحة واسعة عن ذي قبل - وكذا استعراهم - بطريقة أكثر جدوى - حصل في عهد القائد الحازم حسان ، لأنه اهتم بتعريف الناس مسائل دينهم ، وألزامهم بتعلم العربية ، التي جعلها رسمية في كافة البلاد المغربية .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة بعث بعشرة من الفقهاء لتعليم البربر شؤون الدين . ولكن رغم أن عدة آلاف منهم اعتنقوا الاسلام، كما تعلم كثير منهم العربية ، فإن الأغلبية الساحقة البربرية ، ظلت على ما هي عليه من جهل بأمور الدين ، ولا تتكلم سوى لهجتها القومية . وبعبارة أخرى أن الدين الإسلامي واللغة العربية ظلّا كما كانا عليه في عهد حسان ، أو تقدما بقدر طفيف لا يستحق الاهتمام .

موسى بن نصير

خلف هذا البطل الجديد القائد المعزول حسان في الولاية على إفريقية، والاستمرار في الحرب ضد الذين خرجوا عن طاعة المسلمين ، بعد مقتل عقبة وزهير - رضي الله عنهما - فضى في البلاد يقضي على ما يعترض سبيله من مقاومات ، وبالأخص في المغرب الأقصى ، حيث تكتلت قوات البربر هناك بعد اندحارها أمام القائد حسان في المغربين الأدنى فالأوسط . ولما استولى على مدينة طنجة اتخذها عاصمته بالمغرب . وبعد أن أتم إخضاع كافة البربر ، عمل على تحويل ما بالبلاد من كنائس الشّرك ، إلى مساجد لعبادة الله وحده ، كما بنى مسجداً بأغमत هيلانة . وما يدل على حنكة هذا القائد العربي وبُعد نظره انه سرعان ما

الطبري



أدرك أن ضمان السيطرة على المغاربة (البربر) بالقوة والسيف لا يمكن أن تدوم، لما جبلوا عليه من شجاعة وحب للحرية وإباء للضم . خصوصاً وقد رأى إنهم برهنوا على ذلك عملياً فيما أبدوه من شدة في مقاومة الفاتحين العرب، وفي وقوفهم ضدهم وقوف الطود الشامخ عشرات السنين . الأمر الذي لم يسبق له نظير فيما فتح من بلاد المشرق . بل رأى أنهم لجأوا إلى سياسة الأرض المحروقة في عهد ملكتهم داهية ، حيث هدموا المدن وقطعوا الأشجار وأبادوا كل مظهر من مظاهر الحضارة ، أملأ في ان يكون ذلك حاملاً للعرب على الرجوع إلى بلادهم . إنهم فعلوا كل ذلك وقاموا العرب تلك المقاومة العنيفة، لأنهم كانوا يجهلون خلال تلك المدة الغاية السامية . التي جاء العرب من أجلها إلى ديارهم ، حتى قدم موسى بن نصير فأفهمهم تلك الغاية بطريقة نظرية وعملية في آن واحد . فإلى جانب أنه أجبرهم على تعليم أبنائهم القرآن الكريم واللغة العربية ، كما عمل على تفتيحهم في أمور الدين — إلى جانب ذلك سلك سياسة عملية تلخص في أنه كوّن من البربر جيشاً ، وجعل عليه قادة برايرة مسلمين ، من بينهم طارق بن زياد .

وما أن أتم موسى تنظيمهم حتى فتح أمامهم مجالاً واسعاً بغزو اسبانيا ، حيث أتاح لهم الفرصة لإظهار شجاعتهم وإشباع نخوتهم في ميدان الحرب ، لا إرضاءً للعصبية الجاهلية ، ولا دفاعاً عن الشرك والوثنية ، بل ابتغاء مرضاة الله ، وتأيداً للمثل العليا، التي جاء الإسلام بها للبشر كافة .

● نقاط التلخيص ●

- كان عقبة بن نافع الفهري أول فاتح للمغرب سنة 50 هـ . وبينما هو راجع في عدد قليل من رجاله هاجمه البربر في المغرب الأوسط ، فدافع هو وأصحابه عن أنفسهم دفاع الأبطال ، ولكنهم سقطوا جميعاً في ساحة الشرف سنة 63 هـ .
- كلف زهير بن قيس البلوي بمتابعة فتح المغرب بعد عقبة ، فاستعاد هذا مدينة القيروان ، وقتل زعيم البربر كسيلة ، ولكنه قُتل في معركة نشبت بينه وبين الروم أثناء عودته إلى المشرق .
- بعد زهير عُين حسان بن النعمان ، فتمكن هذا من احتلال قرطاجنة عاصمة الروم في الشمال الإفريقي ، كما قتل أميرة البربر داهية . ومن حسنات هذا القائد أنه سعى إلى تعليم البربر أمور دينهم وحثهم على تعلم العربية .
- ولما عزل حسان من منصبه عين مكانه موسى بن نصير فاستأنف هذا الحرب ضد البربر الذين خرجوا عن طاعة المسلمين ، واستولى على طنجة واتخذها عاصمة للمغرب . وفي سنة 95 هـ أمر قائده المغربي طارق بن زياد بفتح الأندلس ففتحها .
- تدل سياسة موسى بن نصير مع البربر على أنه فهم نفسياتهم كرجال حرب وقتال ، ولذا فتح أمامهم مجال الأندلس لينشغلوا بفتحها من جهة ، ولكي تدخل في حوزة المسلمين مملكة جديدة من جهة أخرى .

اسئلة

- 1 - اذكر ادوار الفتح الاسلامي نحو الغرب قبل عقبة .
- 2 - كيف تمكن عقبة من الاستيلاء على الشمال الافريقي كله ؟ بم تعلق ارتحال جيوشه عن المغرب ، ثم موته مع قلة من رجاله ؟
- 3 - ما رأيك في الكفاح الذي قام به الزعيمان البربريان « كسيلة » و « داهية » ضد العرب ؟ بين السبب المحتمل الذي جعل البربر يقفون في وجه الفتح الإسلامي عشرات السنين .
- 4 - تحدث - باختصار - عما قام به زهير ثم حسان بن النعمان في المغرب .. في أي عهد منها كثر عدد من البربر ؟
- 5 - ما السياسة التي سلكها موسى بن نصير مع البربر ، وعلى أي شيء تدل ؟ ما أثرها ؟

فتح الاندلس

قبل الفتح

تكوّن اسبانيا والبرتغال شبه جزيرة واقعة في غرب أوروبا ، سماها العرب جزيرة الأندلس . والاسم الذي كانت البلاد تُعرف به أيام الفينيقيين هو اسبانيا « Espana » . وفي غضون القرن الخامس ق.م جاء القرطاجيون إلى البلاد واحتلوا مراكز بني عمومتهم الفينيقيين ، كما أسسوا غيرها ، ولما تغلب الرومان على قرطاجة استولوا على مستعمراتها ومن ضمنها اسبانيا ، التي خضعت لحكمهم سنة 134 ق.م. وفي سنة 106 م أغارت على رومة واسبانيا قبائل بربرية ، أتت من شمال أوروبا من بينهم الوندال الذين تسمت البلاد باسمهم « باندالوش » ، ثم أغارت على البلاد قبائل القوط ، وهم والوندال ينتسبون إلى الجرمان .

وفي سنة 581 م اعتنق القوط الديانة النصرانية ، ولما غزا المسلمون اسبانيا وجدوا دولة القوط هي الحاكمة في البلاد . وقبل قيام دولة

القوط كان يحكم اسبانيا الملك غيطشة «Witiza» العريق في النسب في أسرة الملك ، إلا أن أحوال البلاد في عهده كانت متضعضعة بسبب انقسام السكان إلى أحزاب وشيع ، وبسبب الضرائب الفادحة التي كان القسس يثقلون بها كاهل الشعب . فكانت النتيجة أن خلع الثوار الملك غيطشة عن عرشه وقتلوه شر قتلة ، وعينوا عليهم مكانه ملكاً آخر يسمى رُدرِيك «Rodrick» ويسميه العرب رُذريق أو لُذريق . ولم يكن هذا من أسرة الملك ، وإنما كان قائداً قوطياً من قواد الجيش، وبهذا تأسست الدولة القوطية التي وجدها العرب قائمة في اسبانيا .

وظل أبناء الملك المقتول ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المواتية لاسترداد حقهم المنصوب . وحق على الملك القوطي أيضاً حاكم سبته يوليان Julian لأنه لو شرف ابنته . وهكذا كانت الأسباب مواتية لدخول العرب اسبانيا .

استعادة الشمال الإفريقي

وفي سنة 88 هـ أسند الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ولاية الشمال الإفريقي إلى موسى بن نصير ، فاستطاع هذا البطل العظيم أن يتغلب على مقاومة البربر ويبعدهم من جديد للإخلاق إلى الطاعة والسكينة تحت ظل الإسلام ، فدانت له البلاد ، ولم يستعص عليه إلا فتح سبته ، التي كان يحكمها يوليان المذكور من قبل ملك اسبانيا ، ولكن لما غضب يوليان على ملكه حرض موسى بن نصير على غزو اسبانيا .

1 - حملة طريف :

استأذن موسى في ذلك الخليفة الوليد فأذن له . وفي رمضان

سنة 91 هـ عين موسى بطلاً مغربياً اسمه طريف على رأس فرقة من الجيش عدد رجالها أربعمائة راجل ومائة فارس تقريباً ليقوم بحبس النبض على شواطئ الأندلس ، فأدى طريف المهمة بنجاح ، وعاد إلى المغرب مصحوباً بكثير من الغنائم، وباسم هذا القائد سميت مدينة طريف المعروفة في اسبانيا .

2 - حملة طارق :

وفي سنة 29 هـ استعد موسى بن نصير لفتح اسبانيا وأستد قيادة الجيش إلى بطل مغربي آخر هو طارق بن زياد ، فقاد هذا البطل جنوده الشجعان البالغ عددهم اثني عشر ألف فارس وراجل معظمهم مغاربة ، ورافقه في هذه الغزوة يوليان حاكم سبته . وما ان علم ملك اسبانيا لنريق بذلك حتى جهز جيشاً جراراً يقدر بعشرات الالوف من الرجال ، وتوجه به لمقاتلة المسلمين . وعندما رأى طارق ذلك العدد الضخم من جيش النصارى ، بعث إلى موسى يطلب منه المدد العاجل ، فأنجده بخمسة آلاف جندي مغربي .

وعلى ضفاف وادي لكّة (Guadalète) قريباً من مدينة شريش الحالية اصطف الجيشان : الإسلامي ، والإسباني الذي لا يحصى عدده ، وخطب طارق في جيشه خطبته المشهورة : « أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، الخ .. » ، وذلك بعد أن أمر بعض رجاله بإحراق سفنه سرّاً ، حتى لا يطمع جنوده في الفرار. ثم نشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين ، و طال أمدها ، وفي نهايتها. انهزم جيش الإسبان انهزاماً ذريعاً ، وسقط

ملكهم لنريق صريعاً في ساحة الوغى . ثم تقدم طارق في البلاد، فاستولى على عدة مدن وقرى ، ومنها : استجة « Ecija » ، وطليطلة « Toledo » ، ومدينة سالم « Medina Celi » ، التي يقال إنه وجد فيها مائدة النبي سليمان . وكان كلما فتح مدينة ترك بها حامية وأعلن لأهلها أن العرب لم يجيئوا لبلادهم لسلب أموالهم ، وتخريب ديارهم ، أو لإفساد زرعهم ، أو قتلهم أو إيدائهم ، وإنما جاءوا فقط لهدايتهم إلى طريق الخير وعبادة الله وحده ، لا شريك له .

3 - حملة موسى بن نصير :

أما موسى بن نصير فإنه عندما سمع بانتصارات طارق ، دبّت في نفسه الغيرة ، ثم أعد جيشاً قوامه ثمانية عشر ألف رجل ، وتوجه بهم إلى اسبانيا في رجب 93 هـ ، فاستولى على مدن كثيرة منها مدينة اشيلية « Sevilla » التي كانت عاصمة الملك باسبانيا قبل الحكم القوطي . وفي طليطلة اجتمع بطارق فأخذ منه جميع ما تحت يده من الغنائم ، ومن بينها مائدة النبي سليمان . ثم واصل القائدان العظيمان : موسى وطارق إتمام فتح البلاد .

وبلاحظ أن سلوك طارق في غزواته كان يختلف تماماً عن سلوك موسى ، فإن الأول كان يقسم الغنائم بالقسطاس بينه وبين جنوده ، بعد أن يحتفظ منها بالخمس للخليفة ، باعتباره أميناً على مال الدولة ، بينما الثاني كان يستأثر وحده بكل ما يحصل عليه من أموال ونفائس . ويقال بأن طارق كان يطلع الخليفة رأساً على نتائج أعماله، متخطياً بذلك أميره موسى ، بينما كان هذا الأخير يكتب الخليفة في شأن طارق ،

ويذكر له عصيانه وعقوقه .

وأمام ذلك استدعاهما الخليفة الوليد للمثول بين يديه في دمشق، فلبى طارق الدعوة ، وحضر إلى دمشق ، بينما تباطأ موسى ، ولم يتوجه إلى دمشق إلا بعد أن جاءه أمر جديد من الخليفة يلح عليه .في الحضور ، وقبل أن يذهب ترك ابنه عبد العزيز في اشبيلية (العاصمة) حاكماً على الأندلس ، كما ترك ابنه عبدالله والياً على إفريقية ، وابناً ثالثاً على طنجة . وكان الخليفة الوليد قد أصيب بمرض عضال ، وكان وليّ عهده هو أخوه سليمان ، فبعث هذا إلى موسى بالتوقف ، حيث يصله كتابه ، حتى يتولى الخلافة بعد أخيه المحتضر ، لينال وحده شرف استلام الغنائم الأندلسية ، ولكن موسى رفض إطاعة سليمان فيما أراد وقدم إلى دمشق ، ودفع إلى الخليفة المريض كل ما كان تحت يديه من نفائس وأموال .

فلما تولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه، انتقم من موسى أشد الانتقام، حيث أقره وشرّد عائلته ، وجيء برأس ابنه عبد العزيز ، الذي تركه والياً على اسبانيا ، وعرض أمامه . فتجلد موسى. ثم أصدر هذا الخليفة القاسي — فيما بعد — أمره بعزل جميع اللخميين من مناصبهم ، لأن موسى ينتمي إليهم ، كل هذا بسبب امتناع موسى عن إطاعة أمره ، بالإضافة إلى الشكاوى التي كان طارق يرفعها إلى الخليفة ضد موسى .

وإن التاريخ ليأخذ على سليمان هذه المعاملة القاسية التي استعملها مع موسى بن نصير ، وهو البطل العظيم الذي استعاد الشمال الإفريقي إلى حظيرة الإسلام ، ودوّخ مملكة اسبانيا .

المغرب والأندلس في عهد الولاة

كان الخلفاء الأمويون بالشرق يعينون الولاة أو الأمراء ، لينوبوا عنهم في حكم الشمال الإفريقي والأندلس . وكان الوالي العام يقيم بالقيروان ، ويشمل نفوذه كل المغرب والأندلس بعد فتحها . وأول أمير عام عين على المغرب والأندلس هو موسى بن نصير ، وأول وال على الأندلس وحدها هو طارق بن زياد . وقد دام حكم الولاة بالأندلس زهاء 45 سنة كانت البلاد خلالها تعتبر تابعة لوالي المغرب (المغرب العربي) الذي كان مقره بالقيروان . وقد مرت سواء بالمغرب أو بالأندلس في عهد الولاة سلسلة من الأحداث الخطيرة ، اكتنفها كثير من الغموض التاريخي . ويلاحظ أن معظم تلك الحوادث التي جرت في المغرب خلال تلك الفترة كانت تنعكس انعكاساً أسوأ في بلاد الأندلس ، وهنا نجمل ما نراه مناسباً لدرسنا .

كانت تلك الفترة فترة انتقال من الفوضى الشاملة إلى حياة الاستقرار التي تمت على يد عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت أيضاً فترة صراع عنيف بين العرب والبربر ، كل منهما يريد أن يتغلب على صاحبه واخضاعه لحكمه . وهو امتداد للصراع الطويل الذي ابتدأ منذ الشروع في فتح المغرب . وهنا نرجح أن معظم الحوادث الدامية التي جرت سواء في المغرب أو في الأندلس ، وكذلك النفور الذي دب في النفوس ، تسبب في وجود معظمه العرب مع الأسف .

* لا نرى أن هذا يتقص شيئاً من واقعنا العربي ، فنحن اليوم عرب أو مستعربون كما في ذلك شك ، للأسباب التي سبق أن ذكرناها في الدرس الاول . ومن الأفضل ان ينبه الاستاذ تلاميذه الى ذلك ، حتى لا يختلط عليهم الامر .

فقد دخل العرب إلى المغرب حاملين معهم الهدى المحمدي، وبرهنوا في عهدهم الأول خلال الفتح على طهارة النفس، وخلوصها من شوائب العصبية والأثرة والصلف، ولكنهم ما أن استقروا في المغرب والأندلس، حتى بدأوا يحيون نعرتهم القبلية، التي نهاهم عنها الرسول(ص)، ضد بعضهم من جهة، وضد البربر من جهة أخرى. وهكذا تعصب اليمانيون ضد المضريين، ثم تعصبوا كلهم ضد البربر.

فهذا يزيد بن أبي مسلم عامل المغرب والأندلس يسيء معاملة البربر، ويريد أن يسير معهم كما سار الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق مع أهله، فقد فرض جزية على جميع من أسلم من البربر، وأمر بإعادتهم إلى قراهم ليعيشوا فيها كما كانوا قبل الإسلام. ولكنه ما أن شرع في تنفيذ خطته الجهنمية، حتى ثار عليه البربر ثورة عارمة، لا تبقي ولا تذر وقتلوه، وولوا مكانه عليهم محمد بن يزيد، ثم كتبوا إلى الخليفة يزيد ما نصه: «إنا لم نخلع يداً من طاعة ولكن يزيد سامنا ما لا يرضي الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك». وكان الخليفة عاقلاً جداً حيث تأسف لما حصل من عامله المقتول من مظالم، وأبدى موافقته على تعيين العامل الجديد.

وهذا عمر بن عبيدالله عاهل طنجة والمغرب الأقصى يسوم البربر سوء العذاب ويريد أن يخمس من أسلم منهم، فكانت النتيجة أن ثاروا عليه بدافع إبانهم الضيم المشهور فيهم. ولم يقف الأمر إلى هذا الحد، بل إن جميع عمال ابن الحبحاب الذي تولى إمارة المغرب والأندلس ساهموا بنصيبهم في الإساءة المزرية إلى البربر، إذ اعتبروهم مُسودين وهم أسياد، ضارين بذلك عرض الحائط مبدأ المساواة الذي جاء به الإسلام.

ثار البربر على عاملهم العربي ابن الحبحاب بزعماء قائدهم مسيرة المضغري ، وكان مذهب الخوارج الذي تفشى بين البربر عاملاً قوياً في إذكاء روح التمرد والمقاومة فيهم ضد العرب ، والعمل على الخروج عن طاعتهم . لأن ذلك المبدأ يدعو إلى المساواة بين المسلمين ، ولا يشترط في الأمير أن يكون أبيض أو أسود ، عربياً أو بربرياً . وحدثت معارك طاحنة بين جيوش مسيرة البربرية وبين العرب ، انتصر فيها هذا القائد البربري انتصاراً حاسماً ، وخاطبه البربر بأمر المؤمنين ، ولكنه أساء هو الآخر المسيرة فيهم فقتلوه وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي . فتقدم هذا إلى العرب ، وحاربهم وانتصر عليهم في وقعة مشهورة تعرف بوقعة الأشراف ، لأن كثيراً من أشراف العرب سقطوا قتلى في تلك المعركة . وعقب ذلك خرجت جميع جهات المغرب من سلطة ابن الحبحاب الذي عزله الخليفة هشام من منصبه .

وسمع أهل الأندلس - خصوصاً منهم البربر - بما أحرزه إخوانهم في المغرب من الانتصار على العرب فثاروا على عاملهم بها عقبة بن الحجاج السلولي ، وولوا مكانه عبد الملك بن قطن الفهري . ولكن الحالة ظلت على ما هي عليه من الفوضى والاضطراب سواء في المغرب أو في الأندلس .

ثم جاء هذا العامل العربي الجديد كلثوم بن عياض ، الذي عينه الخليفة هشام مكان ابن الحبحاب المعزول . فما ان استقر في القيروان حتى أخذ يسيء إلى البربر ، ثم تقدم بجيوشه الجاراة إلى المغرب الأقصى فاشتبك مع جيوش خالد الزناتي قرب وادي سبو فكان النصر للبربر . وما أن وصل الخبر إلى بربر الأندلس حتى انقضوا انقضاض الصاعقة على العرب ، فأكثرُوا الإيقاع بهم . فاختلفت الأمور بالأندلس ، كما اختلفت بالمغرب .

من قبل ، رغم ان العرب استطاعوا ان يلموا شعئهم ، ويتغلبوا على البربر في الأندلس . ولم تكن الحالة تتحسن نوعاً ما إلا نادراً، ونتج عن ذلك في النهاية خروج كل من المغرب والأندلس عن طاعة خلفاء الشرق، واستقلالهما بنفسهما ، حيث أسس عبد الرحمن الداخل دولته الأموية بالأندلس ، كما أسس إدريس الأكبر دولته الإدريسية بالمغرب، فيما بعد.

● نقاط التلخيص ●

- كان القوط هم الحاكمين لاسبانيا قبل فتح العرب لها . وكانوا يظلمون الإسبان ، ويفرضون عليهم الضرائب الفادحة . ولذا كانت الثورات لا يَحمد لها أوار .
- وفي سنة 88 هـ كلف الخليفة الأموي عبدُ الملك البطلَ موسى بن نصير باستعادة فتح المغرب ، فتمكن هذا من تحقيق الغرض .
- وفي سنة 92 هـ أمر موسى بن نصير القائد طارق بن زياد بغزو الأندلس ، فغزاها بجيوش معظمها مغربية ، واستولى على البلاد بمساعدة قائده موسى بن نصير في نهاية الأمر .
- بعد أن أتم موسى فتح المغرب والأندلس بدأ الخلفاء الأمويون يعينون ولاية عليها ، وكان والي القيروان هو والي الأكبر وعلى يديه يعين ولاية كل من المغرب والأندلس .
- وقد حدثت ثورات كثيرة في المغرب والأندلس في عهد هؤلاء الولاة ، كان السبب في معظمها الولاة العرب أنفسهم .

أسئلة

- 1 - كيف كانت أحوال اسبانيا قبل الفتح الإسلامي ؟
- 2 - تكلم عن حملتي طارق وموسى على الأندلس .
- 3 - ما اختصاص كل من والي الشمال الإفريقي ووالي الأندلس في عهد الولاة ؟
- 4 - حكم عقلك فيما يأتي :
 أ - غضب موسى بن نصير على طارق .
 ب - انتقام سليمان الخليفة الأموي من موسى بن نصير .
- 5 - جاء في الدرس أن معظم الحوادث والفتن كان مثيروها من العرب وحدهم .. ما رأيك فيما ذكر ؟ هل ذلك ينقص من واقعنا العربي حالياً ؟ لم ؟

الإدارة

(172 - 375 هـ)



وقعة فخ ونجاة إدريس

في سنة 169 هجرية اشتد بالمدينة أمر الحسين بن علي بن الحسن المثلث ، المنحدر من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتغلب على عاملها العباسي ، فبايعه الناس ، ثم سار الحسين هذا الى مكة ، وكان بها طائفة من كبار الحجاج العباسيين ، فاشتبكوا مع الحسين في القتال حتى هزموه هو وأصحابه ، ثم قتلوه وقطعوا رأسه . وقد أحصيت قتلى الحسين فكانوا مائة ونيفاً . واختلط المنهزمون ممن بقي على قيد الحياة بالحجاج ، وتفرقوا في كل جهة . وحصلت هذه الواقعة في مكان قريب من مكة ، يعرف بفخ .

وكان من جملة من حضر هذه الحادثة من آل الحسين يحي ولإدريس ، ولدا عبدالله ، ولكنها استطاعا ان ينجوا بنفسيهما ففر يحي الى بلاد

الدَّيْلَم بالشرق ، واجتمع الناس عليه هناك وبايعوه ، وتكوّن منهم دولة قوية،هددت مُلك العباسيين . ولكن يحيى اصطلاح مع هارون الرشيد ، فأكرم الخليفة العباسي مثواه أول الأمر ، ثم سجنه حتى مات في سجنه. أما إدريس فإنه توجه شطر المغرب الأقصى مع مولاة راشد ، ومر في طريقه على مصر وبرقة فتلمسان ثم طنجة ، التي كانت قاعدة المغرب الأقصى في ذلك الوقت . ولما لم يستطع المقام فيها رحل عنها ، وذهب الى مدينة ويلي . وهناك نزل على القائم بشؤونها ابن عبد الحميد الأوربسي. وكان دخول إدريس إلى المغرب في غرة ربيع الأول سنة 172 من الهجرة . وبعد قضائه بوليلي عدة أشهر جمع ابن عبد الحميد رؤساء البربر ووجوههم ، وعرفهم بشخصية إدريس ونسبه للرسول (ص) ، ثم دعاهم لبيعته فأجمعوا كلهم على مبايعته ، وعقب ذلك قام إدريس بخطب فيهم : « أيها الناس لا تملدوا الأعناق الى غيرنا ، فان الذي تجلدونه من الحق عندنا لا تجلدونه عند غيرنا » .

إدريس يجاهد في سبيل الله

ولما بايعت إدريس معظم القبائل البربرية كوّن منها جيشاً كبيراً أعده إعداداً حسناً ، ثم تقدم به لغزو بلاد تادلة بالمغرب الأقصى ففتحها ، وكان معظم أهلها على دين اليهودية والنصرانية ، فدخلوا في الإسلام جميعهم . ثم عاد إلى ويلي ومكث بها مدة شهر تقريباً ، استراح خلاله جيشه من التعب ، ثم خرج لغزو من بقي من البربر على المجوسية والنصرانية واليهودية ، ففتح قلاعاً كثيرة ، ودخل أهلها في الإسلام طوعاً وكرهاً ، ومن رفض الدخول في الإسلام قتله . ثم قفل راجعاً

إلى وليلي . ولم تدخل سنة 173 هـ حتى كان إدريس قد دوّخ معظم بلاد المغرب الأقصى طويلاً وعرضاً .

ثم قصد مدينة تلمسان - في أرض الجزائر الشقيقة - لمحاربة سكانها من قبائل مغراوة وبني يفرن . وما أن وصل إليها بجيشه الكثيف حتى خرج عاملها . ورضي بمبايعته دون العباسيين ، فدخل إدريس المدينة مع جيشه ، وأمن أهلها وبني بها مسجداً عرف باسم مسجد تلمسان .

وفاته بإيعاز من الرشيد

ولما علم الخليفة العباسي هارون الرشيد بما أصبح عليه إدريس من القوة والحول ، وباستيلائه على تلمسان التي كانت تحت النفوذ العباسي ، وهي في نظر وزيره يحيى البرمكي باب الشرق ، ومن دخل الباب دخل الدار - لما علم بذلك همّ بإعداد جيش كثيف وتوجيهه لمحاربة إدريس . ولكن وزيره نصحه بالعدول عن هذه الفكرة ، واقترح عليه اللجوء إلى الحيلة ، وذلك بأن يرسل إلى إدريس رجلاً ذكياً يتظاهر بأنه ضد العباسيين ، ويحتال على قتله . فاستحسن الرشيد الاقتراح ، ثم اختار للقيام بهذه المهمة رجلاً يدعى سليمان بن جرير المعروف بالشماخ .

جاء الشماخ إلى إدريس وتظاهر أمامه بأنه يحب أهل البيت ويكره العباسيين ، وأنه فر من قبضتهم بأعجوبة ، فصدقه إدريس وقربه إلى مجلسه ، وبالف في الثقة به وإكرامه . وذات يوم ، غاب راشد عن سيده إدريس ولم يكن يفارقه أبداً ، فوجد الشماخ الفرصة سانحة ، فدس له سمّاً خفية ، فقتله ، ثم انسل هارباً . ولما عاد راشد من غيبته وجد

إدريس ملقى على فراشه يتم بكمالات غير مفهومة .. وتفقد الشماخ فلم يجده، فأدرك في الحال أنه هو الجاني . وفي التو خرج راشد هو وجاعة من الجيش في طلب الشماخ فلحقه يعبر وادي ملوية ، وضربه ضربات بسيفه قطعت إحداها يده اليمنى ، وشجّت رأسه أخرى . ولكن رغم ذلك استطاع الشماخ ان ينجو بنفسه من القتل . ثم عاد راشد إلى وليلي ودفن إدريس بها ، وكانت وفاته في فاتح ربيع الثاني سنة 177 هـ .

وكان إدريس قد ترك زوجة بربرية حاملاً تدعى كتزة ، فجمع راشد وجوه البربر وطلب منهم أن ينتظروا ريثما تضع كتزة حملها ، فإن كان ولداً ولوه ملكاً عليهم خلفاً لأبيه ، وإن كان أنثى اختاروا من بينهم من يقوم بشؤونهم ، فوافق الجميع على ذلك . ولما وضعت كتزة كان المولود ذكراً ، قسموه إدريساً كأبيه ، ويقال إنه كان يشبهه . وقام راشد بأمور البربر أثناء الحمل ومن بعده، وقد بذل جهوداً مشكورة في تعليم الطفل إدريس وتربيته ، فحفظه القرآن الكريم ورواه الحديث الشريف ، وعلمه الشعر والحكم والأمثال ، ودرّبه على ركوب الخيل وفنون الحرب . ولما بلغ الولد 14 سنة وخمسة أشهر تقريباً، بويع بالملك كما بويع يوم ولادته ، وذلك في غرة ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة. فأظهر إدريس طول حياته من ضروب الفطنة والحنكة والجدارة ما يثير الدهشة .

ولما استقام له الامر ، وكثرت جيوشه ، وقوي نفوذه في طول البلاد وعرضها ، جاءت وفود كثيرة من العرب من افريقية والاندلس، يقدر عددهم بنحو مائة، فسر إدريس بهم غاية السرور ، وبالح في اكرامهم. وأسند إليهم المناصب الرفيعة دون البربر ، فعين منهم عُمر بن مُصعب

لأزدي المعروف بالملجوم وزيراً . كما عين أبا الحسن عبدالله كاتبه الخاص ، وعين غيرهما قاضياً ، وآخر قائداً عاماً للجيش ، وهكذا ، كما كان السبب في قيام بهلول المضغري بالثورة ضده ، وكان من قواده المخلصين . وقد دفع الإباءُ هذا القائد البربري إلى خلع بيعة إدريس إعلان بيعته للعباسيين .

وأمام ذلك لم يجد إدريس الأصغر يُدّ آمن استعطاف القائد البربري بقرابته لرسول (ص) ، فكف عنه بهلول وصالحه . ثم انحرف عنه اسحق لأوربي لنفس السبب المتقدم وهو تفضيله للعرب على البربر ، فترك هذا القائد البربري بيعة إدريس ، ومال إلى بني الأغلب التابعين للعباسيين ، باحتال إدريس عليه وقتله .

بناء مدينة فاس (192 هـ)

لما كثرت الوفود العربية على إدريس الأصغر ، وضاعت مدينة ويلي بهم فكر في بناء مدينة جديدة ، فوقع اختياره أخيراً على المكان الذي اكتشفه وزيره عمير بن مصعب ، حيث مدينة فاس حالياً . وكانت تسكن المكان قبائل على دين المجوسية واليهودية والنصرانية ، وكانوا في قتال لا ينقطع مع بعضهم بسبب اختلافهم الديني ، والعصية القبلية . ولما حضر إدريس لمعاينة الموضع ، وجد هذه القبائل تتقاتل ، فتدخل في الأمر وأصلح ما بينها ، ثم رغبها في اعتناق الإسلام فأسلم الجميع ، واتفق معهم على شراء المكان الذي اختاره لبناء المدينة بثمن يقدر بنحو ستة آلاف درهم ، ودفع لهم الثمن ، وأشهد عليهم في ذلك كاتبه أبا الحسن عبدالله .

وفي غرة ربيع الأول سنة 192 هـ شرع في بناء المدينة، مبتدئاً بعدوة الأندلس ، وبني بها مسجداً يعرف بجامع الأشياخ . وبعد ثلاث سنوات شرع في بناء عدوة القرويين وبني بها مسجدها المعروف بجامع الشرفاء . وبها بني مساكنه ، وانتقل إليها نهائياً مع أهله وعشيرته ورجال دولته . ولقد شجع الناس على بناء بيوتهم لتعمير المدينة . وفي عدوة الأندلس أنزل الأندلسيين الوافدين عليه من اسبانيا، واما في عدوة القرويين فقد أسكن عرب القيروان النازحين اليه . وكان عدد الأندلسيين ثلاثمائة أسرة ، وعدد العرب الوافدين من القيروان ثلاثة آلاف أسرة . ولما جاءت وفود من أهل الفرس من العراق أنزلهم بالقرب من عين علون .

ولما أتم إدريس الأصغر بناء مدينة فاس ، جعلها عاصمة ملكه . وفي سنة سبع وتسعين ومائة للهجرة، خرج لغزو بلاد المصامدة فأخضعها لحكمه، ثم عاد إلى فاس وظل بها مدة . ثم خرج في نفس السنة لمحاربة قبائل نفزة في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر الشقيقة) فتغلب عليها، واستولى على مدينة تلمسان ، واعتنى بإدخال إصلاحات هامة عليها ، ومكث بها مدة ثلاث سنوات ، ثم قفل راجعاً إلى فاس .

وهكذا تمكن إدريس الأصغر من توحيد صفوف البربر تحت لواء دولته الإدريسية . وأصبح نفوذه يشمل المغرب الأقصى والأوسط، الذي كان تابعاً من قبل للنفوذ العباسي . وظل هذا الملك الفذ يقوم بالأعمال الجليلة لصالح دولته إلى أن توفاه الله في جهادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين . وكان قد بلغ من العمر نحو ست وثلاثين سنة ودفن بعاصمته . وقد ترك من الأولاد اثني عشر ، كلهم ذكور ، أكبرهم محمد .

ولما اعتلى محمد بن إدريس الأصغر أريكة الملك قسم المغرب بين

إخوته الكبار بإشارة جدته ككتزة ، وبقي أولئك الإخوة عمالاً يأتَمرون بأمر أخيهام الملك ، ويسيرون وفق خطته . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تنازع الإخوة على الملك ، وقامت بينهم الفتنة ، وظل الحال كذلك حتى توفي الملك محمد بفاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ودفن بالعاصمة بالقرب من أبيه . وكان قبل وفاته قد عهد بالملك لابنه علي بن محمد ، الذي كان يبلغ من السن يوم توليته تسع سنوات وأربعة أشهر . فتولى الوصاية عليه بعض أفراد حاشية والده المخلصين ، وكانت أيام هذا الملك زاهرة ، ساد فيها الهدوء والأمن والازدهار نسبياً ، وتوفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين ، بعد ان عهد لأخيه يحيى بتولي شؤون الرعية . وكان عهد يحيى هذا عهد عز ورفاهية وسلطان عريض ، وعدل بين الناس ، وتقاطرت الوفود عليه من كل جهة : من المغرب ومن افريقية والأندلس .

جامعة القرويين (٥٤٥هـ)

كانت الأرض التي بنيت فيها جامعة القرويين ملكاً لرجل من قبيلة هواة ورثها عن أبيه ، الذي امتلكها أيام تأسيس فاس . وكان في جملة من وفد من عرب القيروان امرأة تسمى فاطمة بنت محمد الفهري ، وتكنى بأم البنين ، وكانت قد ورثت عن زوجها وإخوتها مالاً كثيراً وكانت امرأة صالحة ، فلما نزلت بعدوة القرويين ، ورأت ذلك الموضع أعجبها ، وفكرت في بناء مسجد للصلاة وتدريس العلم تقرباً إلى الله وشكراً على نعمائه . فاشتريت الأرض من صاحبها ، وشرعت في البناء يوم السبت فاتح رمضان سنة خمس وأربعين ومائتين ، وحفرت به بشراً

للبناء والسقي منه ، وتم بناء الجامع في عهد يحيى بن محمد ، الذي وصلت الدولة في زمانه أوج عزها وسلطانها .

وقد كان جامع القرويين أول جامعة إسلامية أسست في العالم الإسلامي ، ثم تأسست بعدها جامعة الأزهر الشريف بمصر ، بناها الفاطميون الذين ينحدرون من أصل مغربي أيضاً . وقد صارت القرويين على مرّ الأيام كعبة يحج إليها الطلاب من كافة البقاع والأصقاع ، وتخرج منها مئات من علماء الدين ، وفطاحل العلم وجهابذة اللغة والأدب ، بيّضوا وجه المغرب في سجل الزمان ، وخلدوا النبوغ المغربي في أسفار الشرق والغرب . واليوم وقد نظمت جامعة القرويين تنظيمًا عصريًا جديدًا في عهدي الملكين الجليلين المرحوم له محمد الخامس ، وابنه البار الحسن الثاني أطال الله عمره ، فإننا نرجو ونأمل أن تقوم القرويين بواجبها على الوجه الأكمل ، حتى تعيد مجدها الغابر وتحقق عزّها المرتجى إن شاء الله .

وبعد وفاة يحيى بن محمد تعاقب أبناء إدريس على ملك المغرب ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال عظيمة تستحق الذكر ، وظلت الحالة تسوء إلى أن قام على الدولة موسى بن أبي-العافية الذي كان خاضعاً للبيديين (الفاطميين) أول الأمر ثم خرج عن طاعتهم ، فعمل هذا على تقويض عرش الأدارسة . ولما حقق مراده أصبح السيد المطاع في البلاد . وتوارث أبناؤه الملك من بعده مدة مائة سنة تقريباً ، ولكن أيامهم كانت أسوأ من سابقتها ، ولم يقوموا بعمل جليل يستحقون عايه تقديرًا أو ثناء . وقد عاشت الدولة الإدريسية زهاء قرنين وثلاث سنين ، وكانت أيامها بصفة عامة زاهرة ، توفر فيها الأمن ، وتمتع الناس خلالها يقسط وافر من الحرية والرفاهية ، وكثرت المدن بصفة خاصة .

● نقاط التلخيص ●

- فر إدريس إثر واقعة فخ بالشرق ، ولجأ إلى المغرب مع موله راشد ، وهناك بايعته قبائل البربر ملكاً عليها .
- في سنة 177 هـ أوعز هارون الرشيد بقتل إدريس إلى شخص يدعى الشياخ فدى له سمّاً وقتله .
- لما مات إدريس انتظر البربر حتى وضعت زوجته حملها ، فكان المولود ولداً ، فأسرعت القبائل البربرية إلى مبايعته خلفاً لأبيه .
- لما ضاقت مدينة ويلي بالسكان أشار إدريس الأصغر ببناء مدينة فاس وذلك سنة 192 هـ ، واتخذها عاصمة لدولته .
- في عهد يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس بنت فاطمة بنت محمد الفهري جامعة القرويين ، فكانت أول جامعة أسست في العالم الإسلامي ، وصارت منذ تشييدها مهد العلم والعرفان ، وموئل العلماء والطلاب . وكان لجهودها العلمية فضل عظيم على حضارة المغرب .

أسئلة

- 1 - كيف فر إدريس من واقعة فخ ؟ كيف أسس دولته في المغرب ؟
- 2 - لم قتل هارون الرشيد إدريس ؟
- 3 - متى بنيت مدينة فاس ، وكيف تم ذلك ؟
- 4 - ما المشورة السيئة التي عمل بها إدريس الأصغر ؟ ما نتائجها ؟
- 5 - تحدث بإسهاب عن بناء جامعة القرويين ، وعما تعرفه من خدماتها العلمية .

قيام الدولة الاموية بالاندلس



عبد الرحمن الداخل (138 – 172 هـ)

لما آل أمر الخلافة في الشرق إلى بني العباس ، بعد تغلبهم على بني أمية ، شرعوا في تعقب فلولهم ، وتعذيب عائلاتهم قصد إبادتهم بشتى الوسائل ، فن قتل بالسيوف وطعن بالرماح ، إلى احتزاز للرؤوس وقطع للأطراف ، وصلب على الأخشاب وتعريض الأجسام لحجارة القيط . وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين قد أمر بقتل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وبعث إلى داره في دمشق رجالا لتنفيذ أمره . ولكنهم لما وصلوا البيت وجدوا صاحبه متغيباً عنه . وما ان علم عبد الرحمن بكل ذلك حتى فر إلى فلسطين هو وخادمه بدر ، بعد أن أخذ ما استطاع أخذه من مال .

ثم وصل إلى برقة ، فلما أحس عاملها ابن حبيب الفهري بوجوده

في المدينة فرق جنوده في كل مكان قصد العثور على الشاب الأموي. وغلّه في الأصفاة، ثم تسليمه إلى الخليفة العباسي طمعاً في الخطوة بمحبته ومجازاته على ذلك خير الجزاء . وكان هذا الرجل قد عينه الأمويون ليتولى عمالة برقة ونواحيها ، وظل ياتمر بأمرهم ، ويظهر لهم المحبة والإخلاص والطاعة تصنعاً ورياء ، فلما قضى العباسيون على الأمويين ، وأقاموا دولتهم أسرع هذا العامل المرائي بإعلان بيعته للحاكمين الجدد . ولما حل عبد الرحمن بعائلته خف للقبض عليه ، ناسياً فضل الأمويين عليه ، وتلك عادة اللثام ، وما أكثرهم ، ولكن أمه لم يتحقق ، فقد أفلت عبد الرحمن من يديه الملتصقين بالعار والشار ، ووصل سالماً إلى تاهرت أو تيهرت بالجزائر الشقيقة ، وكانت عاصمة البربر هناك . فاستقبل هو وأصحابه المخلصون الذين رافقوه من برقة ، من طرف زعيم البربر الزناتيين سكان تاهرت بكل حفاوة وترحيب وتكريم . وإلى قبيلة زناتة هذه ينتمي عبد الرحمن من جهة أمه البربرية (راح) .

وقد تربى عبد الرحمن يتيماً هو وإخوته في قصر جدهم هشام عاشر الخلفاء الأمويين ، لأن أباه معاوية توفي سنة 118 هـ ، وعمره هو خمس سنوات ، كما توفيت والدته . وكان هشام ينحس عبد الرحمن وإخوته بالخميس من ربيع الأندلس . وقد كان انتهاء أمه إلى البربر وريع الأندلس . المخصص له ، من الأسباب القوية التي جعلته يفضل الفرار إلى المغرب ، ويفكر في الدخول إلى اسبانيا ليؤسس دولته الأموية بها .

عبد الرحمن يؤسس دولته الأموية

وفي الوقت الذي كان عبد الرحمن مقيماً في تاهرت بين أخواله البربر ينعم بالأمن والحرية والسعادة والجاه ، كانت أحوال اسبانيا في غاية الفوضى والاضطراب ، بسبب الفتن الأهلية ، والحروب القائمة بين عامر بن عمرو العبّدي ، أمير سرقسطة ، وبين يوسف الفهري أمير قرطبة وطليطلة . ووصل إلى علم عبد الرحمن ما يجري في ديار الأندلس ، فرأى أن الفرصة مواتية ، فأرسل خادمه بدرًا إليها ليمهد له الطريق لتحقيق رغبته في الإمارة عليها .

ومن الصدف العجيبة التي قلما يجود بها الزمان أن يصل بسدر إلى قرطبة فيجد شيوخها ورؤساءها ووجوه القوم فيها مكونين اجتماعاً خطيراً يتباحثون فيه حول إقصاء أميرهم المتغيب يوسف الفهري بتهمة استغلاله منصب الإمارة في مصالحه الخاصة ومصالح آلِه من قبيلة قيس ، وبحجة أنه أخذ في سلخ اسبانيا المسلمة عن خلافة الشرق ، وفي ذلك ما فيه من التفرقة بين صفوف المسلمين ، وضعف كياناتهم . وفعلاً اتفقوا على عزل أميرهم ، ولكنهم ظلوا محتارين في اختيار الشخص الذي يحل محله ويكون حائراً على قوة الشخصية والفضل والعلم والتدين والحنكة . حتى يستطيع إعادة الأمن إلى نصابه ، وتحسين أحوال المسلمين ، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع .

فانتهازها بدر فرصة وأطلع بعضهم على قصده من المجيء إلى الأندلس ، ذاكراً لهم أن الصفات التي يشترطونها فيمن يتولى إمارتهم متوفرة في شخصية عبد الرحمن الأموي ، ودلهم على وجوده بتاهرت ، فغداولوا

فما بينهم في شأن ذلك . وأخيراً قرروا الموافقة على ما عرض عليهم بدر بالإجماع . وهياؤوا مركباً أبحروا به نحو تاهرت لنقل أميرهم الجديد عبد الرحمن . ولما وصلوا واجتمعوا بعبد الرحمن بايعوه أميراً عليهم باسم مسلمي الأندلس ، وطلبوا منه الارتحال معهم ليتسلم مقاليد الحكم .

لما عزم عبد الرحمن على مصاحبة الوفد الأندلسي أعدت له قبيلة زناتة مئات من فتيانها الأشاوس ليرافقوه إلى الأندلس ، ويشدوا عضده في إقامة دولته . وهكذا دخل عبد الرحمن إلى اسبانيا ، بعد أن أمضى في البلاد المغربية مدة تقدر بنحو خمس سنين ، طاف في أثنائها بين قبائل البربر ووطد صلته بها . وكان دخوله في ربيع الآخر سنة 138هـ ، في عهد أبي جعفر المنصور خليفة العباسيين، وعرف منذ ذلك الوقت بعبد الرحمن الداخل .

وأثناء دخوله انسلخ إقليم سبتيانا من بلاد الغال (فرنسا) * عن الحكم الإسلامي نتيجة لضعف المسلمين وقيام الفتن بينهم ، التي اضطرم أوارها زمناً طويلاً .

جهوده في سبيل الاستقرار والوحدة

دخل عبد الرحمن قرطبة واتخذها عاصمة لدولته الفتية ، أما يوسف الفهري ، الأمير السابق ، فإنه لما رجع من حربه ضد أمير سرقسطة ،

* مما تجدر ملاحظته أن العرب وصلوا في فتوحهم ببلاد الغال إلى مدينة ليون التي دخلت في حوزتهم ، ولكنهم تراجعوا إلى الأندلس غير منهزمين ، عندما سقط قائدهم عبد الرحمن النافقي في إحدى المعارك صريعاً كبطل من الأبطال العظام .

ووجد عبد الرحمن قد حل محله ، اشتبك معه في عدة حروب مهولة ، انتهت بتصالح الرجلين ، على أساس أن يرد عبد الرحمن ليوسف جميع أملاكه ، ويسمح له بالسكنى في بلاط الحر ، حيث قصره الفخم ، الذي يوجد بشرق قرطبة ، ومقابل ذلك يعترف يوسف بإمارة عبد الرحمن على الأندلس ، ويدفع له ولديه كرهينة على الاتفاق .

وما أن استقر على أريكة الإمارة حتى بدأت الوفود تتقاطر عليه من كل حذب لتعلن له بيعتها . وبعد زمن يسير أخذ فيه راحته، شرع في التجوال بأنحاء إسبانيا متفقداً أحوالها ، وعاملاً على الضرب على أيدي العابثين ومثيري الفتن .

وبينما عبد الرحمن يكرس الجهود في سبيل توحيد صفوف المسلمين في الأندلس تحت لوائه ، تارة بالحلم والسياسة ، وتارة بالقوة والسيف ، بينما هو كذلك إذا بيوسف المعزول ينظم - في الخفاء - حركته المعادية ، ويبدل الأموال بسعءاء في سبيل استمالة الرؤساء ، وتأليف جيش قوي يمكنه من القضاء على عبد الرحمن الداخل ، الذي اعتبره متعدياً عليه ، وغاصباً لحقه في الإمارة . وما ان حلت سنة 142 هـ حتى أعلن يوسف ثورته الخطيرة ضد عبد الرحمن ، فاستولى على الحصون والقلاع التي تقع في غرب قرطبة ، وكان يقود جيشاً لجباً قوامه عشرون ألف جندي ، وأعلن نفسه أميراً على الأماكن التي استولى عليها . ولما تعرضت له الجيوش الأموية هزمها أول الأمر ، ولكن عبد الرحمن حقق الانتصار عليه في النهاية . وأثناء هزيمته اغتاله بعض جنوده ، واحترقوا رأسه ، وبعثوا به إلى قرطبة ، برهاناً على طاعتهم ، وأملاً في الخطوة عند الأمير الأموي .

وقام أبناء يوسف الثائر المتوفى بصولات حربية جريئة ضد عبد الرحمن ، أخذاً لأبيهم بالنار ، وسعيّاً وراء استعادة حكمهم للبلاد . وكان يوسف وأبناؤه أعظم خطر يهدد كيان الدولة الأموية الحديثة العهد بالتكوين في الأندلس . فلما قضى عليهم استراح عبد الرحمن قليلاً من متاعب الحرب .

وفي سنة 145 هـ أمر أبو جعفر العباسي واليّه العلاء بن مغيث أن يستعيد اسبانيا إلى النفوذ العباسي كما كانت قبل قيام الدولة الأموية بها ، وأغار العلاء فعلاً على شواطئ الأندلس ، ولكنه فشل في تحقيق أمنيته . وفي تلك الأثناء كانت هناك ثورة عارمة ضد عبد الرحمن تدعو لبني العباس دون الأمويين ، واتفق كل من والي برشلونة : سليمان بن يقظان الأعرابي ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأيوب الأسود بن يوسف الذي كان عبد الرحمن الأمير قد سجنه سجناً مؤبداً . وقرروا طلب العون من شارلمان ، ملك بلاد الغال (فرنسا) ، الذي كان أعظم ملوك ذلك العصر ، والذي كان صديقاً للعباسيين .

وفي مدينة بَدْرِبُون Paderborn من أعمال فرنسا ، اجتمعوا بشارلمان وطلبوا مساعدته ، على أساس الاعتراف بسلطته على اسبانيا المسلمة . وتم الاتفاق بين الخوثة وشارلمان ، على أن يعينوه بمجوشهم المسلمة أثناء دخوله للبلاد دخول الظافر المنتصر ، ولكن المتفقين فشلوا بسبب اختلال الخطة ومحاربة بعضهم البعض ، واضطرار تراجع شارلمان عن الأماكن التي كان قد احتلها في اسبانيا ، لقيام فتنة كبرى في بلاده . ولما تمكن الأهالي من القبض على الأعرابي ، الذي كان رأس الفتنة حكموا عليه بالموت ، بتهمة الخيانة العظمى ، فقتل في الجامع على مرأى من الجميع .

وهكذا قضى عبد الرحمن على مناوئيه ، من عرب وفرنج وبربر ، ووطد دعائم حكمه في طول البلاد وعرضها بالحكمة أحياناً ، وبالقوة أخرى . ورغم قيام الفتن في البلاد ، وخوضه الحروب ضد أعدائه الكثيرين فقد قام عبد الرحمن بأعمال عظيمة في سبيل رقي البلاد، وتحسين أحوال الرعية. وقد صرف من أجل ذلك زهرة عمره، أي أربعاً وثلاثين سنة.

وكانت إسبانيا المسلمة قبل دخول عبد الرحمن الملقب بالداخل ، ولاية تابعة - بصفة عامة - إلى الخلافة العباسية بالشرق ، ولكنها بعد تأسيس الدولة الأموية بها انفصلت نهائياً عن تبعيتها للشرق . وكان عبد الرحمن يفكر دوماً في القضاء على العباسيين ، واسترداد ملك بني أمية الذي اغتصبوه اغتصاباً من أصحابه .

مظاهر الحضارة والعلم في عصره

اعتنى عبد الرحمن الداخل ببناء الجوامع الكثيرة للصلاة ودراسة العلم، وتشيد العمارات المنيفة والقصور الجميلة . وأهم تلك الجوامع جامع قرطبة الكبير ، الذي تم تشييده سنة 170 هـ ، ويقال إن نفقته بلغت مائة ألف دينار . وقد بني في مكان كنيسة كانت قائمة هناك . كما بنى الأمير كثيراً من الحمامات والأسواق والفنادق، وشجع على البناء والتشييد. وكانت الشوارع متسعة ومرصفة بالأحجار ترصيفاً جيداً ، وقنوات المياه والمجاري تصل إلى البيوت في نظام هندسي محكم .

وإلى قرطبة كان يهرع مئات الطلاب من الشرق والغرب مسلمين

ونصارى ويهود على السواء ، ليرشفوا جميعاً من مناهل العلم والفلسفة والآداب والطب، وغيرها من العلوم والفنون التي يتلقونها على أيدي فطاحل العلماء والشيخوخ العظام . وكان من عادة عبد الرحمن أن يقرب اليه العلماء والأدباء ويوليهم المناصب التي تليق بكل واحد منهم ، ويجزل العطاء لهم بلا حساب . ويلاحظ أن دولته كانت عربية محضة ، على غرار ما كانت عليه دولة بني أمية في الشرق ، بخلاف دولة بني العباس .

وفي ميدان الفلاحة والزراعة أكثر من البساتين والجنانن واهتم بتقديم الزراعة . ويقال إنه استجلب نخلة من الشام وغرسها بيده في أحد بساتينه . ومن تلك النخلة توالد نخيل اسبانيا المشهور إلى يومنا .

وهو أول من استحدث منصب الحجابة في الدولة ، ولم يكن معروفاً قبل ذلك . واهتم بتنظيم جيوشه تنظيماً راقياً يناسب ذلك العصر، كما بنى قواعد خاصة لصنع السفن البحرية .

وبالإجمال ، فإن الأندلس في عهد عبد الرحمن ، خصوصاً في قرطبة نالت حظاً وافراً من التقدم والرقى والعلم والحضارة ، رغم جلبة الفتن والحروب، التي اضطرت الأمير الى خوضها . وبفضل كل ذلك صارت قرطبة عاصمة الأندلس تضارع بغداد عاصمة العباسيين بالشرق في الحضارة والعمران ، وتنازعها الزعامة في العلوم والفنون والآداب .

وفاته

وفي يوم الثلاثاء من ربيع الآخر سنة 172 هـ توفي هذا الأمير العظيم،

بعد ان قضى في خدمة المسلمين بالأندلس زهاء ثلاثٍ وثلاثين سنة . وقبل موته أسند الأمر إلى ابنه هشام ، بالرغم من أنه أصغر من أخيه سليمان ، والسبب في ذلك أن عبد الرحمن كان يعرف قدر هشام وعجبة المسلمين له ، نظراً لسمو أخلاقه وكريم صفاته .

● نقاط التلخيص ●

- علم عبد الرحمن بأن العباسيين جادون في البحث عنه للإيقاع به ، كما أوقعوا بسائر الأمويين ، ففر إلى فلسطين ، ثم إلى المغرب واستقر في تاهرت بالمغرب الأوسط .
- في أثناء مقامه بتاهرت كانت أحوال اسبانيا المسلمة في غاية الفوضى ، فرأى عبد الرحمن أن الفرصة سانحة فبعث مولاه بدرًا إلى الأندلس لتمهيد الأمر له .
- وصل بدر إلى قرطبة فوجد أهلها يتناقشون حول عزل أميرهم يوسف القهري لسوء سلوكه ، فعرض بدر عليهم استعداد عبد الرحمن الأموي للقيام بشؤونهم فوافقوا وبايعوه أميراً عليهم .
- في سنة 138 هـ دخل عبد الرحمن إلى الأندلس فحقق وحدة البلاد، وفصلها عن دعوة العباسيين .
- اعتنى عبد الرحمن الداخل ببناء الجوامع الكثيرة للصلاة ودراسة العلم ، وشيّد العمارات والقصور الجميلة. وكانت قرطبة كعبة العلم والفلسفة والآداب والطب وغيرها من العلوم والفنون . وفي سنة 172 هـ توفي عبد الرحمن الداخل .

أسئلة

- 1 - كيف أفلت عبد الرحمن من مقصلة العباسيين ؟ إلى أين اتجه ؟ أين أقام في المغرب ؟
- 2 - حدثنا عن أحوال اسبانيا أثناء مقام عبد الرحمن في تاهرت .
- 3 - كيف انتقل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ؟ في أي سنة تم ذلك ؟
- 4 - ما أهم العقبات التي واجهته هناك في سبيل تحقيق وحدة البلاد ؟ متى توفي ؟
- 5 - أذكر لنا أهم الأعمال التي قام بها عبد الرحمن الداخل ؟ تحدث قليلا عن الحركة العلمية في عهده .

الأمويون في الأندلس
الناصر - المستنصر
ازدهار الحضارة في عهديهما



عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ)

صفاته وتوليته :

كان مولد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر في رمضان سنة 227هـ ،
وتربى في كنف جده عبد الله لأن أباه كان قد قتل بسبب وشاية .
وكان جده يبالي في محبته والعطف عليه . وكثيراً ما كان ينييه عنه في
حضور الحفلات الرسمية ، والأعياد القومية ، واستعراض الجنود .
وما ان توفي والده حتى أجمع الأمراء والزعماء والقواد على مبايعته ،
فاعتلى أريكة الإمارة . ولم يعارضه في ذلك أحد من إخوته أو بني
عمومته ، لأنه اشتهر بينهم جميعاً بدمائة الأخلاق ، وحسن السيرة .

وتمت توليته في أوائل ربيع الأول سنة 300 هـ وعمره آنذاك 22 سنة .

جهاده في سبيل الوحدة :

وفي الوقت الذي جلس فيه عبد الرحمن الناصر على عرش الإمارة الأموية، كانت الثورات والفتن تعم اسبانيا المسلمة كلها . ولقد تمخض ذلك عن استقلال كل والٍ أو أمير بمقاطعته ، وتخلصوا من التبعية للدولة الأموية التي كانت قاب قوسين أو أدنى من التداعي والانهيار لولا أن تداركها الله بعبد الرحمن الناصر ، الذي تصدى منذ اللحظة الأولى لرتق الفتوق ، ولم الشعث ، وقطع دابر المفسدين ومثري القلاقل والفتن من الأمراء والزعماء الكثيرين . فواتاه الحظ ، وحالفه النجاح فيما انبرى له من عمل جبار . وهكذا نشر ألوية السلام والأمن في جميع الربوع الأندلسية ، جنوبها وشرقها وغربها ، بعد جهاد عسير ، دام زهاء عشرين سنة منذ توليته ، خصوصاً بعد استيلائه على مدينة طليطلة عاصمة بني حفصون ، الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الأقاليم الإسلامية الشرقية ، وأرغوا سكانها على الاعتراف بإمارتهم . وقد ظلت طليطلة خارجة عن طاعة الأمويين مدة 42 سنة تقريباً . وبعد استيلاء عبد الرحمن الناصر عليها لم يبق خارجاً عن سلطته في البلاد إلا أقاليم النصراري في الشمال .

ونشير هنا بصفة خاصة، إلى أن ألد الأعداء وأعظمهم قوة وخطراً، الذين جابههم الناصر هم : عمر بن حفصون وأبناؤه ، ونصارى الشمال، وكلاهما في اسبانيا . ثم الفاطميون الذين أخذ نفوذهم - في النصف الأول من القرن الرابع الهجري - يطغى في مجموع المغرب . فقد وقف بنو حفصون في وجهه ، فاشتبك معهم في عدة حروب كان ينتصر عليهم

في معظمها، رغم ما بذلوه من حول وقوة واصرار، في سبيل القضاء على الدولة الأموية ، والاستئثار بحكم البلاد وحدهم . وتحالفوا من أجل ذلك مع مملكة ليون الواقعة في الشمال ، دون أن يشعروا بتوبيخ ضميرهم على ما في عملهم هذا من عار وشنار وخيانة عظمى للإسلام والعروبة . وكثيراً ما كان الأمير عبد الرحمن يخرج بنفسه لحرب الأعداء ، ويظهر في قتاله من ضروب الشجاعة والإقدام ، ما يبعث على التقدير والإعجاب .

واشتبك مع أعدائه نصارى الشمال ، الذين كانوا البادئين بالعدوان ، فانتصر عليهم في القتال ، واحتل كثيراً من مدنها وقلاعهم ، ولم يثنه عن القضاء عليهم نهائياً إلا اضطراره لمواجهة الخطر الذي كان يهدد دولته من الجنوب . ذلك الخطر الذي كان مبعثه الدولة الفاطمية القائمة في إفريقية (تونس) والتي أخذ نفوذها يمتد في مجموع المغرب . وقد حقق انتصارات باهرة أيضاً على الفاطميين ، وأوقفهم عند حدهم .

من أسباب نجاحه :

كان الناصر يتغلب على أعدائه بالقوة تارة ، وبالسياسة والتسامح تارة أخرى . وكان يرحم الذين يتغلب عليهم . وإذا جنحوا للسلم ينجح له ، ويعاملهم معاملة كريمة . وكان يعتني بالجرحي سواء من جنده أو من جند أعدائه ، مما يشف عن علو همته ونبل أخلاقه . وكان إذا دخل مدينة أو قرية يحقق فيها إصلاحات هامة ، ويحسن أحوال سكانها، ويثبت دعائم الأمن والعدل بينهم قبل مغادرته ديارهم. وما يزيدنا تقديراً لشخصية هذا البطل ، أن نصارى الشمال أغاروا على حصن الحنش وفتكوا بحاميته

من المسلمين فتكاً ذريعاً . ورغم أن أهل هذا الحصن كانوا خارجين عن طاعته ، ولا ينفكون يناصبونه العدا ، فإن الغيرة دبّت في نفسه على إخوانه المسلمين ، وصمم على الأخذ بالثأر لهم من النصارى المعتدين . وهكذا سار بجيشه الكثيف إلى أرض الأعداء ، فأحرق زروعهم ، وهدم بنيانهم ، وقتل خلقاً عظيماً منهم ، ممن اعترضوا سبيله من غير النساء والشيوخ والأطفال . ثم رجع الجيش إلى قرطبة العاصمة ، محملاً بالغنائم التي لا تحصى .

وبفضل قوة شكيته في الحرب ، ورحمته بالمغلوبين ، وتسامحه مع التائبين ، وكرمه وغيرته على إخوانه حتى ولو كانوا أعداءه . إلى كل ذلك تغزى بعض الأسباب في نجاحه ، ذلك النجاح الباهر ، فيما أحرزه من الانتصارات ، حتى اتسع نفوذه في اسبانيا كلها طويلاً وعرضاً ، باستثناء أقاليم الشمال التي ظلت بأيدي النصارى . وبفضل قوته الحربية وسياسته الحكيمة ، سارع كثير من ملوك أوروبا إلى خطب ودّه ، من اسبان وفرنج (فرنسيين) وألمان وروم وصقلية وغيرهم .

إعلان نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين :

كان ولاية الأندلس - منذ الفتح - يلقبون فقط بالولاية أو الأمراء ، واستمر الحال كذلك بعد تأسيس الدولة الأموية . ولما تولى عبد الرحمن الناصر شؤون الدولة لم يكن في أيامه الأولى يلقب إلا بالأمير ، ولكن عندما رأى أن الخلافة العباسية في الشرق آلت إلى الانهيار ، بسبب تدخل العنصر التركي في شؤون بني العباس ، حتى أصبح الأتراك يولّون ويعزلون من شاءوا من الخلفاء ، حسباً تملّيه رغبتهم وأطامعهم ، وخصوصاً عندما

سمع أن الخليفة المقتدر قتله مولاة مؤنس المظفر ، ثم أضفى على نفسه لقب الخلافة ، واستبد بالأمر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة هجرية .

وعندما رأى أيضاً أن الفاطميين في إفريقية (تونس) انتحلوا لقب الخلافة لأنفسهم . لم يجد مانعاً من إعلان نفسه خليفة على المسلمين في اسبانيا ، وأمر أئمة المساجد أن يذيعوا ذلك بين الناس ، فوق المنابر . فكان عبد الرحمن هذا أول من لقب بالخليفة من بني أمية في اسبانيا . وبذلك أصبح هناك ثلاثة خلفاء في العالم الإسلامي : الخليفة العباسي في الشرق ، والخليفة الفاطمي في إفريقية ، والخليفة الأموي في اسبانيا .

وكان الأمراء الأمويون يتعاملون من قبل بنقود من طراز شرقي ، فلما لقب عبد الرحمن نفسه خليفة ضرب نقوداً خاصة بدولته ، وكتب عليها اسمه ولقب الخلافة وتاريخ ومكان ضربها بالأندلس . ويقال بأنه ظل حاملاً للقب أمير الأندلس زهاء سبع وعشرين سنة .

وفاته :

وفي ثالث رمضان سنة 350 هـ توفي عبد الرحمن الناصر وعمره 73 سنة ، بعد أن حكم البلاد أكثر من خمسين سنة ، صرفها في توحيدها ، وتوطيد الأمن ، وإقامة العدل ، وتوفير أسباب العيش والرفاهية لشعبه .

الحكم المستنصر (350 - 366 هـ)

صفاته وأيامه :

تولى الحكم الثاني الملقب بالمستنصر الخلافة بعد أبيه عبد الرحمن الناصر

وذلك سنة 350 هـ . وقد جمع هذا الخليفة من الصفات الحميدة والسجايا الكريمة التي ورثها عن والده ما جعله في مصاف العظماء . وكان عصره يتسم بالسلام ، إذ لم يحدث فيه من الاضطرابات والقتال ما حدث في عهد أبيه ، وذلك لأن قوة والده الشخصية والحربية ظلت عالقة بأذهان الناس ورادعاً لهم من إثارة أي فتنة . ولم يكن ذلك قاصراً على مسلمي اسبانيا وحدهم ، بل تعدى خوف الدولة إلى نصارى الشمال ، الذين خلدوا إلى الهدوء والسكينة، منذ أن كسر شوكتهم عبد الرحمن الناصر ، وأرغمهم على طلب السلم . وظلوا على هدوئهم حتى بعد تولية المستنصر عمدة .

ولكن النصارى عادوا فزقوا حجاب السلام الذي كان مخيماً ، حيث غزوا المسلمين المتأخين لهم ، واستولوا على عدة أقاليم من أرضهم . فجهز الحكم المستنصر جيشاً قوياً لمحاربتهم . وتمكن الجيش الإسلامي من إجلاء النصارى عن بقاع المسلمين المحتلة ، ولاحتهم في عقر دارهم، فكبدتهم خسائر باهظة ، وغنم منهم غنائم تفوق الحصر والتقدير . وأمام ذلك لم يجد العدو مناصاً من طلب الهدنة ، وإقامة عهد السلام بينه وبين المسلمين . فاستجاب الحكم لطلبه ، لأنه كان يفضل — بطبعه — السلم على الحرب ، ولكنه اشترط على العدو أن يهدم الحصون والقلاع التي أقامها على حدود المسلمين باعتبارها مصدر قلق وتهديد لهم، كما اشترط عليه أن يرد جميع الكتب العلمية العربية ، التي سبق أن استولى عليها من خزائن المسلمين .

فهدم النصارى حصونهم تنفيذاً للشروط، وأرجعوا إلى الخليفة الأموي آلافاً من كتب العلم والأدب والفن والحكمة . وهكذا أظهر المستنصر

لأعدائه ما يتحلى به من الشجاعة والإقدام والحنكة السياسية ، وهذا مما دفع بكثير من الممالك الأجنبية إلى ان تخطب وده ، وترغب في صداقته . وكثيراً ما كان الحكم يشارك جيشه في خوض المعارك الحربية ويحقق النصر على أعدائه .

وأرسل الحكم إلى المغرب الأقصى والأوسط جيوشه فاستولت عليها ، وخطب له على منابرهما ، بعد التخلي عن الخطبة للفاطمين ، كما تمكن من القضاء على دولة الأدارسة التي كانت قد تأسست بالريف ، من جديد بعد ان قضى عليها آل العافية .

وفاته :

وفي شهر صفر سنة 366 هـ توفي الحكم المستنصر ، بعد أن صرف من عمره في حكم البلاد ست عشرة سنة ، أظهر خلالها من الكفاءة والمقدرة ما هو جدير بانتسابه إلى أبيه عبد الرحمن الناصر العظيم . وبعده جاء ابنه هشام ، وكان صغير السن لم يتجاوز عمره عشر سنوات . فضعفت الخلافة بالأندلس ، وأصبح أمر الدولة بيد ابن أبي عامر وأبنائه .

الحضارة الإسلامية في عهدي الناصر والمستنصر

تهافت الممالك الأجنبية على ربط عدة اتصالات سياسية مع عبد الرحمن الناصر في عهده الزاهر ، منها ذلك التحالف الودي الذي ربطه البيزنطيون مع الخليفة الأموي ، وسببه أن الدولة العباسية كانت تعادي كليهما . وبما يبين مدى هذا التحالف بين الدولتين ، أن الإمبراطور قسطنطين

السابع ملك بيزنطة أمر ببناء قبة لجامع قرطبة العظيم ، وبولغ في صنعها وإتقانها بالفيسفساء المذهب والملون . هذا زيادة على ما قدمه إلى الخليفة الأموي من الأعمدة الرخامية العجيبة ، لتستعمل في بناء مدينة الزهراء .

كما أرسل قسطنطين هذا إلى الناصر الراهب نيكولاس «Nicholas» ليقوم لدى الخليفة المسلم ، بترجمة كتاب الطب من اليونانية إلى اللاتينية الذي كان قد أهداه إياه توثيقاً لعرى الصداقة ، ودعماً لروابط الثقافة بين البلدين . ولما ترجمه نيكولاس ، كلف الخليفة ابن شبروط اليهودي ليقوم بترجمته من اللاتينية إلى العربية ففعل . وكان هذا الكتاب من نفائس كتب الطب في الأندلس .

وأرسل أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا، والذي صار فيما بعد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر ، لإقامة علاقات سياسية وودية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عقدت عدة علاقات أخرى من هذا القبيل ، بين الناصر وممالك أخرى كمملكة الصقلية ، ومملكة إيطاليا ، وحكام فرنسا وغيرهم .

وفي عهد ابنه الحكم المستنصر عقدت كثير من العلاقات السياسية أيضاً، بينه وبين الممالك الأجنبية وكان هذا الخليفة كأبيه ميالاً بطبعه إلى السلم، والمبالغة في إكرام الوفود الأجنبية التي تحمل بقرطبة .

وكانت الحكومة في عهد الخليفين منظمة غاية التنظيم ، وكان الحاجب يقوم بما يقوم به رئيس الوزراء اليوم ، ويساعده في المهمة وزير آخر . وكان للكتابة شأن عظيم لا يقل عن منصب الوزارة، وكان هناك كاتبان : كتابة الرسائل وكتابة الزمام أو الجهبذة . وكان للقضاء شأن خطير أيضاً،

ولا يتولاه إلا ذوو العلم الراسخ والسمعة الطيبة . وكان هناك المحتسب
أو صاحب السوق ، ومهمته أن يراقب الأسواق ، ويحدد الأثمان ،
وفصل في البيع والشراء . ولكثرة الأرزاق ، وحسن التصرف فيها
كانت الحياة رخيصة جداً .

وفي الناحية الزراعية والصناعية والتجارية ، تقدمت الأندلس تقدماً
مرموقاً ، فكثرت الحقول المزروعة بأنواع مختلفة من الحبوب والخضر
وأشجار الفواكه والزيتون وغيرها ، وحفرت السواقي ، وأقيمت السدود ،
وجلب الماء من الجبال والعيون والآبار ، للسقي والشرب . وقلم كان
قصر أو بيت كبير يخلو من حديقة .

ونالت الصناعة حظاً وافراً من التقدم والازدهار، فقد كانت الدكاكين
والأسواق مليئة بأنواع من الأواني والآلات ، من ذهبية فضية ونحاسية
وزجاجية وفخارية ، وكذا أنواع الملابس والمنسوجات ذات الطابع
العربي والأوروبي والبربري، ناهيك بدكاكين العطور والبخور والأدوية
وغیرها .

أما التجارة فراجت رواجاً عظيماً في الداخل، وبين البلاد والأجانب،
وكانت الجبايات والجمارك منظمة ، تضبط بدقة دخل البلاد وخرجها .

أما في الناحية العلمية والفنية والأدبية ، فقد قطعت البلاد شوطاً بعيد
المدى في التقدم . كانت مدارس الأندلس ، وبالأخص في قرطبة تعج
بالطلاب من كل صوب وحذب ، وكان الحكم المستنصر كأبيه ، شغوفاً
بالعلم والعلماء ، وكان يرسل الرسل من أجل اقتناء الكتب النفيسة في
البلدان البعيدة ، ويدفع في سبيلها أموالاً باهظة . وقد استطاع ان يجمع

في خزانته من الكتب أربعمائة ألف كتاب ، وفي وقت لم تكن آلة الطباعة موجودة فيه . ذلك لأن المستنصر نفسه كان عالماً مطلعاً . وقد دفع في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مبلغ ألف دينار ذهبي . فاقتناه قبل أن يقتنيه غيره .

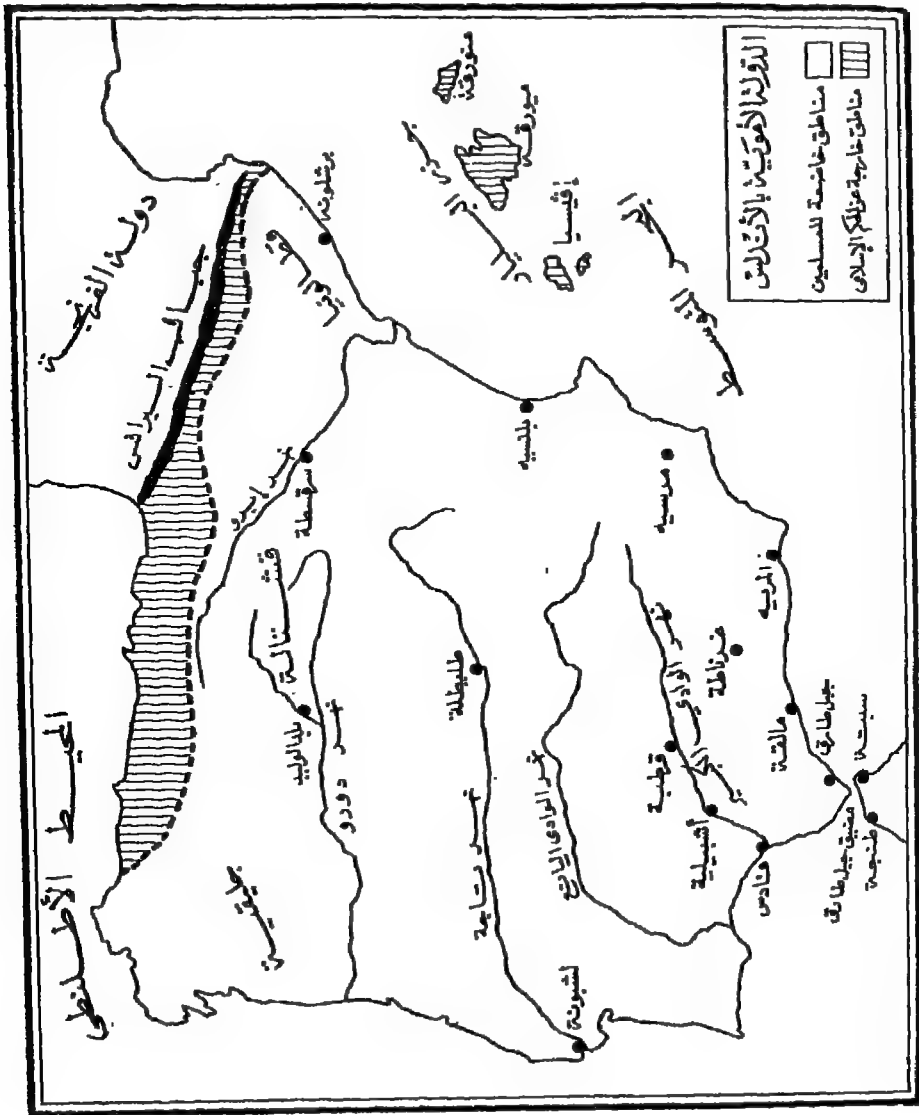
وأنشأ عبد الرحمن الناصر مصانع لبناء السفن ، ودوراً لضرب نقود خاصة بدولته بعد أن كانت الأندلس تستعمل نقوداً شرقية .

● نقاط التلخيص ●

- كانت البلاد قد تفرقت كلمتها ، فعمل الناصر على توحيدها ، وانتصر على أعدائه النصارى ، فحقق لبلاده الأمن والاتحاد.
- من أسباب نجاح الناصر في سياسته وحروبه أنه اتبع سياسة القوة تارة ، واللين والتسامح والكرم تارة أخرى .
- أعلن الناصر نفسه أميراً للمؤمنين منافسة لأعدائه العباسيين والفاطميين. وهكذا أصبح في العالم الإسلامي آنذاك ثلاثة خلفاء: الخليفة الأموي في اسبانيا ، والخليفة الفاطمي في إفريقيا ، والخليفة العباسي في الشرق .
- تولى الحكم المستنصر فكان عصره يتسم بالسلام ، إذ لم يحدث في عهده من القلاقل والاضطرابات ما حدث في عهد أبيه ، وذلك لأن هبة والده ظلت عالقة بأذهان الناس ، فلم يجرؤ أحد على تمزيق حجاب السلام .
- بلغت الحضارة الأموية في الأندلس مبلغاً عظيماً من الرقي والكمال، وبالأخص في عهدي الناصر والمستنصر ، فقد قويت العلاقات بالدول الأجنبية ، وتقدمت البلاد في الزراعة والصناعة والتجارة، وفي الناحية العلمية كثرت المدارس المختلفة . وقد جمع الحكم أربعائة ألف كتاب في خزائنه ، مما يدل على مبلغ تعلقه بالعلم .

اسئلة

- 1 - ما الجهود التي بذلها عبد الرحمن الناصر في سبيل توسيع الاندلس ؟
- 2 - علل أسباب توقيفه في سياسته وحروبه ؟
- 3 - لقب عبد الرحمن الناصر نفسه بأمير المؤمنين، ما أهمية ذلك ؟ أذكر جملة أعماله الهامة؟
- 4 - كيف تولى الحكم المستنصر الخلافة ؟ بم امتاز عصره ؟ ما أعماله الحربية ضد النصارى؟
- 5 - تكلم بأسهاب عن الحضارة الإسلامية في الأندلس . خصوصاً في عهدي الناصر والمستنصر؟



المغرب بين الفاطميين والامويين

(305 — 428 هـ)

إمارتا : مغراوة وبني يفرن



نشأة الدولة الفاطمية

كان أبو عبدالله المحتسب أكبر داعية لمذهب الشيعة في اليمن ، ولما حج في إحدى السنين اتصل في مكة ببعض رجالات قبيلة كتامة ، الذين جاءوا بدورهم لأداء فريضة الحج . واستطاع أبو عبدالله المحتسب أن يسيطر على الحجاج الكتاميين بمواهبه الفذة ، ويوهمهم بأن المهدي المنتظر من آل البيت سيظهر على يدهم ، فيكون لهم بذلك العز والسلطان على كافة المسلمين . وهكذا انخدع الكتاميون بادعائه ، وصحبوه معهم إلى بلادهم ، وجعلوه رئيساً دينياً عليهم ، فنشر بينهم مذهب الشيعة ، الذي تحمسوا له غاية التحمس .

ولما استقرت الأمور لعبدالله في إفريقية بعد معارك وحروب ، تم له فيها النصر ، استدعى موله عبيدالله الملقب بالمهدي ، فاستجاب هذا للدعوة وسافر . وما أن علم الخليفة العباسي المقتدر آنذاك بذلك حتى ألقى عليه القبض ، ثم تمكن المهدي من الإفلات من يد الخليفة، ولكنه ألقى القبض عليه ثانياً على يد أمير الأغالبة بإفريقيا ، وتمكن أيضاً من الإفلات . وألقى القبض عليه للمرة الثالثة على يد أمير بني مدرار بسجلماسة ، غير أنه استطاع النجاة بنفسه . وهكذا وصل إلى إفريقية بعد مصاعب وأهوال لاقاها في طريقه . وهناك بويغ بالخلافة على المسلمين باعتباره المهدي المنتظر ، فكان أول خليفة عبيدي نسبة إلى اسمه ، أو شعبي نسبة إلى المذهب الشيعي ، أو فاطمي نسبة إلى فاطمة الزهراء التي زعم العبيديون أنهم ينتمون إليها .

وكانت لعبيدالله الفاطمي هذا أطماع بعيدة .. إنه لم يكتف بالاستيلاء على إفريقية والمغرب الأوسط ، بل سعى للاستيلاء على المغرب الأقصى أيضاً* . وتم له ما أراد على يد مصالة بن حبوس .

بنو أمية بالأندلس

لقد سبق أن عرفنا نشأة هذه الدولة على يد عبد الرحمن الداخل ، الذي كان من جملة من أفلت من آل أمية من مقصلة العباسيين، عقب القضاء على الدولة الأموية بالشرق . وأنه وصل إلى تاهرت عاصمة البربر

* إن هذا الخليفة الفاطمي مد سلطانه على مصر أيضاً عقب تأسيس دولته بالقيروان . وانتقل إليها نهائياً واتخذ القاهرة عاصمة لدولته .

بأختنا الجزائر ، حيث لقي من أهلها كل حفاوة وتكريم . وبعد أن استقر بين ظهرانهم مدة تطلعت نفسه الطمّوح إلى الأندلس ، فأرسل مولاه بدرّاً إليها . فلعبت الصدف دورها العجيب ، حيث دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وأسس بها ملكه الأموي .

ولما جاء دور عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لتقلّد مهام البلاد أثبت دعائم الدولة واتسع سلطانه وعظمت أطماعه تبعاً لذلك . فخاض غمار الحروب والمعارك مع دولة الفاطميين من أجل السيطرة على المغرب الأقصى ، الذي كان ضعيفاً مفكك الأوصال آنذاك .

الدولة الزناتية (مغراوة وبنو يفرن)

مغراوة وبنو يفرن قبيلتان بربريتان تنحدران من أصل واحد هو قبيلة زناتة العظيمة ، فهما إذن أختان شقيقتان : ولكنها عاشتا في تنافس على الزعامة والسلطان ، خصوصاً بعد انقراض آل أبي العافية ، الذين قضوا على دولة الأدارسة وكانوا في أول أمرهم تابعين للفاطميين ، ثم خلعوا طاعتهم وولوها للامويين في الأندلس ، فحاربهم الفاطميون وضيّقوا عليهم الخناق حتى هزموهم هزيمة نكراء . ولم يعد لهم بعد ذلك ذكر في ميدان الحكم والسلطان . وظلت الدعوتان الفاطمية والأموية ، تتنازعان وتتحاربان من أجل امتلاك المغرب ، وهكذا أصبحت البلاد تعج بالفوضى والاضطراب زمناً طويلاً ، إلى أن قيّض الله لها رجلاً كفؤاً هو زيري ابن عطية من قبيلة مغراوة ، فاستولى على المغرب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة . وقد تمسك زيري هذا بالدعوة الأموية ، وقاتل العبيديين في

مبيلها وتغلب عليهم ، وأكرههم على التراجع عن التراب المغربي إلى ما وراء تلمسان .

وكان زيري من أعظم زعماء مغراوة وأشهر أمرائهم فقد كان يتصف بكثير من السجايا الكريمة والخصال الحميدة، كالشجاعة والإقدام والمعرفة والسياسة ، وكان شديد الغيرة والإخلاص لمصلحة المغرب والمغاربة . ومن أعماله العظيمة أنه أسس مدينة وجدة سنة 348 هـ ، واتخذها عاصمة لدولته . وعلى الرغم من أنه كان موالياً للأمويين بالأندلس ، فإنه لم يكن مخلصاً لهم كل الإخلاص ، بل كان يداهنهم ريثما تحين الفرصة فيتخلص منهم . واستدعاه ذات مرة المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الأندلسي ، فلبى دعوته ، وحضر إلى قرطبة ، وقدم إليه هدايا مغربية عظيمة ، فأحله المنصور بأجمل قصور الأندلس ، ووسع له في الجرايات ، وبالف في الحفاوة والترحيب به ، ولقبه بالوزير .

ولكن زيري بن عطية ، عندما رجع إلى المغرب لم يرضه أن يكون تابعاً لصاحب الأندلس ، وهو أمير ذو أهبة وملك وسلطان ، واستقبح لقب الوزير في حقه ، فلما بلغ ذلك المنصور استاء غابة الاستياء، وأعد جيشاً قوياً أرسله إلى المغرب لمحاربة زيري ، فنشبت بين الطرفين معارك طاحنة ، أسفرت نهايتها عن انتصار بني أمية ، واندحار الجيوش المغراوية وموت أميرها البطل زيري ، وذلك سنة 391 .

وبعد موت زيري خلفه ابنه المعز ، قال هذا إلى مهادنة الأمويين على أساس قبول طاعتهم ، وتصدى بعد ذلك لمحاربة قبائل صنهاجة الحاكمة بالمغرب الأوسط . والتي كانت موالية للفاطميين . وظل زمام الحكم بيد المعز وازدهرت أيامه إلى أن اضطرب جبل بني أمية بالأندلس.

وفي تلك الأثناء توفي المعز وذلك سنة 417 هـ ، فتولى من بعده ابن عمه حماسة . وقد ظل الود والصفاء قائمين بين دولة زناتة المغراوية وبين الأمويين بالأندلس . إلا أن التزاع بقي مستمراً لا ينقطع بين أمراء مغراوة فيما بينهم من جهة ، وبين أبناء عمومتهم بني يفرن من جهة أخرى ، من أجل حكم المغرب .

وكانت كل من القبيلتين: مغراوة وبني يفرن تمتلك جزءاً من المغرب، فكانت لمغراوة فاس وهي عاصمتها ووجدة ونواحيها . وكان لبني يفرن سلا وشالة وتادلة ونواحيها . وكانت شالة عاصمة بني يفرن . وعلى الرغم من ان اليفرنيين تمكنوا مراراً من الاستيلاء على فاس . إلا أن الغلبة كانت دائماً للمغراويين . من أجل ذلك غلب اسم مغراوة على هاته الدولة . كما أطلق عليها اسم الدولة الزناتية . وظلت هذه الدولة المغراوية قائمة في المغرب من تاريخ انقراض الدولة الإدريسية إلى ظهور الدولة المرابطية، التي كانت السبب في القضاء عليها وعلى شقيقتها دويلة بني يفرن .

ولم تكن لا دولة مغراوة ولا دولة بني يفرن تتمتعان بالاستقلال التام في المغرب . فقد كانتا تخضعان تارة للفاطميين وتارة للأمويين . وقد ابتدأ الصراع بين الأمويين والفاطميين منذ سنة 305 هـ ولم ينته إلا في سنة 369 هـ .

ولما انقضى عهد الأمويين في الأندلس ، قامت على أنقاضها دويلات كثيرة يُعرف أصحابها بملوك الطوائف . أما في المغرب فكانت الدولة القائمة آنذاك هي دولة زناتة المغراوية ، التي كانت في نظر المغاربة هي دولتهم الشرعية . هذا بالرغم من أنها لم تتمكن من الاستيلاء على جميع

المغرب . وسقطت الدولة الأموية والمتربع على عرش المغرب في ذلك الوقت هو حماسة المغراوي ، الذي ظل يحكم دولته مدة أربع عشرة سنة تقريباً . وقد سمي هذا الأمير نفسه فيما بعد ملكاً على المغرب . وعاش مستقلاً ، فازدهرت أيامه بعض الازدهار ، حيث قصدته الوفود ، ومدحه الشعراء . وبعد وفاته سنة 431 هـ تربع على ملك المغرب ابنه دوناس بن حماسة . وظل هذا ملكاً مهاب الجانب ، متوفر النشاط في أعماله من أجل ازدهار دولته لمدة واحد وعشرين سنة . وكانت أيامه بصفة عامة متقدمة ، فقد زيد خلالها في مدينة فاس ، وشيدت القصور الفخمة ، وراجت التجارة والصناعة، واعتني بالزراعة وتخطيط البساتين .

وبعد موت دوناس سنة 452 هـ تولى شؤون الدولة ابنه الفتوح، الذي ظل في الحكم مدة ثلاث سنوات ، اشتبك خلالها مع أخيه عجيسة في عدة حروب مهولة داخل فاس . وكان الفتوح مستولياً على عدوة الأندلس ، وعجيسة بعدوة القرويين . وانتهت المعارك بين الأخوين بانتصار الفتوح . وما زالت إلى يومنا بقاس باب تسمى بباب الفتوح نسبة إلى الأمير الفتوح ، وباب أخرى تسمى بباب العجيسة ، نسبة إلى أخيه الأمير عجيسة .

ولما برز المرابطون في الميدان سنة 495 حاربوا الفتوح حرباً شعواء . فقاومهم هذا الأمير المغراوي مقاومة الأبطال ، ولما أحس بالعجز عن صدّهم ، تنازل لابن عمه معنصر بن حماد عن إمارته ، فقاتل هذا المرابطين بشجاعة نادرة ، حتى سقط صريعاً في المعارك سنة 460 هـ ، وبذلك انقضى عهد الدولة المغراوية ، وإن ظل بعض زعمائها يقاومون المرابطين فترة أخرى مقاومة يائسة .

أطوار دويلة اليفرنين

ظلت إمارة يفرن في هذا العصر محتفظة باستقلالها متمتزة الفرص لمحاربة مغراوة بني عموميتها ، ولكن المرابطين في النهاية قضوا عليها ، كما سبق أن قضوا على المغراويين .

وكان بنو يفرن من الموالين للدولة الأموية أيضاً ، حتى إن المسمى بعلي بن محمد اليفرني أعلن سنة 347 هـ أنه خليفة الناصر الأموي على بلاد المغرب ، ووقف في وجه الفاطميين ، وقاتل جوهر الصقلي الذي استولى على المغرب كله سنة 349 هـ وقتل فيه عدداً لا يحصى من المغاربة . وكانت النتيجة أن استطاع الأمير اليفرني يعلى أن يتغلب على قائد الفاطميين العظيم ، وأرغمه على الانسحاب من المغرب .

وفي سنة 373 هـ ثار اليفرنيون على الأمويين وانضموا إلى الحسن بن كَـثَـون الإدريسي ، الذي قدم من مصر ، لاستعادة دولة الأدارسة ، التي انقرضت في المغرب . وكان أمير اليفرنين في هذا الوقت هو يدو بن يعلى ، فبعث إليه المنصور بن أبي عامر جيشاً قوياً وحاربه ، وانحازت قبائل مغراوة إلى الأمويين ضد الحسن الإدريسي ، وضد بني يفرن الذين يحاربون من أجله ، وهكذا انهزم اليفرنيون وصاحبهم الإدريسي انهزاماً منكراً ، ولجأوا بعد ذلك إلى سلا وشالة ، ثم استولوا فيما بعد على تادلة ونواحيها ، وهناك كونوا لهم دويلة واتخذوا من شالة قاعدة للملكهم .

وفي سنة 424 هـ خرجت جيوش بني يفرن تحت قيادة أميرهم الكمال تميم من سلا وشالة . وتوجهت إلى فاس وحاربت دولة مغراوة التي

كانت تحت إمرة ملكها حمّامة، فانتصرت الجيوش اليفرنية على المغراويين، واستولت على فاس ، وما كان تحت سيطرة المغراويين من النواحي المحيطة بها . فاضطر حمّامة أن يلجأ مع فلول جيشه إلى مدينة وجدة ، وهناك استعد من جديد ، وكرّر راجعاً إلى فاس سنة 439 هـ فقاتل أبا الكمال اليفرني ، وتغلب عليه ، وأخرجه من مدينة فاس ، فكان أن عاد اليفرنيون من حيث أتوا .

وفي سنة 449 هـ توفي أمير اليفرنيين المسمى أبا الكمال وخلفه غيره من الزعماء . وبقيت هذه الدولة عائشة تقوم تارة وتكبو أخرى ، إلى أن قضى عليها المرابطون كما أسلفنا .

المغرب تحت السيطرة الفاطمية والأموية

يمكننا أن نحصر تغلب كل من الفاطميين والأمويين الأندلسيين على المغرب فيما يأتي : في سنة 305 هـ تقدم مصالة بن حبوس إلى المغرب واستولى عليه باسم الفاطميين . وفي سنة 323 هـ انطلق المسمى منصور الحصري قائد الفاطميين وأخضع المغرب لدولته ، بعد أن خاض معارك عظيمة ضد الزناتيين وأمويي الأندلس ، وحقق عليهم الانتصار الحاسم . وفي سنة 349 هـ تقدم جوهر بن عبدالله إلى المغرب واحتله كله . وفي سنة 362 هـ توجه بلكين بن زيري الصنهاجي شطر المغرب واستولى عليه باسم الفاطميين ، بعد اشتباكه مع الزناتيين والأمويين في عدة حروب . ولكن احتلاله للمغرب لم يدم طويلاً . فإن المغاربة تخلصوا من تبعيتهم للفاطميين وأعلنوا موالاتهم للأمويين . ورجع منصور الفاطمي لمحاربة

المغاربة سنة 369 هـ ووصلت جيوشه إلى تطوان ، التي كانت عبارة عن حصن صغير آنذاك . وتقدمت إلى نواحي سبتة . فما أن علم منصور بكثرة الجيوش الأندلسية والمغربية المنتظرة مجيئه في سبتة ، حتى خف بالرجوع لأنه أدرك أن لا قدرة له على مواجهتها بجيشه القليل العدد بالنسبة للجيوش التي بسبتة . وهكذا أصبح النفوذ الأموي هو القائم في المغرب .

وقد استولى الأمويون بدورهم على المغرب سنة 364 هـ بقيادة غالب الذي وجهه الحكم المستنصر، وذلك بعد أن خاض الحروب مع الفاطميين على الأرض المغربية وتمكن من طردهم إلى المغرب الأوسط .

● نقاط التلخيص ●

- الفاطميون شيعةون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء حسب زعمهم. وكان أول من بوع بالخلافة منهم هو عبيدالله الملقب بالمهدي . وكان لهذا أطماع في التوسع .
- قام النزاع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس على امتلاك المغرب. كل منهما أراد أن يخضعه لسيطرته . وهكذا ظل المغرب طعممة سائغة مدة من الزمان ، يتناوب التهامه الطرفان المتنازعان .
- مغراوة وبنو يفرن قبيلتان من صلب واحد هو زناتة العظيمة . وكانت هاتان القبيلتان في نزاع دائم على الرئاسة وحكم المغرب .
- كانت مغراوة وبنو يفرن تواليان خضوعهما إلى الفاطميين تارة ، وإلى أمويي الأندلس تارة أخرى . ولذا لم تكونا مستقلتين الاستقلال التام في غالب الأحيان .
- من قواد الفاطميين الذين استولوا على المغرب: مصالة بن جبوس، ومنصور الحصي وجوهر بن عبدالله . ومن قواد الأمويين: غالب الموجه من قبل الحكم المستنصر ، والذي تمكن من طرد الفاطميين من المغرب .

أسئلة

- 1 - كيف نشأت الدولة الفاطمية ؟
- 2 - ماذا تعرف عن دولتي مغراوة وبنو يفرن ؟
- 3 - كم استمر الصراع بين الفاطميين والأمويين على امتلاك المغرب في العهد الزناتي ؟ علل أسباب ضعف المغرب في ذلك العهد .
- 4 - ما المصير الذي خلف بني أمية في الاندلس ؟ أذكر ما تعرفه عنه .
- 5 - في أي سنة قضى المرابطون على كل من دولة مغراوة ودولة بني يفرن؟ ما رأيك في ذلك؟

سقوط دولة بني أمية في الأندلس



مالت الدولة الأموية في الأندلس إلى الضعف عندما تولى أمرها هشام الثاني الملقب بالمؤيد الذي لم يتجاوز عمره عشر سنوات ، ولكن « صبحاً » أم الخليفة أسندت منصب الحجابة إلى المنصور بن أبي عامر، ورغم أن هذا استبد بالحكم لدرجة أن الخليفة الشرعي أصبح عبارة عن دمية تحركها يده كيف شاءت - رغم ذلك فإن لهذا الحاجب الفضل في تثبيت دعائم الملك الأموي الذي كان متداعي البنيان . وتمكن هذا البطل من توطيد الأمن وتحسين أحوال الناس ، وراجت في أيامه سوق العلم والأدب .

ولم يكتفِ ابن أبي عامر بما أحرزه في الأندلس من نصر في حروبه، وتوفيق في سياسته ، بل عمل على إخضاع المغرب أيضاً لسيطرته، وتمكن من ذلك فعلاً، فقد دانت له دولة زناتة ، التي كانت قائمة في المغرب آنذاك . ولكن كان هناك عدو قوي آخر ينازع بني أمية سلطانهم على

المغرب ، ويهدد كيان دولتهم في الأندلس . وهذا العدو هو الفاطميون ، أصحاب إفريقيا . وقد ظل المغرب طعمة سائغة للفاطميين والأمويين في العهد الزناتي . ومات ابن أبي عامر سنة 393 هـ ، بعد أن دام في الحكم سبعة وعشرين سنة حقق فيها أعمالاً جليلة لبني أمية في الأندلس . وكانت وفاته في إحدى معاركه ضد نصارى الشمال ، فتولى بعده أمر الحجابة ابنه أبو مروان عبد الملك فاستبد بالحكم كأبيه . وكانت أيامه « أعياداً في الخصب والأمان دامت سبع سنين إلى أن مات » ، فتولى منصب الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن الذي لقب نفسه بالناصر وولي العهد ، وهكذا خلط هذا بين منصبه كحاجب وبين شؤون تخص الخليفة وآله . وقد دام في حكمه أربعة أشهر حيث قام ضده سنة 399 هـ محمد بن هشام الملقب بالمهدي بمؤازرة الجنود البربرية ، فعزله من منصبه ولكن الجنود تسلمته وقتلته ، كما نحى عن منصب الخلافة هشام الثاني ، المؤيد .

غير أن الخليفة الجديد « المهدي » ثار عليه رجل أموي آخر هو هشام بن سليمان وأخوه أبو بكر بمعاونة الجيوش البربرية ، فتقابل المهدي مع الأخوين ، واستطاع التغلب عليهما وقتلها . فاجتمع البربر بعد ذلك وبايعوا سليمان ابن أخ أحد المقتولين ، ولقبوه بالمستعين ، وطلب هذا معونة النصارى فلبى طلبه.. وهكذا تقدم المستعين بجيوشه البربرية والجيوش النصرانية . وما أن اصطدم جيش المستعين بجيش المهدي حتى حلت بهذا الأخير الهزيمة ، فدخل المستعين قرطبة سنة 400 هـ .

ولما انهزم المهدي تلك الهزيمة المنكرة استنجد بدوره بالنصارى، فتمكن بمساعدتهم من التغلب على خصمه.. وأمام ذلك اضطر المستعين الى ان يترك

العاصمة هو وجنده من البربر . ولم يكتف المهدي بما أحرزه من الانتصار عليه بل تتبعه ، فكانت النتيجة أن كر عليه عدوه وألقى به المزعجة ، وتبعه كذلك إلى أن تمكن من دخول قرطبة للمرة الثانية سنة 403 هـ .

وآنذاك لجأ المهدي إلى استعمال الحيلة فأخرج الخليفة هشاماً المؤيد من سجنه ، وكان قد عزله من قبل وسجنه واعتلى عرشه - أخرجه من سجنه ثم بايعه بالخلافة ونصب نفسه حاكماً له . فعل كل ذلك أملاً في اكتساب عطف الأهالي . إلا أنه حصل عكس ما تمناه ، إذ ثار عليه الناس في قرطبة وقتلوه شر قتلة . ولما خلا الجو للمستعين في العاصمة قتل هشاماً المؤيد ، منافسه على كرسي الخلافة سراً ، وجلس هو على عرشه مدة أربع سنوات ، استقلت خلالها كثير من أقاليم اسبانيا، حيث تكوّنت فيها إمارات ودويلات .

ثم استولى علي بن حمود الإدريسي صاحب سبتة على مدينة قرطبة سنة 427 هـ وبايعه أهلها على طاعة هشام المؤيد ، الذي كانوا يظنون أنه ما يزال حياً . وألقى علي القبض على المستعين وقتله، بعد أن اعترف بقتل هشام المؤيد الخليفة الشرعي للبلاد . فأصبح علي بن حمود منذ ذلك الوقت حاكم البلاد الاسبانية . وظل كذلك حتى قتل في إحدى حروبه .

ولما مات علي بن حمود تولى أخوه القاسم ملك الأندلس ولقب نفسه بالمأمون ، ولكن أيامه كانت قصيرة ، لأن ابن أخيه أمير سبتة يحيى الملقب بالمعتلي أعلن الحرب عليه سنة 413 هـ . وأمام قوات المعتلي الكثيرة لم يجد القاسم بداً من الفرار إلى اشبيلية . وهناك بايعه القاضي أبو القاسم محمد بن عباد وكثير من البربر .

وحين فر القاسم من قرطبة اجتمع الأهالي وقرروا إحياء الخلافة الأموية،

فبايعوا عبد الرحمن الملقب بالمستظهر بالله سنة 414 هـ ، ولكنه لم يدم في الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوماً ثم قتل . فبيع بعده محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي بالله، وقد دام هذا في الخلافة ستة عشر شهراً. ثم ثار عليه سكان قرطبة وخلعوه سنة 416 هـ لأنه لم يهتم في حياته إلا بشؤون نفسه ، ورجعوا إلى الاعتراف بسلطان الحموديين عليهم، فبايعوا يحيى الحمودي الملقب بالمعتلي بالله ، ولكنه فضل ان يظل مقيماً في مالقة وجعل نائباً له على قرطبة .

وفي سنة 418 هـ عاد الملك لبني أمية حيث بايع الناس هشاماً الثالث الملقب بالمعتمد بالله ، ولكن عهده كان مليئاً بالفواجع والفتن ، فخلعه أهل قرطبة سنة 422 هـ..وبذلك انقضى نهائياً عهد بني أمية في الأندلس، وعادت الأمور إلى الأسرة الحمودية التي حكمت البلاد زهاء أربعين سنة منذ عهدهم الأول بقرطبة .

أسباب السقوط

علمنا سابقاً ان الضعف دب في جسم الدولة الأموية منذ تولي هشام الثاني المؤيد منصب الخلافة وهو صغير السن ، لم يتجاوز عمره يوم مبايعته العاشرة، وأن أمه صبحا هي التي أضحت المتصرفة في الشؤون وكان من لطف الله أن عينت المنصور ابن أبي عامر حاجباً لابنها ، فأقال هذا الرجل الكفاء الدولة من كبوتها وقوى دعائمها ، بعد ان كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط . ولما مات المنصور توارث أبنائه منصبه . ولكن الدولة بعد أبيهم العظيم أصبحت تسير في طريق التدهار والانهيار والزوال المحتوم.

ولم يكن خلفاء ابن أبي عامر هم وحدهم السبب في ضعف الدولة. فإن للخلفاء الأمويين الضعاف الذين تعاقبوا على كرسي الخلافة اليد الطولى والقدح الممل في التعجيل بسقوط دولتهم . فقد كان ضعفهم الشخصي ، وقلة حنكتهم السياسية ، وميلهم إلى اللهو والعبث ، وإنفاقهم أموال الشعب في بناء القصور الفخمة والمآكل والمشارب والملابس ، وغيرها ، ثم ظلم الكثيرين منهم ومن ولايتهم للرعية ، ثم تلك الأحقاد الطائفية التي نشأت من النعرة القبلية والتي أدت إلى تعصب العرب ضد البربر، وتعصب هؤلاء ضد أولئك ، والقيسي العربي ضد المضرّي العربي ، وقيام الحروب الأهلية نتيجة لذلك كله ، ثم انعدام الأمن وقلة الحاجيات ، وغلاء المعيشة، على الرغم من غنى البلاد ووفرة المال، كل هذه الأسباب وغيرها من العوامل هي التي أدت إلى ضعف الدولة الأموية ضعفاً خطيراً أودى بحياتها في النهاية .

ملوك الطوائف

عقب سقوط الدولة الأموية العظيمة بالأندلس تكونت في البلاد عدة إمارات ودويلات عُرف أصحابها بملوك الطوائف . وكان أعظمها قوة وشأناً أربع دويلات . أما باقي الدويلات والإمارات الصغيرة فكانت تابعة أو متحالفة مع الكبرى التي هي : (1) دويلة الأدارسة أو بني حمود في مالقة والجزيرة في جنوبي إسبانيا . (2) دويلة بني عباد في اشبيلية . (3) دويلة بني ذي النون في طليطلة . (4) دويلة بني عامر في بلنسية .

1 - دولة بني حمود (الأدارسة) :

يرجع نسب أصحاب هذه الدولة الطائفية بإسبانيا إلى أدارسة المغرب ، الذين تعاون في القضاء عليهم بالمغرب كل من أمويي الأندلس ، وفاطمي إفريقيا . وبعد القضاء على دولتهم عاش بعض آل إدريس في انغزال تام ، في المغرب ومصر وإسبانيا . وما أن حصلت الفتنة بين المسلمين بالأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي حتى أسند البربر والعرب قيادتهم لعلي بن حمود الإدريسي حاكم سبتة . وكان لهذا أخ يسمى أبا القاسم ابن حمود بالجزيرة ومالقة . وكان الخليفة المؤيد الأموي قد ولاه حكمها من قبله .

وفي سنة 407 هـ بويع علي بن حمود هذا بالخلافة على إسبانيا المسلمة ، وتلقب بالمتوكل على الله . ولما مات تولى الأمر من بعده أخوه أبو القاسم ، وحصلت الفتنة في عهده ، ففقد بنو حمود الخلافة على البلاد . واسترد الأمويون خلافتهم لمدة يسيرة . ثم تغلب ابن أخيه المسمى يحيى على الأمويين ، فعادت الخلافة إلى الحموديين ثانية ، ولكن ابن عباد والي أشبيلية ثار عليه ، ووقعت بينهما معارك طاحنة قتل في أثناءها يحيى ، فتولى من بعده أخوه إدريس ، الذي حكم مالقة والجزيرة وبعض ثغور المغرب المقابلة .

وهكذا تعاقب الحموديون على عرش مملكتهم هذه حتى قويت دولة العباديين بأشبيلية فقصت عليهم نهائياً سنة 452 هـ . وكانت الدبيسة التي نفثها الإشبيليون بين صفوف الحموديين في إسبانيا ، هي العامل الأكبر في التعجيل بنهاية دوياتهم .

٢ - دويلة بني عباد في اشبيلية :

ينتسب بنو عباد أصحاب اشبيلية في العهد الطائفي إلى أصل شامي . وقدمت أسرهم إلى الأندلس في أواسط القرن الثامن الميلادي . فلما حصلت الفتنة في البلاد بسبب قيام الحروب الأهلية ، ونتج عن ذلك سقوط الدولة الأموية ، وفرار آخر خلفائها من قرطبة هشام الثالث ، كان أول من أعلن الثورة واستولى على اشبيلية ونصب نفسه حاكماً مستقلاً عليها هو محمد بن عباد سنة 413 هـ . وذلك بمساعدة طائفة من أصدقائه المخلصين ، الذين منحهم الأراضي تقديراً لجميلهم ، على أساس جزية يدفعونها . وهكذا كان بنو عباد أول من افتتحوا عهد التفرقة والطائفية في الأندلس .

وكان محمد بن عباد هذا صديقاً للحموديين ، ولكنه انقلب عليهم وعاداهم وتطاول عليهم . فتتج عن ذلك نشوب حرب بين الفريقين ، قُرب اشبيلية ، دارت الدائرة فيها على يحيى الخليفة الحمودي ، حيث قتل وانهزم جيشه . وما أن شرع محمد بن عباد في الاستعداد لمتابعة الحرب ضد الحموديين في عقر دارهم حتى وافاه الأجل سنة 439 هـ . فتولى من بعده على اشبيلية ولده أبو عمرو الذي تلقب بالمعتضد بالله .

وقد اشتهر هذا بذكائه وجمال قوامه وحسن هندامه مما جعله هدفاً لقريض الشعراء ، وحديث السمار من الرجال والنساء . ولكنه كان أيضاً قاسياً في تصرفاته مع خاصته ورعيته ، متلهفاً على جمع الأموال وإنفاقها في بناء القصور الشائخة ، وإقامة الليالي الحمراء ، التي تكثر فيها معاورة الحمر ، ومجالسة النساء ، وسماع الطرب والغناء . ولم يكن يهتم بالدين

أو يقيم وزناً للمروءة ، فلم يبن مساجد ، ولا عني برعيته التي أفقرها من جراء ما سلبه منها من أموال . ولا راعى إلاّ ولا ذمة في الكثير من رجاله الذين بطش بهم ، وعلق جاجمهم محلاة بالأحجار الكريمة في ردهات قصره . وهكذا كان هذا الأمير الماكن صورة من الشيطان .

وقد سعى إلى بسط سلطانه على جيرانه من الأمراء الآخرين ، وسلك لتحقيق ذلك سبيل الغدر والخديعة، وكان اهتمامه الأكبر موجهاً نحو الحموديين باعتبارهم خطراً على دولته . وقد تمكن في النهاية من القضاء عليهم كما علمت .

3 - بنو ذي النون في طليطلة :

يرجح أن أول أمير حكم طليطلة من أسرة بني ذي النون في العهد الطائفي هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر . وتنحدر هذه الأسرة من أصل بربري . وقد تلقب إسماعيل هذا بالظافر ، وأسس دولته سنة 427 هـ . وقد دعاه جهوّر ، الذي كان قد استولى على قرطبة بعد فرار آخر خليفة أموي منها، إلى مبايعته ، فسخر إسماعيل من دعوته في جملة من سخر منها من الأمراء والملوك الآخرين ، الذين دعاهم جهوّر إلى ذلك .

فكانت النتيجة أن حصلت بينها حروب ، كاد إسماعيل أن ينتصر فيها على خصمه لولا أنه اضطر إلى التخلي عن محاربته ، لمواجهة قوات قشتالة وليون ، التي ما فتئت تهاجم أراضي طليطلة . ولما شعر بضعفه عن رد الأعداء ، اضطر إلى مهادنتهم على أساس دفع الجزية لهم .

وبناء على ذلك اعتمد بنو ذي النون على مساعدة النصارى ، ومساعدة بني عامر أصحاب بليسية في محاربة قرطبة التي يحكمها الجيهنوريون .

4 - بنو عامر في بليسية :

كان خلفاء المنصور بن أبي عامر سبباً من الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية العظيمة ، وذلك نتيجة لاستبداد بعضهم من جهة ، وضعف آخرين منهم من جهة ثانية . وبعد انتهاء العهد الأموي تفرق آل عامر في البلاد ، ومالوا إلى نصرة بقايا الأسرة الأموية .

ومنذ سنة 413 هـ على الأرجح ، كان يحكم منهم بليسية الأمير أبو الحسن عبد العزيز المغافري حفيد المنصور العامري ، وكان له حلفاء كثيرون ، أشهرهم التجبيون ، ثم بنو هود أصحاب سرقسطة . وكان هؤلاء يعتمدون على مؤازرة بليسية في حروبهم ضد النصارى المتأخين لهم.

5 - الحركة العلمية والأدبية في العهد الطائفي :

رغم انقسام اسبانيا المسلمة إلى إمارات ودويلات متعددة ، ورغم ما كان ينشب بينها من قتال مر ، من أجل سيادة بعضها على بعض - بالرغم من كل ذلك فإن سوق العلم والأدب كانت رائجة رواجاً كبيراً . فبعد أن كان النشاط العلمي والأدبي في العهد الأموي يكاد يقتصر على قرطبة ، أصبح في عهد ملوك الطوائف منتشرًا في كثير من مدن اسبانيا الأخرى ، وأخذت كل دويلة من الدويلات المتعددة ، تتنافس غيرها في بناء المدارس ، وتشجيع العلم والأدب والشعر ، لتحوز قصب السبق في هذا المضمار . وهكذا تقدمت الحياة العلمية

تقدماً عظيماً ، وبرز علماء فطاحل في العلم والأدب والشعر والطب
والفلسفة وغيرها .

وهكذا نجد أن انقسام البلاد ونشوب الحروب بين أقاليمها، لم يوقف
الحركة الثقافية ، بل ان ذلك التخط في العمل السياسي وفي دياجير الفتن
زادها اتقاداً وقوة وازدهاراً .

● نقاط التلخيص ●

- بعد موت المنصور بن أبي عامر آلت الدولة الأموية إلى السقوط. ولما انتهى أمرها حل محلها بنو حمود الإدريسيون الذين ظلوا في الحكم زهاء أربعين سنة .
- كان ضعف أبناء ابن أبي عامر الذين تعاقبوا بعده على منصب الحجابة من جهة ، وميل الخلفاء الأمويين إلى اللهو والعبث في عهدهم ، وإنفاقهم أموال الشعب في بناء القصور والتلذذ بشهي الطعام والشراب ولبس الملابس الفاخرة، ثم طغيان ولاتهم وظلمهم للرعية — كان كل ذلك من أسباب سقوط الدولة الأموية .
- تكونت على أنقاض الدولة الأموية دويلات متعددة أشهرها بنو حمود في مالقة ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو عامر في بلنسية . أما باقي الدويلات والإمارات، فإنها كانت تابعة للمتقدم ذكرها ، أو متحالفة معها .
- كانت الحرب لا تنقطع بين ملوك الطوائف ، وكثيراً ما كانت الواحدة منها تستعين بالنصارى أعداء الإسلام .
- رغم ما كان يسود اسبانيا في العهد الطائفي من ضعف سياسي ، فقد ظلت الحركة الثقافية في تقدم وازدهار .

أسئلة

- 1 — ماذا كانت النتيجة بعد موت المنصور بن أبي عامر ؟
- 2 — أذكر ما تعرفه عن بني حمود الإدريسيين . كيف تولوا الحكم بعد الأمويين ؟ كم ظلوا يحكمون الأندلس ؟
- 3 — ما أسباب سقوط الدولة الأموية ؟
- 4 — تكلم بإيجاز عن دويلات : بني عباد في اشبيلية ، وبني ذي النون في طليطلة وبني عامر في بلنسية .
- 5 — حدثنا عما تعرفه عن الحركة العلمية والأدبية في العهد الطائفي . هل أثر الانحطاط السياسي في الحركة الثقافية ؟ لم ؟

المرابطون

(462 — 541 هـ)

يوسف بن تاشفين — بناء مدينة مراکش



أصل المرابطين وظهورهم

ينتمي المرابطون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، وكانوا يعيشون في الصحراء الكبرى جنوب المغرب. وقد سموا بالملثمين لأنهم كانوا يضعون خُمُرًا على وجوههم نساء ورجالاً اتقاء من حرارة الصحراء اللافحة ، كما سموا بالمرابطين لأنهم اجتمعوا أول الأمر ، وتكوّنوا في الرباط الذي كان فيه عبدالله بن ياسين يعبد الله .

وكانوا قبل إسلامهم على دين المجوسية شأن معظم برايرة المغرب . وامتازت فعلة منهم ، وهي لتونة عن باقيهم بالرتاسة فيهم والسيادة عليهم ، خصوصاً بعد إسلامهم . وكانت لهم حروب طويلة مع غيرهم من قبائل البربر وأم السودان ، حتى تمكنوا من تدوين بلاد الصحراء ،

وحمل سكان السودان على الإسلام، وإرغام — من بقي منهم على دينهم — على دفع الجزية . ثم تفرقوا إلى إمارات ورؤساء عدة ، وظلوا كذلك مدة مائة وعشرين سنة ، إلى أن ظهر فيهم أبو عبدالله محمد بن تيفات المتونى ، وكان من رجال الدين والعلم والفضل ، فالتف الناس حوله ، وظل يدير شؤونهم ويواصل الحرب ضد أعدائه مدة ثلاث سنوات إلى أن مات .

وبعد ذلك خلفه في الرئاسة على صنهاجة المغرب الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ، فظل هذا يسوسهم بالحكمة ويواصل الحرب — بكل حزم ونشاط — ضد أعدائه إلى أن دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمائة من الهجرة ، فأزمع على الرحيل إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وقبل ذهابه عين خلفاً له ابنه إبراهيم بن يحيى .

أدى الأمير يحيى مناسك الحج وقفل راجعاً إلى بلاده ، وأثناء عودته حضر في مدينة القيروان درساً دينياً للشيخ أبي عمران الفاسي ، فتأثر الأمير بوعظه ، رغم أنه كان كقومه يجهل فروض الإسلام تماماً . ثم طلب من الشيخ الواعظ أن يبعث معه إلى بلاده من تلامذته من يفقه قومه في دين الله ، فطمع الشيخ الوقور في حسن الثواب من الله ، وعرض على طلابه رغبة الأمير ، ولكنهم جميعاً استصعبوا الذهاب إلى الصحراء ، خوفاً من حرارتها اللافحة صيفاً ، وبرودتها القارصة شتاء ، وخلوها من مظاهر التمدن ، والفتنة .

فكتب أبو عمران رسالة سامها إلى أمير الصحراء ليحملها إلى أحد تلاميذه القدامى بالسوس الأقصى ، واسمه الفقيه أبو محمد واجاج بن زلو اللمطي ، لينتدب بدوره تلميذاً من تلاميذه بصحب الأمير المتونى إلى

الصحراء . وكان واجاج هذا من أهل العلم والخير ، تتلمذ على الشيخ أبي عمران في القيروان . ثم ارتحل إلى السوس الأقصى ، وبني له داراً سماها دار المرابطين لتلامذة العلم خاصة . وكان الناس يقدرون فضله ورسوخه في العلم ، ويتبركون به .

عبدالله بن ياسين في الميدان

فلما سلم الأمير يحيى الرسالة إلى صاحبها أسرع بجمع تلاميذه . وما أن قرأ عليهم نص الرسالة حتى انبرى التلميذ عبدالله بن ياسين الجزولي ، وأعلن موافقته على مصاحبة الأمير إلى الصحراء . وكان عبدالله هذا شعلة من الذكاء والنشاط والمعرفة ، وغاية في الورع والاستقامة والتدين .

وما أن رحل الفقيه ابن ياسين مع أمير صنهاجة إلى الصحراء ، حتى شرع في تعليم الناس أمور دينهم ، التي لم يكونوا يعرفون منها إلا الشهادتين ، ولكنهم استصعبوا ما يأمرهم باتباعه ، فانفضوا من حوله . وأنداك قرّر رأي عبدالله والأمير يحيى ونفر قليل ، أن ينزلوا في جزيرة لعبادة الله ، زهداً في الدنيا، وطلباً للجنة ، التي أعدت للمتقين . وفي الجزيرة التي اختارها ابن ياسين وصحبه للعبادة ، ابنتى مكاناً في غاية البساطة ، وشرعوا جميعاً في عبادة الله . ولم تمض إلا أشهر قلائل ، حتى تسامع الناس بأمر ابن ياسين وأصحابه . وأخذوا يتوافدون عليه ، حتى اجتمع لديه عدد مهم من الرجال الأشداء، سماهم المرابطين للزومهم رباطه الديني . ومن هؤلاء وغيرهم ألف جيشاً قوياً ، وخرج به يحارب قبائل كدالة ولتونة ومسوفة وغيرهم، حتى أخضع قبائل الصحراء كلها،

وبابعته على طاعة الله ورسوله ، وإقامة شعائر الدين كاملة غير منقوصة .

ولما توفي الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي عيّن عبدالله بن ياسين على صنهاجة أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتوني . وهكذا تولى هذا الأمير أمور الحرب . أما عبدالله فتكفل بمهمة الوعظ والإرشاد ، وجمع الزكوات والأعشار . ورغم أن أبا زكريا هذا كان أميراً على قومه ، إلا أنه لم يكن يبرم شيئاً إلا بمشورة ابن ياسين . ولما استقام للأمير الجديد ملك الصحراء غزا بلاد السودان ففتح كثيراً من أقاليمها . ثم غزا أرض سجلماسة بالمغرب وأصلح أحوالها ، وجعل عليها عاملاً من لمتونة ليدبر شؤونها ، ثم عاد إلى الصحراء . وفي إحدى غزواته ببلاد السودان توفي .

لما توفي الأمير أبو زكريا تولى مكانه رجل آخر هو أبو بكر بن عمر أخو الأمير المتوفى ، وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائة من الهجرة . أما ابن ياسين فمات بسبب جروحه الخطيرة التي أصيب بها في إحدى معاركه وذلك سنة 451 هـ . وتابع الأمير أبو زكريا عمله الحربي فاستولى على بلاد السوس ، وبلاد المصامدة ، وسائر بلاد زناتة ، وغيرها من أقاليم المغرب ، وعيّن على الجميع عمالاً يقومون بشؤون الأهالي طبق كتاب الله وسنة رسوله .

وبينا الأمير أبو بكر يستريح في أغصان من حروبه الكثيرة ، إذا برسول يأتيه ويخبره بأن حرباً واقعة في الصحراء بين سكانها ، فعزم على الرحيل إليها ليحسم ما بين المسلمين الإخوة من تقاتل ، بالتي هي أحسن ، لأنه كان رجلاً فاضلاً مسالماً . وقبل سفره عين ابن عمه يوسف بن تاشفين خلفاً له ، ليقوم بممارسة الشؤون ، ومواصلة الحرب .

القبائل البربرية المخالفة للدين . وكان سفر أبي بكر إلى الصحراء
: ثلاث وخمسين وأربعائة من الهجرة .

يوسف بن تاشفين

عرفت سابقاً أن أبا بكر كان قد عينه خلفاً له على الجيوش المرابطية،
رحيله إلى الصحراء ، من أجل حسم النزاع ، الذي أدى إلى قتال
بائل الشقيقة هناك ، وأثناء غيابه كان يوسف بن تاشفين يحرز انتصاراً
سد آخر ، في جميع حروبه ضد القبائل التي لم تكن قد دخلت في
اعة المرابطين بعد .

وكان يوسف متحلياً بكثير من السجايا الكريمة والخصال الحميدة، منها
مدل والرحمة والكرم وإيثار المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . كما
ان يقدر أهل العلم والدين ، ويقربهم إلى مجلسه ، ويستمع إلى رأيهم-
بتلك الأخلاق السامية أحبه المرابطون حباً جماً ، فأطاعوه طاعة عمياء
ساروا في ركابه يحققون الانتصارات ويبنون المجد والعظمة .

ولما انتهى الأمير أبو بكر من المهمة التي ذهب من أجلها إلى الصحراء،
ناد إلى المغرب ، فألقى يوسف بن تاشفين قد تقوى مركزه ، وعظم
مأنه باستيلائه على معظم البلاد . ولما تقابل الرجلان شعر أبو بكر أن
بن تاشفين قابله كأمر مساوٍ له في الرتبة ، لا كغائب من قبله على
لمغرب ، وأظهر معه من اللباقة والسياسة ما أربك تفكيره في الموقف ،
قدم له من الهدايا والتحف ما أخجله وثنى عزمه . وأمام ذلك لم
يجد أبو بكر بداً من التسليم بالأمر الواقع ، وهو أن يترك المغرب لابن

عمه ، ويكتفي هو بإدارة شؤون الصحراء ، التي يفضلها على غيرها .
وهكذا عاد الأمير أبو بكر إلى صحرائه ، وظل أميراً عليها . وفي
إحدى غزواته بالسودان استشهد ، وذلك سنة ثمانين وأربعمائة . أما
يوسف بن تاشفين فقد صار أميراً مطاعاً للدولة المرابطين في المغرب ،
منذ أن غادره أبو بكر ورجع إلى الصحراء . ويعزى نجاح السياسة
التي سلكها ابن تاشفين مع الأمير أبي بكر، إلى زوجته زينب النغراوية،
كما يرجح أن عظمتها كلها مدينة بالفضل إلى هذه المرأة ، التي كانت
فريدة زمانها في الجمال والدهاء والفطنة .

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف جيوشه إلى المغرب
الأوسط ، فحاربت هناك واستولت على كثير من البقاع ، ولما دخلت
سنة 473 هـ ضرب السكة باسمه في المغرب ، وفي السنة نفسها فتح مدناً
مغربية أخرى ، كمليلية ، ونكور وسائر بلاد الريف : وفي سنة أربع
وسبعين تقدم بجيوشه نحو مدينة وجدة فاستولى عليها . كما استولى على
سائر بلاد بني يزنازين ، ثم واصل زحفه إلى مدينة تلمسان وتنس
ووهران ، في أرض الجزائر الشقيقة ، فاحتلها جميعاً ، وبعد ذلك قفل
راجعاً إلى مدينة مراکش ، عاصمته .

استنجد بني عباد بيوسف

أضحى خطر المسيحيين يتفاقم يوماً بعد يوم في البلاد الإسبانية ،
فيهدد المسلمين بالويل والثبور ، فما كان من المعتمد بن عباد أمير اشيلية
الطائفي ، إلا أن كاتب ملك المغرب العظيم يوسف بن تاشفين لينجده

ضد عدو الإسلام ، فكان جواب يوسف أنه لا يستطيع تلبية طلبه ، ما دامت مدينتا سبته وطنجة خارجتين عن طاعته ، لأنهما المجاز الرئيسي للعبور إلى الأندلس . وبعد ذلك بعث الأمير المرابطي قائده صالح بن عمران إلى مدينة طنجة ، فتمكن هذا من الاستيلاء عليها بعد حرب طاحنة .

وجاء ابن تاشفين كتاب آخر من المعتمد بن عباد يستنجد به ليعينه على صد عدو المسلمين ، فأجابه يوسف أيضاً بأنه غير قادر على استجابة طلبه ما دامت سبته خارجة عن حوزته وسلطانه .

وكان الفونس قد وجه جيوشاً عظيمة إلى أقاليم المسلمين ، فأفسدت وخربت وقتلت وسبت ، وهكذا أصيبت أراضي المسلمين بأضرار فادحة ، خصوصاً منها مناطق الأندلس الشرقية ، واستطاع العدو أن يستولي على أمهات المدن : كمدينة مرسطة ، التي كان يحكمها بنو هود آنذاك ، ومدينة طليطلة التي كانت بأيدي بني ذي النون . وكان احتلال النصراري لهذه المدينة الأخيرة من أكبر العوامل التي حملت المسلمين سواء في الأندلس ، أو في المغرب على إعلان الجهاد المقدس ، ضد الخطر المسيحي في اسبانيا المسلمة .

وآنذاك صمم يوسف بن تاشفين بدافع الحمية الوطنية، والغيرة الدينية ، على أن يستولي على سبته مها كلفه ذلك من تضحيات جسام، حتى يتفرغ لحرب الأندلس . فأرسل إليها ابنه المعز على رأس جيش كثيف، فسار إليها براً ، وأعانه بنو عباد بالأساطيل البحرية من جهتهم ، وهكذا تمكن المعز المرابطي من الظفر بسبته ، وذلك سنة سبع وسبعين وأربعمائة . وبعد هذا النصر ، ركب المعتمد بن عباد البحر وأتى إلى يوسف بنفسه

وطلب إغاثة المسلمين بالأندلس ، قبل أن يبطش بهم عدوهم البطشة الكبرى . وخاطبه ابن عباد بأمر المسلمين فقط لأن يوسف كان يعترف بالدعوة العباسية .

وكانت سببة هذه وطنجة تابعين لبني حمود بالأندلس ، منذ عهد الدولة الأموية . فلما انقرضت ، وتكوّنت على أنقاضها ممالك الطوائف ، استقل بنو حمود هم كذلك بإمارتهم بجنوب اسبانيا ، وبقيت سببة وطنجة ملحقتين بهم : يعينون عليها عمالاً يثقون بإخلاصهم لهم . وقد أحرّ يوسف الجواز لإتقاذ اسبانيا المسلمة من برائن العدو ، حتى دخلت هاتان المدينتان في حوزته ، لاعتبارهما المجاز الاستراتيجي للعبور منه إلى عدوة الأندلس ، والمأوى الحصين الذي يحمي ظهور جيشه ، ويلجأ إليه إذا قدر وحلت به الهزيمة . ولكن بمجرد استيلائه على المدينتين ، هب لنجدة إخوانه الأندلسيين .

بناء مدينة مراكش

لما عظم ملك يوسف بن تاشفين في البلاد، وطارت بصيته الركبان، حفزته همته العالية إلى بناء مدينة تكون داراً لإدارته وعاصمة لدولته ، ورمزاً لعظمته ومجده . وهكذا أمر ببناء مدينة مراكش، الواقعة جنوب المغرب ، وذلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة هـ ، في الموضع الذي اشتراه من قبائل المصامدة ، أصحابه ..

« مراكش بالبربرية معناها : « أسرع في شيك » وكانت القوافل المسارة في الموضع الذي بنيت فيه تردد كلمة مراكش ، لأن ذلك المكان كان وكراً لقطاع الطرق . فنسبت تلك الكلمة البربرية إلى المدينة وعرفت منذ عهدها الأول بمراكش .

فخطط المساكن الجميلة بالمدينة ، والقصور الفخمة ، والاسواق والدكاكين والمصانع . كما بنى بها مسجداً للصلاة ، شارك الأمير بنفسه في بنائه جنباً إلى جنب مع العمال ، طلباً لثواب الله ، ودليلاً منه على ما يتحلى به من التواضع والديمقراطية . ولم يكن بالموضع ماء أول الأمر ، فحفرت الآبار ، وظهر الماء ، وظلت المدينة بدون سور طيلة حياة يوسف . فلما توفي وخلفه ابنه علي بن يوسف أحاطها بالسور سنة ست وعشرين وخمسمائة . وصرف من أجل بنائه سبعين ألف دينار . كما بنى الجامع الأعظم الذي أنفق عليه مبلغ ستين ألف دينار .

وقد استغرقت مدة بناء المدينة أيام يوسف ، ثمانية أشهر . وكانت هي عاصمة المرابطين ، والموحدين من بعدهم ، الذين زادوا في البناء من مساجد ومصانع ، ودور العلم ومعاهده . وجاء المرينيون عقبهم فبنوا بها المدينة البيضاء ، واتخذوها هم أيضاً عاصمة للكهيم . وبعد هؤلاء أتى السعديون ، الذين بنوا بها القصور الجميلة ، أشهرها قصر البديع ، الذي ذاع صيته . وكانت مراكش هي عاصمتهم أيضاً . ثم جاء من بعدهم العلويون فجعلت مدينة مكناس عاصمتهم في عهد مولاي اسماعيل . ثم رجعت مراكش عاصمة الدولة ، ففاس ثم الرباط إلى يومنا .

● نقاط التلخيص ●

- ينتمي المرابطون إلى قبيلة صنهاجة البربرية ، وموطنهم الأصلي هو الصحراء الكبرى . وسموا بالملثمين لأنهم يضربون على وجوههم خُمُرًا ، وبالمرابطين لأنهم تكوّنوا في الرباط الديني بتوجيه من مرشدهم عبدالله بن ياسين .
- انتقل عبدالله بن ياسين هذا إلى الصحراء مع أميرها يحيى وأخذ يعرف الناس أمور دينهم ، ولكنهم انفضوا من حوله ، فانزوى في مكان مهجور وجعله رباطاً دينياً ، وشرع يعبد الله فيه . وسرعان ما انضم إليه عدد كبير من الأنصار، فحارب بهم المخالفين للدين فانتصر .
- لما تولى يوسف بن تاشفين على المرابطين ، قوى دولته بما حققه من انتصارات في المغرب ، وفي المغرب الأوسط ، حيث استولى فيه على تلمسان ووهران وتنس . وضرب السكة باسمه .
- لما اشتد خطر المسيحيين على الأندلسيين في عهد ملوك الطوائف ، طلب منه ابن عباد - صاحب اشبيلية - أن يسرع بإنقاذ المسلمين . فصمم يوسف على الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد .
- لما كثر عدد جيوشه وعظمت دولته أسس مراكش واتخذها عاصمة للملكة الواسع .

أسئلة

- 1 - ما أصل المرابطين ؟ كيف أسسوا دولتهم في المغرب ؟ ما مميزات هذه الدولة ؟
- 2 - ما السبب في استنجد بني عباد بالمرابطين ؟ ما رأيك في سياسة بني عباد ؟
- 3 - على أي شيء يدل اعتراف يوسف بن تاشفين بالدعوة العباسية ؟
- 4 - لم لم ينتقل يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد ، لما دعاه ابن عباد لذلك أول الامر ؟
- 5 - متى بنيت مدينة مراكش ؟ علل ما يمكنك من تعليل للأسباب التي حملت المرابطين على بناء مراكش ؟ ما دورها في حياتهم ؟

المرابطون في الأندلس



الاستعداد للدخول الأندلس

عندما شرع النصارى يشنون غاراتهم الماحقة على أراضي المسلمين في اسبانيا ، وسقطت كثير من بقاعهم في أيدي العدو ، كما اضطر كثير من امرائهم إلى دفع الجزية للنصارى ، حتى إن المعتمد بن عباد لم ينج من ذلك - آنذاك اجتمع ملوك الطوائف وأمراؤهم للتذاكر في علاج الموقف الخطير. فلما تأكدوا أن لا سبيل لديهم لإنقاذهم، نظراً لضعفهم، قر رأيهم على استدعاء أمير المرابطين العظيم يوسف بن تاشفين ، للقدوم إلى الأندلس لغوثهم . فلما وصل طلبهم إلى البطل المرابطي ، عن طريق المعتمد صاحب اشبيلية جمع يوسف رؤساء جيشه وخاصة حاشيته وعرض عليهم ما يطلبه سكان الأندلس المسلمون . فوافقوا مع الأمير على إنجاد المسلمين من الخطر النصراني ، باعتبار ذلك واجباً يفرضه الدين . ولكن بعد أن يتنازل أمير اشبيلية المعتمد بن عباد عن حصن الجزيرة للمرابطين،

ليجعلوه ملجأ لهم ، ومستودعاً لمؤنهم وعتادهم .

ووافق المعتمد على تسليم حصن الجزيرة للمرابطين ، رغم معارضة ابنه ، الذي كان يخاف أن يتقلب المرابطون عليهم فيقضوا على دويلتهم ، غير أن أباه آثر أن يكون القضاء عليهم على يد مسلم من أن يكون ذلك على يد نصراني .

وهكذا استعد ابن تاشفين استعداداً عظيماً لحرب النصارى . وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة من الهجرة ، ركب المرابطون متن السفن البحرية ، وما أن بدأت تمخر عباب الماء حتى رفع أميرهم العظيم يوسف كفيه للسماء ، وقال في إيمان الصادق وخشوع المؤمن : « اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهل عليّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » ، فكان أن سمع الله دعاءه فسكن البحر ، وأمكن للسفن الشراعية أن تصل إلى شاطئ العدو بسلام .

نزول المرابطين في الأندلس

وما أن نزل الأمير المجاهد إلى أرض إسبانيا حتى صلى لله صلاة الشكر ، ثم سار إلى حصن الجزيرة ، فدخله — حسب الاتفاق بينه وبين المعتمد — وكان في استقباله ملوك وأمراء الأندلس وكبار قضاتها وعلية كتابها ، وعلى رأس الجميع ملك إشبيلية ابن عباد . وأراد هذا أن يترجل ويقبل يد أمير المرابطين إشارة لطاعته . فأبى يوسف ذلك ، لأنه لم يكن يعد أميراً على الأندلس ، وإنما حضر إليها استجابة لدعوة أهلها من أجل

إنقاذ المسلمين من خطر النصارى ، حتى إذا ما فرغ من مهمته هذه عاد أدراجه إلى المغرب .

وبعد أن أقام البطل المرابطي بالحصن فرقة من جنوده البواسل لحمايتها ، توجه مع المعتمد بن عباد إلى اشيلية ، فكث بها ثمانية أيام ، كان خلالها دائماً على ترتيب جيشه ، ومنتظراً قدوم جيوش الأمراء الآخرين ، حسب اتفاق سابق . وكان ابن عباد قد هباً للجيش من المؤن مقداراً عظيماً .

وبعد انقضاء الأيام الثمانية ، أمر يوسف بتحريك الجيوش نحو أرطوشة ، وكان في المقدمة عشرة آلاف من فرسان المرابطين ، تليهم قوات الأندلس ، على رأسهم المعتمد . أما يوسف وباقي جيشه العظيم ، فكان يسير خلفهم ، بحيث كان ينزل مساء في الموضع الذي يتركه ابن عباد صباحاً . وفي مدينة أرطوشة ، مكثت تلك الجيوش مدة ثلاثة أيام ، في انتظار وصول أمراء آخرين مع جيوشهم ، بناء على الاتفاق المبرم ، بينهم وبين ابن تاشفين .

وطار خبر مجيء المرابطين إلى سنج الفونسو السادس ، الذي كان يشدد الحصار على مدينة سرقسطة . فكف عن حصارها ، وعجل بالعودة للحماية طليطلة عاصمته ، التي سبق أن أخذها من المسلمين . وهناك عقد اجتماعاً خطيراً ضم كبار الشخصيات الإسبانية . وفيه تداولوا في علاج موقفهم ، واتفقوا بالإجماع على الاستعداد وأخذ الأهبة . وشد عضد الفونسو كل من سانشو راميريز (**Sancho Ramirez**) ملك أراجون ، الذي كان يحاصر طرطوشة ، والكونت برنجار ريموند ، الذي كان يستعد لشن غارة على بلنسية ، سعيّاً وراء احتلالها . كما انضم إلى الفونسو كثير من

الفرسان الفرنسيين ، مدفوعين بدافع الطمع ، لأخذ نصيبهم من غنائم المسلمين ، أكثر مما كانوا مدفوعين بالغيرة الدينية .

واقعة الزلاقة

وعلى مقربة من بلدة بطليوس ، في سهل منبسط تكتنفه الغابات يسمى الزلاقة (Sacralias) ، عسكر الفريقان ، وكان الفاصل بينهما نهر صغير يسمى حجير . وكان كلا الفريقين يضم عشرات الالوف من الجند المدججة بالسلاح . وكانت القوتان متعادلتين ، أو تزيد إحداهما عن الأخرى بقليل . وفي الحين أرسل يوسف بن تاشفين رسالة إلى الفونسو يخبره فيها بين ثلاثة أشياء : إما أن يسلم أو يدفع الجزية للمسلمين أو الحرب . فكان جواب الفونسو الملتهب حماساً: الحرب طبعاً . على أنه أراد أن يسلك مع الأمير المرابطي طريق الخديعة ، التي تخدش الشرف ، فبعث إلى بطل المسلمين جوابه بأن يمتنع عن خوض الحرب غداً ، الذي هو عيد المسلمين ، ويوم السبت ، الذي هو عيد اليهود ، ويوم الأحد الذي هو عيد النصارى ، على أن يكون اللقاء في يوم الاثنين .

قبل يوسف الشهم ، ما عرضه عليه الفونسو ، غير أن المسلمين احتاطوا للمفاجآت ، خصوصاً المعتمد بن عباد ، الذي كان يعرف أن الفونسو لا يرعى للعهود حرمتها . ولهذا السبب يث عيونه ليلاً لمراقبة حركات العدو . وما أن مضى شطر من الليل حتى عاد حراس المراقبة في سرعة خاطفة ، وأخبروا المعتمد بن عباد بأن النصارى آخذون في

الاستعداد للحرب خفية لمباغثة المسلمين غداً يوم الجمعة، طمعاً في الفتك بهم . فتأهب المعتمد بن عباد للقائهم، وطيرّ الخبر في الحال إلى الأمير المرابطي العظيم ، فاستعد هذا بدوره ، وبعث إلى المعتمد عشرة آلاف من الفرسان المرابطين لساندته في لقائه للعدو .

أما الأمير يوسف وباقي جيوشه العظيمة ، فإنهم احتجبوا جميعاً عن أعين العدو وراء أكمة هائلة . وما أن وجد النصارى جيوش الأندلسيين وفرسان المرابطين واقفين لهم بالمرصاد حتى اندهشوا ، لأنهم كانوا يعتقدون أن المسلمين عاكفون على صلواتهم ، ولن يفتنوا لمكيدة مليكهم الفونسو . وقد قاتل المعتمد وجيشه قتال الأبطال ، وتمكنوا مع الفرسان المرابطين من الصمود في وجه العدو ، الذي أعاد الكرة عليهم بعد تراجعهم أول الأمر ، وأحاط بهم إحاطة السوار . ولما بدأت مقاومة المعتمد تضعف ، ظن الفونسو أنه سيريح المعركة لا محالة ، معتقداً أن الجيش الإسلامي المحارب الذي أخذت تنهزم فلوله هو كل ما لدى المسلمين من قوة .

وفي ذلك الوقت انقضّ الأمير يوسف بكامل قواته العظيمة على معسكر العدو فقتل حراسه ، وأحرق خيامه، وغنم مؤنه وعتاده ومتاعه . وأرسل البطل المرابطي فرقاً كثيرة من جيشه الباسل ، لإنجاد الجيش الأندلسي والفرسان المرابطين الشجعان. وكان الفونسو ممتطياً جواده يحمس جيشه ، ويدفع به إلى المعركة . وما أن علم بهجوم يوسف على معسكره واستيلائه عليه بعد إحراقه، حتى أسرع بالتوجه مع قسم كبير من رجاله الأبطال نحو المكان ، فاشتبك في قتال حامي الوطيس مع ابن تاشفين وجيشه العتيد .

وهكذا ظل القتال مستعراً طيلة النهار إلى غروب الشمس ، فرجحت كفة المسلمين، ومال النصارى إلى الفرار من المعركة، بالعشرات والمئات . وأبت شجاعة الفونسو ألا يترك ساحة الوغى وهو حي ، ولكن طائفة من أنصاره أقنعتة بوجوب العودة إلى بلاده ، فرضخ لرأيهم مكرهاً ، وعاد وهو مشخن بالجراح.وانتهت المعركة..وبقيت في الميدان جثث ألوف من القتلى والجرحى مطروحة من الجانبين ، ولكن خسائر النصارى كانت أعظم . فأمر الأمير المرابطي العظيم بدفن القتلى من المسلمين ، واحتراز رؤوس قتلى النصارى . فجمع منها حوالي عشرين ألفاً ، وضعت على شكل إهرامات ، وأمر يوسف المؤذن أن يؤذن فوق بعضها .

وبعث خبر النصر إلى كافة مدن الأندلس والمغرب ، فابتهج الناس ابتهاجاً عظيماً ، وصلوا صلوات الشكر لله .

ورغم أن يوسف أحرز هذا النصر العظيم على أعدائه ، فإنه أخطأ خطأ حريباً له أهميته . ذلك أنه لم يتعقب النصارى المنهزمين حتى يقضي عليهم نهائياً في عقر دارهم ، وبذلك يستأصل شأفتهم ، ويمحق كل خطر منهم يتهدد المسلمين . إن ذلك الخطأ يعطينا درساً فيما تحدته نشوة الانتصار الأول في النفس من المبالغة ونسيان العواقب . بينما كان الأولي أن يكون النصر الأول خطوة أولى للنصر النهائي الحاسم . ومهما يكن من أمر فإن هذا النصر، قد مدّ في عمر الإسلام بالأندلس أربعة قرون أخرى. ولم ييأس الفونسو الشجاع مما حل به من هزيمة. ، بل أخذ يستعد لخوض حرب جديدة مع المسلمين. ومن حسن طالعه أن يوسف بن تاشفين رجع إلى بلاده حين بلغه خبر نعي ولده أبي بكر في مراکش، والذي كان قد تركه نائباً عنه طيلة غيابه .

ولما عاد يوسف إلى مراكش بقيت قوات عظيمة من المرابطين بالأندلس لتقوم بواجبها الحربي ضد الأعداء بقيادة القائد المرابطي العظيم سير ، فأتخن في أرض البرتغال . واستولى المعتمد الباسل من جهته على عدة مدن نصرانية ، ولكن المسلمين خسروا ثمرة انتصاراتهم كلها بسبب تفرق كلمتهم ، وعداء بعضهم لبعض ، بينما كان عدوهم يتقوى .

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة من الهجرة عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية ، فأتخن في بلاد العدو ، ثم وجه اهتمامه نحو الأقاليم التي يحكمها ملوك الطوائف فاستولى عليها كلها، ففرض بذلك على شعبهم وتناحرهم ، ووجد صفوفهم تحت لوائه الإسلامي الخفاق . وهكذا سد مصدر الخطر الحقيقي الذي كان يقلق راحة المسلمين بالأندلس ، وينشر الفوضى بين صفوفهم . وبعد أن ضبط شؤون البلاد عاد إلى بلاده المغربية .

وفاة يوسف ومآل المرابطين

وفي جوازه الرابع للأندلس صاحب معه ولديه تيمماً أبا الطاهر وعلياً أبا الحسن ، وعاد القواد والرؤساء من المغاربة والأندلسيين للاجتماع ، وأعلن لهم أنه يعين ولده الأصغر علياً ليخلفه في الحكم من بعده ، وأمرهم بأداء الولاء له ، لأن علياً هذا ، كان ذكياً متوفراً على مؤهلات الملك. وقد تم إعلان هذه البيعة سنة ست وتسعين وأربعمائة من الهجرة . وبعدها عاد يوسف إلى مراكش ، وظل بها بضعة أعوام ، حتى تزايد ضعفه ، بسبب الشيخوخة . وما أن دخلت سنة خمسمائة حتى وافاه أجله .

فتولى بعده ولده علي ، وعبر كأبيه مرات إلى الأندلس برسم الجهاد،
وحقق عدة انتصارات على النصارى ، كان أعظمها المعركة التي حصلت
قرب قلعة إقليش الحصينة سنة إثنين وخمسمائة من الهجرة ، ذلك النصر
المبين الذي يعتبر نهاية انتصارات المرابطين ، بل نهاية مجدهم الحربي
وعظمتهم ، سواء في الأندلس أو في المغرب، إذ أنهم بعد انتصارهم في
معركة إقليش بالأندلس ، مالوا إلى الضعف ، بينما تقوى عليهم عدوهم
النصراني من جهة ، وقامت ضدهم الثورات في الأندلس والمغرب من
جهة أخرى ، فخرج من أيديهم كل ما كان لهم في بلاد الأندلس.
وأخذت تتقلص دولتهم في المغرب شيئاً فشيئاً ، بسبب الضربات القاصمة
التي يكيلها لهم الموحدون ، حتى قضوا عليهم نهائياً سنة 541 هـ ، في
عهد آخر ملك مرابطي إبراهيم .

● نقاط التلخيص ●

- أخذ النصارى يستولون على مدن المسلمين وقراهم في الأندلس . فطلب المعتمد بن عباد من يوسف بن تاشفين باسم الأندلسيين أن يقدم لنجدتهم . فاجتاز إلى الأندلس بعد تسلمه حصن الجزيرة الخضراء .
- في مكان يسمى الزلاقة حصلت المعركة الهائلة بين المرابطين والأندلسيين من جهة ، وبين النصارى من جهة أخرى فكتب النصر الحاسم للمسلمين .
- كان ذلك النصر الذي أحرزه المرابطون في الأندلس من أقوى الأسباب التي مدت في عمر الإسلام بتلك الديار أربعة قرون أخرى .
- لما رأى يوسف أن ملوك الطوائف لم يتعظوا مما حل بهم من نكبات ، بسبب فتنهم وهجوم النصارى عليهم ، قضى عليهم ووحّد البلاد الأندلسية .
- بعد وفاة يوسف بن تاشفين آلت أحوال المرابطين إلى الضعف والانحلال . وزاد في الطين بلة قيام الموحدين ضدهم . وكانت نهاية دولتهم على أيديهم سنة 541 هـ .

أسئلة

- 1 - لم اشترط يوسف بن تاشفين على ابن عباد تسليم حصن الجزيرة له قبل جوازه الأول من المغرب الى الاندلس ؟ ما موقف ابن عباد وولده من ذلك ؟
- 2 - صف نزول المرابطين في اسبانيا لأول مرة وتنقلاتهم قبل خوض المعركة .
- 3 - تحدث باسهاب عن معركة الزلاقة ؟ ما الخطأ الحربي الذي ارتكبه يوسف بعد ذلك الانتصار ؟
- 4 - لم قضى على ملوك الطوائف ووحّد بلاد الاندلس ؟ ما رأيك في ذلك ؟
- 5 - علل أسباب سقوط الدولة المرابطية بعد وفاة يوسف ؟

الموحدون في المغرب والاندلس

(541 — 668 هـ)



محمد بن تومرت يتزود بالعلم

كان أول داع وعامل على قيام دولة الموحدين هو محمد بن تومرت، المنتمى إلى هرغة ، من قبيلة مصمودة ببلاد السوس . وفي أيام الملك المرابطي علي بن يوسف ارتحل محمد إلى المشرق، طلباً للعلم، بعد أن أخذ منه الشيء الكثير في معاهد المغرب والاندلس ، والقيروان والقاهرة . ومنها انتقل إلى بغداد حيث تتلمذ على يد العلامة الكبير والفيلسوف العظيم أبي حامد الغزالي . وكان هذا العالم الجليل قد ألف كتاباً يسمى « إحياء علوم الدين » ، فسا أن اطلع عليه فقهاء قرطبة ومراكش وفاس والقيروان حتى أنكروا ما جاء فيه ، وكفّروا صاحبه ، وأشاروا على أمير المرابطين عليّ بإصدار أمره بإحراق كتاب الغزالي أينما وجد ، غانصاع الأمير لرأي هؤلاء الفقهاء المتزمّتين وأصدر الأمر بإحراق الكتاب.

ولما حضر ابن تومرت حلقة الدروس ، التي يقوم بها فيلسوف الإسلام الغزالي ، لاحظ الشيخ أن تلميذه الجديد ، غريب الزي والسحنة ، فلما عرف منه أنه مغربي ، سأله عما تركه كتابه « إحياء علوم الدين » من الأثر في المغرب . فأخبره بأن الفقهاء أنكروا كتابه وأحرقوا بأمر من الأمير المرابطي ، ورموا شخصه بالكفر والإلحاد .

فما أن سمع الشيخ الجليل ذلك حتى استاء غاية الاستياء ، ثم رفع رأسه وكفيه للسماء ، وقال : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ، فطلب منه محمد بن تومرت أن يدعو الله ليكون ذلك على يديه ، بعد عودته إلى المغرب ، فقال الشيخ الوقور : « اللهم اجعله على يد هذا الرجل » . فانطبعت هذه الدعوة في قلب الفتى ، وامترجت بدمه ، ولازمته طول حياته الدراسية ، وصمم العزم على تحقيق الأمل الذي تمناه له شيخه العظيم .

العمل من أجل تحقيق الغاية

وفي سنة 510 هـ قفل ابن تومرت راجعاً من المشرق في طريقه إلى المغرب ، ولما وصل بجاية بأرض الجزائر الشقيقة أقام بها مدة ، كان خلالها يدعو الناس إلى الإقلاع عن الفحشاء والمنكر، واتباع تعاليم الدين ، كما أمر الله ورسوله . وفي موضع يسمى ملالة ، قريباً من بجاية ، التقى بشاب ذكي الفؤاد ، فطن العقل ، له نشاط كبير ، وبسطة في العلم ، فما أن رآه حتى أعجب به غاية الإعجاب ، وعزم على أن يتخذ رفيقاً وصديقاً ، وهذا الشاب هو عبد المؤمن الكومي . وكان يعترم الرحيل إلى المشرق لزيادة التحصيل ، فعرض عليه ابن تومرت مصاحبته إلى

المغرب ، ومناه - إن طاووعه - بالحصول على رفيع الدرجات في العلم والشرف . وهكذا تخلى عبد المؤمن عن سفره الى المشرق ، وارتحل مع ابن تومرت إلى المغرب ، يحفزه الأمل في أن ينال في مصاحبته ما يصبو إليه من عز وسؤدد .

عكف ابن تومرت منذ اللحظة الأولى على نشر دعوته بين الناس في إفريقية (تونس) ، والمغرب الأوسط ، وأخيراً بالمغرب الأقصى ، مسقط رأسه ، في المساجد والطرق والميادين العامة . فلاقى من جراء ذلك كثيراً من الأهوال ، تحمّلها كلها بصبر عجيب . وهكذا كوّن أنصاراً وتلاميذ في كل مكان . وكان في مراكش (العاصمة) أكثر عنفاً في دعوته ، يغير المنكر بلسانه ، فإن لم يستطع غيره بيده ، كأن يكسر الأواني الملية بالخمير ، أو يحطم آلات الطرب ، باعتبارها - في ذلك الوقت - وسيلة للغناء الماجن ، والرقص الخليع .

وما أن تكاثر المعجبون به ، حتى بدأ يعلن جهراً عن أسماء أكابر المرابطين الذين يشاركون في حياة اللهو والفحش . فضجر أولئك من هذا الداعية الخطير ، وخوفوا أميرهم علماً مغبة دعوته على سلطان المرابطين، ولكن الأمير كان حليماً ، فلم يتسرع في التعرض لابن تومرت بسوء ، وإنما استدعى الفقهاء لعقد اجتماع يناظرون فيه الفتى بمحضره ، ليعرفوا حقيقته عن كثب . فوقع الاجتماع ، وأظهر فيه ابن تومرت من ضروب الفصاحة والبلاغة والحكمة ما نال إعجاب الأمير . ولكنه قرر أخيراً ، بإلحاح من الفقهاء وكبار الحاشية ، أن يبعد الداعية ابن تومرت عن مراكش ، درءاً لخطر دعوته ، فكان الأمر كذلك .

دور العمل الإيجابي

ومن ثم انتقل هذا الفتى الجريء إلى تينملل الواقعة في بلاد السوس ، حيث قبائل المصامدة . وهناك بين أهله وعشيرته وبصحبة رفاقه ، الذين كانوا يلازمونه ، وفي مقدمتهم عبد المؤمن ، أخذ يواصل دعوته ويحرض على الثورة علناً ضد المرابطين . فلما تكاثر أنصاره ، بايعوه بالإمارة تحت شجرة الخرنوب . ثم توافدت عليه القبائل تبعاً معلنة طاعتها له . فكوّن الشاب الأمير من أنصاره جيشاً قوياً ، وأمره بمحاربة المرابطين ، وأطلق على أصحابه اسم الموحدين ، ويعني الاتحاد والإيمان بوحداية الله .

وشن الموحدون هجومهم الأول على المرابطين سنة 516 هـ ، في الوقت الذي كان الأمير المرابطي عليّ غائباً في الأندلس . فلما سمع بذلك أرسل فرقاً مهمة من جيشه التي بالأندلس ، لمساندة المرابطين بالمغرب ، فما أجدى ذلك نفعا . فقد ولّى المرابطون الأدبار في هلع وخوف من قوة الموحدين القوية . ثم جاءت جيوش مرابطية أخرى واشتبكت مع أعدائهم ، فلم تجزِ إلا الهزيمة في معظم حروبها .

وفاة ابن تومرت وتولية عبد المؤمن

ومرض ابن تومرت واشتد به المرض فأناوب عنه في الصلاة وقيادة الجيوش صديقه عبد المؤمن ، الذي ظل يتابع عملياته الحربية بنجاح تام ، إلى أن توفي ابن تومرت سنة 524 هـ فانفقت كلمة الجميع على تعيين عبد المؤمن خلفاً له ، باعتباره أخلص أصدقائه ، ولإنبته إياه في الصلاة وقيادة الجيش

ولأن ابن تومرت كان يردد دائماً قوله : ما دام عبد المؤمن حياً فلا خوف على الموحدين ، هذا فوق ما يتحلى به الأمير الجديد من شيم الأخلاق وغزارة المعرفة . ولما ولوه لقبوه بالخليفة وبأمر المؤمنين ، ووافقت تولية عبد المؤمن على عرش المغرب سنة 525 هـ . وبعد مضي أربع سنوات على توليته أمر بصك النقود باسمه .

نهاية المرابطين على يد عبد المؤمن

وفي سنة 537 هـ توفي أمير المرابطين علي ، فتولى بعده أكبر أولاده تاشفين ، وجاءت الوفود إلى مراكش لإعلان بيعتها من الجهات التي لم يكن الموحدون قد استولوا عليها بعد ، كما بعث إليه ولاته بالأندلس طاعتهم . وقد قاتل تاشفين هذا الموحدين قتال الأبطال . واستطاع في بعض الأحيان أن يبيد فرق الموحدين ، ولكن عبد المؤمن كان أقوى منه شكيمة ، وأصلب منه عوداً ، فقد ظل ثابت الجنان ، لا تتنيه المصائب والأحوال ، واستمر يسدد ضرباته العنيفة ، نحو تاشفين وجيوشه ، إلى أن وقع آخر اشتباك بين الفريقين ، وفيه انهزم المرابطون شرهزيمة . ففر تاشفين مع فلول جيشه نحو قلعة تلمسان ، ولكن عبد المؤمن لم يترك له وقتاً للراحة ، بل استمر يطارده ، فاضطر أن يتجه نحو وهران . ومنها بعث سراً إلى صاحب المرية في الأندلس ، ليعجل بإرسال بعض السفن لنقله ، هو وعائلته إلى إسبانيا ، لأنه فقد كل أمل في النصر . وفي جنح الظلام حاول تاشفين أن يتسلل إلى الميناء القريب من وهران ، ليركب منه ، فكان في ذلك حتفه ، إذ سقط هو وفرسه من مرتفع إلى البحر ، فمات مع فرسه ، وذلك سنة 539 هـ .

وبعد تاشفين بويج ابنه أبو إسحاق إبراهيم ، آخر ملوك المرابطين ، فكان أن ثار عليه عمه إسحاق ، لأنه كان يطمع في الملك ، فعجلت هذه الثورة من ناحية ، واستمرار ضربات عبد المؤمن للمرابطين ، وقتله للأميرهم مع كبار رجالاتهم من ناحية ثانية ، ثم قيام الثورات في الأندلس ضدهم بسبب غطرسة حكامهم — من ناحية ثالثة ، كل هذه العوامل وغيرها عجلت بسقوط الدولة المرابطية ، التي امتاز عهدها الأول — أيام يوسف بن تاشفين خصوصاً — بالعظمة والقوة . وكانت نهايتها سنة 541 هـ . ولم تعش أكثر من تسعين سنة ونيف .

من أجل وحدة الشمال الإفريقي

وفكر عبد المؤمن في إخضاع الشمال الإفريقي ، فإذ أن نظم شؤون مملكته ، وخارب النصاري في الأندلس وانتصر عليهم حتى تصدى للعمل من أجل تحقيق الفكرة ، واهتبل فرصة ضعف حكامها الذين عجزوا عن طرد النصاري المحتلين لبعض أراضيهم ، فتوجه بجيش لجلب نحو إفريقيا الشمالية فاستولى عليها . وكانت إمبراطوريته تمتد من شاطئ المحيط الأطلسي ، إلى برقة . وبذلك حقق وحدة المغرب العربي ، تلك الأمنية العزيزة ، التي نصبوا إليها اليوم .

الاستعداد للجهاد الأعظم ووفاته

وفكر عبد المؤمن بعد ذلك في شن هجوم عظيم على بلاد النصاري ، الذين ما فتئوا ينغصون الحياة على المسلمين . فأخذ يستعد لذلك استعداداً

هائلاً سنة 557 هـ ، فأنشأ أسطولاً مكوناً من 400 سفينة، وضرب من السهام ما لا يحصى ، وأكثر من أنواع الأسلحة والمعدات والخيول . فلما أتم تجهيزه واستعداده ، خرج من عاصمته (مراكش) ، قاصداً الأندلس لإعلان الجهاد الأعظم ضد النصارى ، مصحوباً بألوف الجيوش . ولكنه ما أن وصل إلى مدينة رباط سلا حتى اعتراه المرض ، فتوفي بسببه سنة 558 هـ .

بعض أعمال عبد المؤمن الأخرى

ومن أعماله أنه نظم الشؤون الإدارية في إمبراطوريته الشاسعة، وقسم أراضيها طويلاً وعرضاً تقسيماً فلاحياً مضبوطاً ، ليكون خراجها منظماً . فكان أول ملك في المغرب حقق ذلك سنة 555 هـ .

واعتنى بالتعليم غاية الاعتناء ، ومنح رواتب مهمة للعلماء والطلاب ، تشجيعاً لهم . وبنى المساجد ، وحث على الاجتهاد في الأحكام الشرعية، على أساس الكتاب والسنة .

ومن آثاره الباقية : جامع الكتبيين العظيم وبستان المسرة الذي كان يحتوي على كل ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين، والذي بنى فيه الصهرريج العظيم المعروف بصهرريج المغارة .

وبعث إليه أهل الأندلس هدية نفيسة ، هي مصحف عثمان بن عفان . وكان الأمويون قد نقلوه من الشرق إلى الأندلس . فاحتفل عبد المؤمن بيوم قدوم تلك الهدية النفيسة احتفالاً رائعاً، وحفظ المصحف في صندوق محلى بالذهب والفضة والأحجار الكريمة .

تولية يوسف ووفاته

وبعد وفاة عبد المؤمن ببيع بالخلافة ابنه يوسف . ومن أبرز صفات هذا الأمير أنه كان محباً للعلم والحكمة والفلسفة ، ولهذا السبب جعل ابن الطفيل ، الفيلسوف الشهير وزيراً له ، كما كلف ابن رشد بشرح فلسفة أرسطو ، وبالأخص الجوانب التي تتفق والشريعة الإسلامية .

وارتحل إلى الأندلس يرسم الجهاد، فحارب النصارى وانتصر عليهم . وفي سنة 567 هـ بنى جامع اشبيلية العظيم . واجتاز إلى الأندلس للمرة الثانية ، فاشتبك مع النصارى في الحرب ، فجرح جرحاً بليغاً مات بسبب ألمه سنة 580 هـ .

يعقوب المنصور

تولي يعقوب المنصور بعد وفاة والده بالأندلس . ولهذا الأمير أعمال مجيدة في جميع الميادين . فقد قرب اليه العلماء وأجزل لهم العطاء ، واعتنى بالضعفاء والمساكين .

وكان ابن غانية قد خرج عن طاعة الموحدين في الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس ، وشن حملة بحرية على أرض الجزائر ، فحاربه المنصور وانتصر عليه ، واستخلص ما كان بيده من الأراضي .

الجهاد الأعظم والنصر الحاسم

وفي سنة 591 هـ استعد المنصور استعداداً عظيماً لخوض المعركة الفاصلة بينه وبين النصارى ، الذين تفاحش طغيانهم واشتد جورهم على مسلمي الأندلس ، فاجتاز إلى عدوة الأندلس بجيوش جرارة . وفي صباح يوم الخميس من السنة الفارطة نشبت الحرب بين الموحدين والعساكر النصرانية. فتمكن العدو من إحداث البلبلة بين صفوف المسلمين أول الأمر، ولكن سرعان ما رجحت كفة النصر إلى جانبهم ، فانهزم العدو انهزاماً ماحقاً، وفرت فلوله ، وأسّر من جنوده عدد عظيم وسقط في الميدان منهم ما لا يحصى من القتلى والجرحى .

وارتكب المنصور خطأ سياسياً أيضاً حيث أطلق سراح الأسرى ، وقد ندم على ذلك من بعد ، لأن أولئك الأسرى عادوا لمقاتلة المسلمين . وهكذا كانت تلك الواقعة - التي سميت بواقعة الأراك - شبيهة إلى حد بعيد بواقعة الزلاقة ، التي انتصر فيها المرابطون على العدو النصراني في الأندلس .

وتابع المنصور زحفه بعد ذلك ، فاستولى على أكثر المدن التي كانت بأيدي النصارى، كقلعة رباح ومجريط وصلمنكة وحاصر طليطلة عاصمتهم، ولم يرفع الحصار عنها إلا عندما قامت ثورة في إفريقية ، فاضطر آنذاك إلى إجابة النصارى لعقد الصلح الذي كانوا يطلبونه .

من آثاره العظيمة

ومن آثاره العظيمة ، أيضاً إحداث عدة مبان في جميع مدن المغرب..

ومن بينها : القسبة وجامعها الأعظم ، ومنارة الكتبية بمراكش والمدرسة الجوقية ، والمسجد الأعظم بسلا ، وبناء مدينة رباط الفتح وإحاطتها بالسور وذلك سنة 593 هـ . وقد اتخذها معسكراً لجيوشه ، كما بنى جامع حسان ومنارته بنفس المدينة .

وفي الأندلس أتم بناء جامع اشبيلية ، وجعل له منارة فأصبح يشبه منارتي الكتبية وجامع حسان . كما اعتنى بالمرضى ، فبنى لهم المستشفيات (المستشفيات) . ورتب لهم الجرايات . وأقام العدل بين الناس على أساس الدين ، وكان متقشفاً ورعاً . ومن أعماله التحررية أنه أحرق كتب المذاهب ، ودعا إلى الأخذ مباشرة عن الكتاب والسنة .

صلاح الدين والمنصور يحاربان الصليبيين

وقد طلب صلاح الدين الأيوبي حامي الإسلام في الشرق من المنصور أن يساعده بأساطيله البحرية على الصليبيين فلم يتمكن المنصور من تلبية طلبه ، نظراً لأنه كان يحارب صليبيين آخرين في الأندلس وطمحوا هم كذلك العزم على القضاء على المسلمين هناك .

وفاة المنصور وضعف الموحدين

وفي سنة 595 هـ توفي المنصور العظيم ، فتولي بعده ابنه محمد الناصر . وفي عهد هذا الأمير ضعف الموحدون ، وبالأخص بعد انهزامهم الشنيع على أيدي النصارى في الأندلس ، في موقعة تعرف بالعقاب . والسبب

في ذلك أن جيوشهم رغم كثرتها كانت تعوزها قيادة رجل محنك كعبد المؤمن والمنصور ، وقوادهما العظام . وهكذا كانت هذه المعركة الخاسرة لئذناً بسقوط الدولة الموحدية من جهة ، ودولة الإسلام في الأندلس من جهة أخرى، على الرغم من أن دولة الموحدين عاشت الى 674 هـ .

● نقاط التلخيص ●

- ينتمي محمد بن تومرت إلى قبيلة مصمودة . وتعلّم في المغرب والمشرق .
- في المغرب كوّن له أنصاراً عديدين ، وسماهم الموحدين ثم حارب بهم المرابطين .
- بعد وفاة ابن تومرت تولى أمر الموحدين عبد المؤمن صديقه المخلص . فواصل الحرب ضد المرابطين حتى قضى عليهم .
- حقق عبد المؤمن وحدة الشمال الإفريقي ، حيث امتدت إمبراطوريته الواسعة من المحيط الأطلسي إلى برقة ، كما شملت الأندلس . وحقق أيضاً أعمالاً عظيمة أخرى .
- لما تولى يعقوب المنصور شؤون الموحدين ، اجتاز إلى الأندلس فأحرز على النصارى النصر العظيم في الأراك . وله أعمال عظيمة أخرى في المغرب . وبعد وفاته ضعف الموحدون ، خصوصاً بعد واقعة العقاب ، التي انهزموا فيها بالأندلس .

اسئلة

- 1 - كيف ظهر محمد بن تومرت ؟ تكلم عن أدوار تكوينه العلمي ، وعمله من أجل تحقيق غايته السياسية ؟ متى توفي ؟
- 2 - ما الأسباب التي أهلت عبد المؤمن لتولي حكم الموحدين ؟
- 3 - لقد حقق عبد المؤمن وحدة الشمال الإفريقي . ما رأيك في ذلك ؟ ما أعماله الأخرى ؟
- 4 - تحدث عن انتصارات يعقوب المنصور في الأندلس ضد النصارى . قارن بين انتصاره العظيم في الأراك ، وبين انتصار يوسف بن تاشفين في الزلاقة .
- 5 - إلى أي شيء آلت أحوال الموحدين بعد وفاة المنصور ؟ ما رأيك في أسباب سقوطهم ؟

الحياة الفكرية والفنية في المغرب والاندلس على عهد المرابطين والموحدين



1 — الحياة الفكرية في المغرب والاندلس على عهد المرابطين :

كان الأساس الذي قامت عليه الدولة المرابطية دينياً محضاً ، فقد قامت هذه الدولة لتعيد الناس إلى جادة الدين ، الذي انحرفوا عنه ، فحاربت — بحزم ونشاط — أصحاب الضلالة والبدع ودعاة الإلحاد ، واستعملت القسوة مع من أصروا على كفرهم وعنادهم ، واستعملت الرحمة والتسامح مع من تابوا وأصلحوا . وكانت التقوى والعدل والتقشف أيضاً من أبرز صفات هذه الدولة ، وبالاختصار كان المرابطون يمثلون في حكمهم المثل الأعلى للروح الإسلامية . وكان العامل الديني هو المحرك الأول للمرابطين على شن الحروب في المغرب ، وهو نفسه الذي دفعهم إلى نجدة إخوانهم في الأندلس ، على العدو عدة مرات ، وإحرازهم عليه انتصارات باهرة كان لها الفضل في إطالة بقاء المسلمين بالأندلس مدة

أخرى ، تقدر بنحو أربعة قرون .

وقد قوي الاحتكاك بين المغاربة والأندلسيين في عهدهم ، خصوصاً بعد قضائهم على ملوك الطوائف - رؤوس الفتنة - وضمهم الأندلس إلى سلطانهم ، فكان عملهم هذا - في الناحية الفكرية والفنية - بمثابة إعداد الجو المناسب ، وتوفير الصفحات البيض ليكتب فيها بمداد الفخر ، ما سنتنتجه براعة الأدباء وقرينة العلماء .

وعلى الرغم من أن الطابع المميز لهذه الدولة هو البداوة ، وعلى الرغم من شطط الفقهاء واستغلالهم نفوذهم الروحي بكيفية بعيدة عن حقيقة الإسلام وتسامحه ، فقد رحب المرابطون بكثير من علماء الأندلس وفلاسفتها ، وانتفعوا بهم في بلاطاتهم . حتى إن أبا حامد الغزالي فكر في أن يقدم على يوسف بن تاشفين ، ولكنه عدل عن فكرته لما علم بوفاة الأمير المرابطي العظيم . وفي الوقت الذي نرى فيه أن علياً بن يوسف يأمر بإحراق كتاب الغزالي : « إحياء علوم الدين » بإيعاز من فقهاء الأندلس والمغرب وإفريقية ، بحجة أن ذلك الكتاب يدعو إلى الكفر والإلحاد ، في الوقت الذي نرى أن هذا التعصب الأعمى والفهم المعوج للدين يسيطر على هؤلاء الفقهاء المترمّنين ، نجد أن علياً نفسه قد أمر ببناء الجامعة اليوسفية بمراكش لتقوم بمهمة تدريس العلوم العصرية في ذلك الوقت ، كالطب والهندسة والصيدلة والرياضيات وغيرها ، فأقبل الطلاب على تعلمها بنفس الحماس الذي يدفعهم إلى تعلم العلوم الإسلامية .

وعلى الرغم من أن انتشار تلك العلوم الحديثة كان محدود الأجل إلا أنه كان خطوة مباركة في سبيل رقي البلاد رقياً فكرياً فيما بعد .

الحياة الفنية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين

مهّد المرابطون لنقل الحضارة الأندلسية إلى المغرب . وكان من الطبيعي على قوم بدو أن يبهروهم ما شاهدوه من حضارة بلغت ذروة الإتقان والكمال عندما حلوا بالأندلس . ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الجانب المادي وما يكتسفه من زينة وزخرف ، أكثر النواحي الحضارية التي استهوت قلوب المرابطين البدو ، وأثارت إعجابهم . ولهذا السبب اهتموا بالناحية المعمارية أكثر من غيرها . فبنوا الجوامع الجميلة، والقصور الفخمة على الطراز الأندلسي . وجلب الأمير علي بن يوسف لهذا الغرض طائفة من مهرة الصنائع والمهندسين الأندلسيين . كما بنوا الحصون والقلاع العسكرية التي تتميز غالباً بطابعها البربري .

ويُعتبر المسجد الأعظم بتلمسان من أجمل المآثر المرابطية التي سُلست من عوادي الزمان . وكان لبناء جامعة مراکش أثرها المحمود في نشر الثقافة بالمغرب ، على أيدي علماء فطاحل ، أتوا من الأندلس وغيرها ، خصيصاً لهذا الغرض . وعلى الرغم من أن مراکش كانت هي عاصمة المغرب والصحراء والأندلس ، فإن الإشعاع الحضاري ، سواء المادي أو الفكري والفني ، كان دائماً مصدره الأندلس ، لأنها كانت متقدمة جداً، ولأنها كانت تمثل بحق، الجانب الحصب اليانع في حقل الحضارة، بينما كان المغرب يمثل الجانب القاحل . ذلك لأن المرابطين عندما دخلوا إلى المغرب قادمين من الصحراء ، لم يكن لديهم إلا نتفاً من بقايا الفن البربري . فلما دخلوا الأندلس ، ورأوا ما بها من حضارة وفخامة وجمال وفن ، مشخصة في أنواع المباني وأشكال الصناعات والملبوسات ، أخذوا في الاقتباس من ذلك كله . وظل المغرب يتمتع بالفن الأندلسي وحده

زهراء قرن كامل ، قبل أن ينتقل إلى أقطار الشمال الإفريقي .

وقد كان للهجرات الأندلسية المتوالية أثر فعال في تنسيق الفن المغربي الجديد ، وتلطيف حواشيه . كما ازدهر على الخصوص وتبلور في قالبه المغربي على عهد الموحدين .

الحياة الفكرية في المغرب والأندلس على عهد الموحدين

آلت الدولة المرابطية إلى السقوط بسبب ضعفها . وتمت نهايتها على يد عبد المؤمن سنة 541 هـ . وبالرغم من ذهاب سلطان المرابطين العظيم بسرعة خاطفة ، إلا أن الناس لم يشعروا بضياغ شيء، لأن حركة التقدم الفكري والإصلاح المادي ظلت مستمرة . وفي العهد الموحي ظهرت نتائج تلك الحركة واضحة المعالم صافية الأديم . وازدهرت الحياة الثقافية ازدهاراً عظيماً، فأصبح لعلوم الفلسفة والطب والرياضيات والتنجيم وغيرها الحظ الأوفر ، إلى جانب علوم الشريعة التي اعتمد فيها على الأخذ عن الكتاب والسنة . فتجدد الاجتهاد، الذي كان الفقهاء المتزمتون - في العهد المرابطي - يقفون حجر عثرة في طريقه .

وفي عهد الموحدين ظهرت شخصية المغرب في عالم الفكر والفن ظهوراً واضحاً . وقد ساعد على إذكاء جذوة الحركة الثقافية ظروف خاصة ، منها : حياة الاستقرار ، وانتشار الرخاء ، وتوفر الدولة على القوة ، سواء في الناحية العسكرية أو السياسية، وعلى مالية ضخمة تمكنت بواسطتها من تأسيس كثير من دور العلم المختلفة ، وتشجيع العلماء والطلاب مالياً وأدبياً ، على أداء رسالتهم السامية . ثم هناك العامل الحضاري الذي وسع

من مدارك الناس ، حتى أصبحوا يستسيغون مفاهيم الفلسفة والرياضيات والطب ، ومواطن الإجابة في الأدب والشعر .

ونستطيع أن نشبه التطور الحضاري الذي أصاب المغرب على عهدي المرابطين والموحدين ، بنفس التطور الذي حصل في عهدي الأمويين والعباسيين بالشرق. فنحن بالملاحظة نجد أن عهدي المرابطين والأمويين يتسمان بالفطرة والبداوة إلى حد بعيد ، لأن المرابطين والأمويين كانوا حديثي العهد ببلادهم . فقد انتقل المرابطون من الصحراء فجأة وأسسوا دولتهم في المغرب ، وتسلم الأمويون الحكم والسلطان بوسائلهم المعروفة ، ولكن دولتهم أسست على الفطرة والعصية ، لأنهم أيضاً كانوا حديثي العهد بالانتقال من حياة البداوة .

ولكن الموحدين الذين أعقبوا المرابطين في المغرب ، والعباسيين الذين أتوا بعد الأمويين في المشرق ، ظهر عهدهم بمبسم جديد وهو ذلك التطور الهائل الذي شمل جميع مرافق الحياة، لأن الأسس الحضارية كانت قد تركزت وآتت أكلها . وهكذا انتشرت المدارس العلمية في المغرب على غرار المدارس الأندلسية، ورحب الخلفاء الموحدون برجال العلم والأدب، الوافدين عليهم من المشرق والأندلس ، وأغرقوهم بالعطايا والهبات ، تشجيعاً لهم في مهمتهم السامية . وحصل مثل هذا أيضاً في عهد العباسيين بالشرق مع بعض الفوارق .

وأكبر دليل على ازدهار الحركة الثقافية في العهد الموحد هو ظهور كثير من العلماء ، وعدد ضخم من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون . وقد اهتم الموحدون بالترجمة ونقل الكتب فلم يمض وقت طويل حتى برز النبوغ المغربي في الحقل الثقافي ، في سائر العلوم والفنون التي كانت

معروفة آنذاك ، وُجِدت - كما قلنا - طوائف من العلماء والأدباء المغاربة ، وهكذا تبلور اتصالنا المستمر بالأندلس إلى حياة مغربية صميّة راقية جداً ، وأصبح ذلك التقدم الفكري يمثّل بحق عصرنا الزاهر أو عصرنا الذهبي .

بعض علماء المغرب والاندلس في العهد الموحدى

من العلماء الذين ظهوروا سواء في المغرب أو الأندلس على عهد الموحدين. وفي اللغة والنحو ، أبو القاسم البصري ، محمد السبتي ، عبدالله الأوفري ، وغيرهم . وكان أبو موسى الجزولي حجة في النحو ، وهو الذي أسس أول مدرسة للدراسة النحوية في المغرب .

وفي الأدب والشعر ، أمثال : محمد بن حسين بن جبو الفاسي ، وعبدالله بن محمد بن عين التادلي ، وأحمد بن جعفر بن عطية ، وأبي عقيل وغيرهم .

وفي العلوم الإسلامية : أمثال أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المرادي الفاسي ، وأبي العباس أحمد بن تومرت الفاسي ، وأبي الحسن علي بن أحمد المراكشي ، وأبي الخطاب بن دحية السبتي ، والقاضي عياض ، وإسحق بن إبراهيم الغماري السعدي ، وعبدالله بن محمد التادلي . وكان المذهب الشائع بين الناس هو المذهب المالكي .

وفي التاريخ ، أمثال : أبي بكر اليبدي ، وابن رشيق ، وابن القبطان ، أحمد اللخمي ، عبد الواحد المراكشي وسواهم .

وفي الجغرافيا ، أمثال الشريف الإدريسي الذي ترجمت كتبه إلى جميع اللغات الأجنبية . وكان لمعلوماته الجغرافية الفضل الأكبر على النهضة الأوروبية .

وفي الفلسفة ، أمثال : ابن رشد ، وابن طفيل ، وأضرابهما . وقد ترجمت كتب فلاسفة المغرب والأندلس إلى سائر اللغات وأصبحت تدرس في جامعات العالم .

وفي الطب والكيمياء ، أمثال : أبي الحسن علي بن يقظان ، وأبي الحسن علي بن موسى بن النقراط، وأبي بكر يحيى بن محمد السلاوي ، وسعيد الغفاري ، وغيرهم .

وفي الهندسة والرياضيات والفلك ، أمثال : أبي علي حسن ، وابن علي المراكشي ، والتبراجي المراكشي، وعبد المنعم بن محمد المراكشي ، وأبي العباس السبي ، والحاج يعيش الأحوص ، وأبي بكر محمد بن يوسف، والليثي السبي ، وسواهم . وقد ألّف معظم هؤلاء كتباً عدة في علومهم وفنونهم المختلفة . وبالرغم من أن آلافاً منها ضاعت فإن ما بقي سائلاً ، وما احتفظت به كتب الشرق والغرب يعطينا أسطح دليل على عظمة الحضارة في العهد الموحدى الزاهر .

الحياة الفنية في المغرب والأندلس على عهد الموحدين

اتخذ الفن المعماري في المغرب في العهد الموحدى شكله النهائي . وأصبح له من الروعة والإبداع ، ما هو عليه في الأندلس نفسها ،

خصوصاً في أيام عبد المؤمن ، الذي جلب إلى المغرب طائفة من كبار الصناع الحاذقين والمهندسين البارعين من الأندلس ، . فبنوا به مساجد وسقايات وقناطر، بلغت من الإتقان الهندسي، وروعة الفن حد الإعجاب . ومن المغرب انتقل الفن الأندلسي إلى تونس على يد الحفصيين، حکامها . وظهر التفوق الفني في العمارة أيام يوسف ، الذي عاش في إشبيلية وتشبع بالثقافة الأندلسية ، حتى أصبح يخص إشبيلية بالحلب أكثر من مراكش عاصمته . ولما جاء ابنه يعقوب المنصور ، لم يأل جهداً في العناية بالعمارة ، وإظهارها بمظهر الجلال والإبداع . وكانت إشبيلية والرباط ومراكش مواطن تركيزه الفني الممتاز . ومن آثاره الفنية العظيمة الباقية تلك المنارات الثلاث . أولاها منارة جامع إشبيلية (لِخَرْئِدَة) وثانيها منارة حسان بالرباط ، وثالثها منارة الكتبية بمراكش .

وكانت عناية الموحدين تتناول المغرب والأندلس على السواء، باعتبارهما لديهم وطناً إسلامياً واحداً . وقد شبه بعض المؤرخين مراكش في أيامهم ببغداد ، وفاس بدمشق ، لما احتوته المدينتان الشهيرتان من قصور فخمة ، وحدائق غناء ، ومساجد جميلة ، ومستشفيات ومدارس غاية في الإتقان ، وبنائات عمومية أخرى ، كالحمامات والسقايات والأسواق والطرق ، التي نالت حظها الوافر من العناية والجمال . وقد كان للصناع والمهندسين الأندلسيين ، الذين استقدموا إلى المغرب في مناسبات متعددة أعظم الفضل في نشر الحضارة الأندلسية الزاهرة في الربوع المغربية ، بل إن فضلهم تعدى إلى أقطار الشمال الإفريقي كله وغيرها .

ومما يؤسف له أن معظم مآثر المرابطين والموحدين اندثرت ، ولم يبق منها إلا أطلال ، ولكنها أطلال ناطقة بما بلغه الفن والعظمة في عهدهم الغابر .

ولم يكن الفن مثلاً في الناحية المعمارية فقط . فقد كان أيضاً يشمل أنواع الملابس ، وأشكال الصنائع . فكان للتطريز الأندلسي والنقش والتكفيت روعته ، وأثره الفعال في تطوير المغرب من الناحية الفنية . ومظاهر الحضارة الأندلسية في هذا الميدان ما زالت واضحة في المغرب ، خصوصاً في تطوان وفاس وسلا . فكثير من العادات وأثاث البيوت وأنواع الملابس وأساليب الفلاحة وأشكال الصناعة، ذات طابع أندلسي ، تبلور في قالب مغربي .

2 - اتصال الفكر المغربي والفكر الأندلسي :

ما رأيك في أمتين عاشتا متحدثتين اتحاداً سياسياً ما يقرب من ثلاثة قرون ؟ لا شك أنك تحكم في الحال ، أنهما احتكتا ببعضهما احتكاكاً قوياً ، وتبادلنا المنافع بصورة واسعة، بل إنك ربما حكمت أنهما انصهرتا انصهاراً تاماً ، إذا علمت أن الأمتين هما : الأندلس والمغرب ، وذلك لاعتبارات أخرى غير الزمان . فدين الأمتين هو الإسلام، وأصل المغاربة أو معظمهم وأكثر سكان الأندلس المسلمين عرب ، فلم يشعر مسلمو الأندلس أيام حكم المرابطين والموحدين لهم بتلك الوحشة والنفور اللذين تشعر بهما - عادة - أمة كتب عليها أن تخضع لأجنبي ، لا تربطها به رابطة الدم واللغة والدين .

إن ما حصل من تمازج بين الفكر المغربي والفكر الأندلسي في عهد الموحدين - على الخصوص - بسبب ما ذكرنا آنفاً ، وبسبب كثرة الوافدين من علماء الأندلس وأدبائها وشعرائها الفطاحل على المغرب ، ونشرهم لأنواع الثقافة بين المغاربة ، ثم انتقال طوائف من علماء المغرب.

وأدبائه بدورهم إلى الأندلس ، وقيامهم بنفس الدور العظيم - إن ما حصل من ذلك - ليدعو إلى الدهشة والإعجاب، ويتعذر معه اعتبار الفضل في تكوين هذا العالم الأندلسي إلى الثقافة الأندلسية الخالصة ، أو اعتبار الفضل في تكوين هذا العالم المغربي إلى الثقافة المغربية المحض . وإذا كان هناك تمييز في هذا المضمار فهو في عهد المرابطين لا الموحدين .

وقد استمر هذا التمازج بين البلدين الشقيقين كما تعزز بكثرة الحجرات الأندلسية المتوالية ، خصوصاً في القرن السابع الهجري، الذي شهد سقوط معظم المدن الأندلسية في أيدي الإسبان .

● نقاط التلخيص ●

- كانت الدولة المرابطية تمثل المبدأ الأسمى للحكم الإسلامي ، وكان العامل الديني هو المحرك لها في كل شيء تقريباً .
- كان الاتصال بين المغاربة والأندلسيين محدوداً في الناحية الفكرية والفنية على عهد المرابطين ، لأسباب أهمها : بدانة المرابطين .
- اعتنى المرابطون بتقليد الجانب المادي من حضارة الأندلس أكثر من غيره ، فبنوا المساجد والقصور ، إلى جانب الحصون والقلاع ذات الطابع البربري .
- يقال إن الاحتكاك كان قوياً جداً في العهد الموحي بين الأندلسيين والمغاربة ، حتى تعذر معه رد الأشياء إلى أصولها ، خصوصاً في الناحية الفكرية والفنية .
- كان من الأسباب التي قوت تمازجنا بالأندلسيين اتحادنا معهم في الدين واللغة والدم المشترك إلى جانب عامل الزمان .

أسئلة

- 1 - ما الدعوة التي قامت على أساسها الدولة المرابطية ؟ لم قضى يوسف على ملوك الطوائف وضم الأندلس إلى ملكه ؟
- 2 - حدد مدى الاحتكاك بين المغاربة والأندلسيين على عهد المرابطين خصوصاً في الناحية الثقافية والفنية ؟ اذكر شواهد على ذلك ؟
- 3 - ما مبلغ الاتصال المغربي الأندلسي في العهد الموحي ، في ناحيتي الثقافة والفن ؟
- 4 - لم كان التمازج في العهد الموحي أقوى منه في العهد المرابطي ، حتى قيل أنه كان من الصعب رد الأصل إلى مصدره ؟ علل الأسباب .

عهد بني مرين بتو حفص في تونس - بنو عبد الواد في الجزائر



عهد بني مرين (668 - 961 هـ)

يتبع بنو مرين إلى قبيلة زناتة البربرية العظيمة ، فهم كالمغراويين واليفرنيين وغيرهم من القبائل المتمية إلى زناتة . وكان موطنهم الأول هو الصحراء فيما بين الزّآب وسجلماسة ، أي بين بسكرة بالقطر الجزائري الشقيق ، وبين تافيلالت بمغربنا . وكانوا يعيشون أحراراً لم يدينوا بالطاعة لملك من الملوك ، وكانت طوائف منهم ترتاد تخوم المغرب في فصلي الربيع ، والصيف ، لانتجاع المراعي الحصبة . ولقد كانوا ينتقلون بأولادهم ودوابهم ، حتى إذا ما حل فصل الشتاء عادوا إلى بلادهم .. وهكذا كانت حياتهم .

وقد استعان المنصور الموحي بطوائف منهم في حروبه ، في الأندلس ،

وبالأخص في غزوة الأراك ، التي أبلى فيها المرينيون البلاء الحسن ، فكان لهم اليد الطولى والقدح المعلى في تحقيق النصر المبين على الأعداء .

ثم حلت الهزيمة النكراء بالموحدين أيام ضعفهم بالأندلس في الواقعة المشهورة بغزوة العقاب سنة 609هـ ، وخصوصاً بعد أن تفشى عقب تلك الغزوة ذلك الوباء الخطير الذي قضى على حياة ألوف الناس .

وفي سنة 610هـ دخل بنو مرين إلى المغرب كعادتهم بقيادة أميرهم يومئذ، عبد الحق ، فوجدوا الأرض التي اعتادوا ارتيادها خالية من السكان وأغنامهم ، على الرغم من جودة المريع وطيب التربة ، ووفرة المياه . فاستطابوا العيش فيها بصفة مستديمة ، ومن هناك بدأوا يشنون الغارات على أهالي المغرب ، فرفع الناس بهم شكاتهم إلى الخليفة الموحدي بمراكش يوسف . فجهز هذا جيشاً قوياً وأمره بمحاربة المرينيين . ولكنه انهزم . وفي اشتباك المرينيين الثاني مع الموحدين سقط في المعركة أميرهم عبد الحق ، وولده الأكبر إدريس . فقام بأمرهم بعد ذلك أبو سعيد عثمان بن عبد الحق . ولما مات هذا بطعن سنة 638هـ تولى شؤونهم أبو معروف محمد ، أخو المتوفى . فلما قتل هذا في إحدى المعارك مع الموحدين سنة 642هـ ، قام بإدارة أمرهم أبو بكر أخو الأمير المتوفى في السنة نفسها .

وكان أبو بكر هذا خاضعاً في الواقع لبني حفص ، أصحاب إفريقية ، ولما استولى على مكناسة، جهز السعيد علي بن المأمون ، الخليفة الموحدي، جيشاً جراراً ، وتوجه به لمحاربة المرينيين . غير أن أبا بكر أمير بني مرين ، لما رأى أنه لا قبل لجيشه بمواجهة جحافل الموحدين ، أخلى مكناسة، وأسرع في التوجه مع قومه إلى الريف بشمال المغرب، حيث تحصنوا

هناك . ثم بعث أبو بكر الى الخليفة الموحدى يعلن له طاعة بني مرين وولاءهم ، فقبل الموحدون منهم ذلك وتركوهم وشأنهم ، شبه مستقلين . ويعتبر الأمير أبو بكر أول مؤسس لدولة بني مرين ، كما كان أول من نادى بنفسه ملكاً على المغرب منهم .

وثار الموحدون في مراكش على السعيد خليفتهم ، فطلب من ملك قشتالة أن يساعده على إخماد الثورة وإرجاع المدينة . فاشترط عليه الملك الإسباني أن يتنازل له عن عشرة حصون أندلسية ، فأجاب الموحدى طلبه ، فجاءته عشرة آلاف من جنود قشتالة ، بناء على الاتفاق . فحارب بها قومه الموحدين ، وتمكن من دخول مراكش ، فقتل بها ما يقدر بأربعة آلاف شيخ من شيوخهم . ولكن رغم ذلك فإن الثورات ظلت محتدمة في كل مكان ضده ، ولم يوفق في التغلب عليها أبداً .

ثم عزم الخليفة السعيد على محاربة يغمراسن بن زيان بتلمسان . فأمدّه الأمير المريني أبو بكر بخمسمائة جندي من رجاله . ولكن الحرب انتهت بقتل الخليفة ، وانهزام جيوشه شر انهزام ، وذلك سنة 629 هـ . وهكذا ظلت إفريقية والمغرب الأوسط بأيدي الحفصيين ، أصحاب تونس . أما الأندلس فكانت الثورات الأهلية بها لا يحمد لها أوار . بينما كان المسيحيون ينقضون على أراضي المسلمين ، ويستولون على مدنهم وقراهم ، حتى لم يبق في أيديهم في نهاية الأمر سوى إمارة غرناطة وضواحيها .

ولما عادت النجدة المرينية من الحرب الخاسرة ، وعلم أبو بكر بما وقع للموحدين ، قوي أمله من جديد في بسط سلطانه على المغرب . وهكذا شمر عن ساق الجدد ، وحارب الموحدين الضعاف . فكان دائماً ينتصر عليهم . وفي سنة 656 هـ توفي الأمير أبو بكر من أثر مرض ألمّ

به ، فخلفه على الملك ابنه أبو حفص عمر . وكان لهذا عمّ هو يعقوب ابن عبد الحق ، فحصلت نفرة بينه وبين عمه ، ثم اصطلحا على أن يحتفظ العم ببلاد تازا ونواحيها ، التي كان أخوه أبو بكر قد أقطعه إياها في حياته . وهكذا صار أبو حفص عمر ملكاً على بني مرين في المغرب ، عدا منطقة تازا وضواحيها ، التي بقيت بيد عمه يعقوب .

يعقوب المنصور وأعماله العظيمة

وبعد ذلك اجتمع شيوخ بني مرين وقوادهم عليه يعقوب ، وشجعوه على المطالبة بالملك . فحارب ابن أخيه عمر وهزمه . فاضطر المهزوم أن يتنازل لعمه عن ملك المغرب ، على أن يحتفظ بمكناسة ونواحيها . ولكنه لم يمكث بها أياماً حتى اغتاله أحد أقربائه . وهكذا خلا الجو ليعقوب ، وأصبح هو الملك المطاع لبني مرين . وقد تصدى لمحاربة الموحدين من أول وهلة ، فألحق بهم الهزائم المتوالية ، واستولى على معظم المغرب . وفي سنة 668 هـ استطاع أن يستولي على مراكش عاصمة الموحدين ، ويقضي على ملكهم نهائياً ، بعد أن دام الصراع بينهم وبين المرينيين زهاء ست وخمسين سنة .

وكان يعقوب عالماً ، كفوّاً في الحرب والسياسة . وهو السدي بنى مدينة فاس الجديدة سنة 674 هـ واتخذها عاصمة لدولته . ومن أعماله الخالدة أنه أسس بالمغرب كثيراً من المدارس العلمية ، والمستشفيات ، لإيواء المرضى والعجزة ، وأجرى عليهم النفقات .

أما أعماله الحربية خارج المغرب ، فإنه انتقل إلى الأندلس برسم

الجهاد أربع مرات ، تلبية لاستصراخ الأندلسيين إيا ، وقد حقق النصر على الإسبان في جميع حروبه هناك . وكان من شروطه التي اشترطها على النصاري المغلوبين في الأندلس ، أن يعيدوا إليه كتب المسلمين التي كانوا قد استولوا عليها ، فجاءته منها أحمال كثيرة ، تحتوي على كتب القرآن والتفسير والفقه واللغة ، فأخذها وفرقها على طلاب العلم في فاس .

وبما برهن على عظمة هذا الملك وقوته ايضاً ، أن الفونس العاشر المسمى بالحكيم ، طلب منه أن يعينه على ابنه الخارج عليه سانجة ، فلبى طلبه . وحقق الملك الإسبان رغبته ، ثم رجا الفونس من ملك المغرب المنصور أن يسلفه قدرأ من المال ليصلح به أحوال مملكته ، فأمدّه يعقوب بمال قدره مائة ألف دينار ، ودفع له الفونس تاجه الموروث كرهينة مقابل ذلك .

وفاة المنصور وتولية خلفه من بعده

وفي سنة 686 هـ توفي يعقوب المنصور العظيم إثر مرض ، وكان موته في قصره بالجزيرة الخضراء ، ثم حل إلى المغرب ، ودفن بمسجد شالة . وقد تولى الملك بعده ابنه يوسف ، ومن أعماله أنه جعل المولد النبوي عيداً رسمياً في المغرب . وجرت له حروب في الأندلس ضد النصاري انتصر فيها ، ثم انهزم في معركة بحرية ، وانتصر في أخرى ، وتمكن من الاستيلاء على بوغاز جبل طارق . وكاد ينتصر في حروبه ضد عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان ولكنه قتل غدرأ على يد أحد عبيده سنة 706 هـ . وهكذا نجت تلمسان من السقوط في يد بني مرين .

وبعد يوسف تولى أمر البلاد حفيده عامر بن عبدالله . ومن أعمال هذا انه عقد صلحاً مع أصحاب تلمسان من بني زيان، لينصرف إلى سبتة، التي كان ابن الأحمر قد استولى عليها . وفي سنة 708 هـ بنى مدينة تطوان لتكون مقراً لجيوشه التي تحارب سبتة . واستقر هو في طنجة إلى أن مات فيها في نفس السنة المتقدمة .

وبعد هذا تولى أخوه المسمى سليمان ، ويمتاز عصره برغد العيش ، واستتباب الأمن ، وبناء الدور والقصور . فلما توفي سنة 710 هـ ، تولى بعده عثمان بن يعقوب . ومن أعماله أنه أنشأ الأساطيل البحرية . وفي أيامه تقدم بطرس الأول ، ملك قشتالة للقضاء على ملك بني الأحمر في غرناطة ، فحاصر المدينة ، ولم يستطع الملك المريني أن ينجس إخوانه الأندلسيين لاشتغاله بالحرب مع بني زيان أصحاب تلمسان. ولكن رجال حامية المجاهدين من بني مرين، المستقرين في الأندلس كفوه مؤونة ذلك ، إذ تقدموا نحو العدو وانتصروا عليه ، رغم قتلهم . وفي سنة 731 هـ توفي الملك عثمان ، فخلفه ابنه أبو الحسن .

أبو الحسن المريني وأعماله

تولى ملك بني مرين بعد وفاة عثمان ابنه أبو الحسن المشهور بالسلطان الأكحل لسمره لونه . ومن صفاته أنه كان شجاعاً عالماً ورعاً . ومن أعماله في المغرب أنه بنى كثيراً من مدارس العلم، وخصص لها الجرايات . وما زالت آثاره العمرانية ماثلة إلى يومنا هذا . وقد قضى عمره كله في الجهاد سعيًا وراء توحيد الشمال الإفريقي ، كما كان على عهد الموحدين،

ودفاعاً عن دويلة بني الأحمر في الأندلس . وفعلاً تمكن من الاستيلاء على المغرب الأوسط والمغرب الأدنى ، ووحدهما مع المغرب . كما تمكن من إحراز النصر على النصارى في معركة بحرية جرت بين أساطيله وأساطيلهم في البوغاز .

ثم اتحد القشتاليون والبرتغاليون واشتبكوا مع أبي الحسن في معركة بحرية ، فم لهم النصر على الملك المريني ، وذلك سنة 741 هـ . ثم جرت معركة بحرية هائلة أخرى بين أساطيل أبي الحسن وأساطيل الإسبان والإيطاليين فكتب لهم النصر العظيم عليه أيضاً . وعقب ذلك اشتدت مضايقة القشتاليين لسكان الجزيرة الخضراء ، فطلبوا الأمان على أساس أن يرحلوا عن المدينة . فلبى ملك الإسبان عرضهم ، وساعدهم على الجواز إلى عدوة المغرب ، وذلك سنة 743 هـ . وبانهزام أبي الحسن ذلك الانهزام الشنيع ، واستيلاء العدو على الجزيرة الخضراء ، ثم على قلعة بني سعيد التي هي ثغر غرناطة ، أصبحت إمارة بني الأحمر محاصرة بالنصارى ومهددة بالسقوط في أيديهم .

نهاية أبي الحسن وتولية أبي عنان

بعد ذلك توجه أبو الحسن إلى تونس لإخاد ما بها من ثورات . وقبل أن يسافر ترك ابنه أبا عنان نائباً عنه في تلمسان . ولكن أبا الحسن لم يوفق في حركته الحربية ضد التونسيين . وسمع ابنه بذلك فترك تلمسان وتوجه إلى المغرب ، خوفاً من أن تقوم به ثورات ضد المرينيين أيضاً . وما أن خرج من تلمسان حتى قامت بها ثورة ضد الملك المريني . وعاد

الناس من جديد إلى طاعة بني زيان .

وفي المغرب أعلن أبو عنان نفسه ملكاً عليه خلفاً لأبيه ، وذلك إثر إشاعة مضمونها : أن والده قد مات في معركة بتونس . وسمع أبو الحسن بذلك ، فركب البحر مع رجاله في عدد من سفنه ، تقدر بنحو 600 قطعة . ولكن الأسطول غرق بما فيه ، ونجا هو بأعجوبة ، على خشبة ، وتمكن من الوصول إلى أرض الجزائر الشقيقة . وهناك اجتمع حوله كثير من الأعراب ، فحارب بهم بني زيان أصحاب تامسان . ولكنه أصيب بالهزيمة . ثم انتقل إلى المغرب ، فلم يرض ابنه أبو عنان أن يتخلى له عن العرش ، وحارب أباه . وفي سنة 752 هـ توفي أبو الحسن فصفا الجو لابنه . وهكذا انتهت حياة هذا البطل الفذ ، الذي كان شغوفاً بالعلم ، مجاهداً في سبيل وحدة المغرب العربي وحماية بقايا مسلمي الأندلس . ويقال إن حوالي 400 عالم كانوا معه في أسطوله غرقوا كلهم في البحر . وهذا يدل على تقدم العلم ووفرة العلماء في عهده .

ومن آثاره الباقية مدرسة طالعة سلا ، ومدرسة مراکش ، التي اشتهرت بمدرسة ابن يوسف ، ومدرسة مكتاس التي صرف من أجل بنائها أموالاً عظيمة جداً . وكانت لهذا الملك العظيم صلوات صداقة وأخوة مع ملوك الشرق ، خصوصاً مع ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون ، الذي أهده هدايا مغربية عظيمة جداً .

أعمال أبي عنان

ومن آثار أبي عنان الباقية إلى يومنا : المدرسة البوعنانية بفاس ، التي

تعتبر من أجمل مدارس بني مرين فناً وجالاً . وقد جعل يباب المدرسة ساعة عجيبة ذات أجراس كثيرة . وما زالت بقاياها ماثلة للعيان ، إذ كان هذا الملك مولعاً ولعاً شديداً بالعلم وبمؤسساته ، وكان يمتلك خزانة عظيمة من الكتب ، ولم يكن يرضن بها على أحد من الراغبين في الاطلاع عليها . وفرق كثيراً منها على الطلاب ، الذين خصص لهم نفقات دائمة .

ومن أعماله الحربية أنه حارب بني زيان واستعاد المغرب الأوسط ، كما أنه تقدم في المغرب الأدنى ، ولكن بجزر ، خوفاً من أن يقع فيما وقع فيه والده هناك . وهكذا سعى أبو عنان إلى استرجاع وحدة الشمال الإفريقي ، تحقيقاً للأمنية الغالية التي عمل من أجلها معظم ملوك المغرب .

وفاته ومآل دولة بني مرين

ولما أصيب أبو عنان بمرض ، دخل عليه وزيره الخائن الحسن بن عمر الغودودي ، متظاهراً أنه جاء لزيارته ، فلما اختلى بالملك المريض قتله خنقاً ، وذلك سنة 759 هـ .

وبموت هذا الملك انتهت عظمة بني مرين ، وتلاشت أمبراطوريتهم وتمزقت وحدتهم ، إذ بعد ذلك طغى نفوذ الوزراء ، واستبدوا بالملوك المرينيين الضعاف ، الذين تعاقبوا في أيامهم ، فعجلوا بسقوط دولتهم ، وآل الأمر في النهاية إلى الوطاسيين أبناء عمومتهم .

بنو حفص في تونس

بنو حفص أصحاب المغرب الأدنى ، هم فرع من المصامدة ، الذين ينتمي إليهم عبد المؤمن الخليفة الموحي ، وكانت هذه الدولة الحفصية تابعة للموحدين . وعندما مالوا إلى الضعف ، طمع بنو حفص في السيطرة على المغرب ، باعتبارهم أحق الناس ، من ناحية قرابتهم بالخليفة . وكان أميرهم آنذاك هو أبو زكريا يحيى الهنتاني ، وسرعان ما أعلن هذا نفسه أميراً للمؤمنين ، خلفاً للموحدين ، وذلك سنة 624 هـ .

وعندما ظهر بنو مرين على مسرح السياسة وظفروا بملك المغرب ، كانوا يدعون لأبي زكريا الحفصي ، سياسة منهم ، فكان الحفصيون مقابل ذلك يمدونهم بالمساعدات المالية والأدوية . وظلت الحالة على ما هي عليه ، حتى تولى ملك المغرب يعقوب المنصور ، فقطع نهائياً دعوة بني حفص . ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع السياسي والحربي بين دولة بني مرين ودولة بني حفص ، ولكن الغلبة والظهور كانا دائماً لبني مرين ، خصوصاً في عهدي أبي الحسن المريني وولده أبي عنان .

بنو عبد الواد في الجزائر

بنو زيان أصحاب الجزائر هم المعروفون ببني عبد الواد . وكانت هذه الدولة تدين بالطاعة إلى بني حفص ، أصحاب تونس . وكان كل من بني عبد الواد وبني مرين ، يسعى للقضاء على الآخر والسيطرة على الشمال الإفريقي ، إلا أن بني عبد الواد كانوا يعملون لحساب دولة

بني حفص . وكانت الغلبة في هذا الصراع دائماً للمرينيين . ففي أيام يعقوب تقدمت الجيوش المرينية إلى بني عبد الواد ، فتغلبت عليهم ، واستولت على عاصمتهم تلمسان ، ولكن دولتهم سرعان ما عادت إلى الظهور .

وفي أيام أبي الحسن المريني تقدمت جيوش بني مرين إلى تلمسان، ففرضوا على دولتها ، كما فرضوا على دولة بني حفص . وبذلك تحققت وحدة الشمال الإفريقي على يد بني مرين . ولكن الجزائر وتونس ثارتا على بني مرين ، وأعادتا كل منهما دولتها . وفي عهد أبي عنان بن أبي الحسن توجهت الجيوش المرينية إلى إخضاع بني عبد الواد وبني حفص ، فنجحت في مهمتها . ولكن الدولتين عادتا إلى الظهور من جديد ، بعد أن دب الضعف في صفوف بني مرين .

● نقاط التلخيص ●

- بنو مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة العظيمة . وانتقلوا من الصحراء موطنهم الأول إلى المغرب وسكنوه بصفة مستديمة بعد واقعة العقاب ، التي اندحر فيها الموحدون بالأندلس .
- كان الموحدون يعتمدون قبل ذلك على مساعدة المرينيين في حروبهم ضد نصارى الأندلس ، مما كان له بعض الفضل فيما أحرزوه من انتصارات على أعدائهم هناك .
- تمت نهاية الموحدين على يد يعقوب المنصور السلطان المريني سنة 668 هـ ، الذي انتقل إلى الأندلس أربع مرات للدفاع عن مسلمي الأندلس . وانتصر على النصارى في جميع حروبه ، حتى اضطروهم إلى طلب المهادنة ، واشترط عليهم شروطاً في صالح المسلمين فتفقدوها .
- على يد السلطان المريني أبي الحسن تحققت وحدة الشمال الإفريقي من جديد ، كما حارب النصارى دفاعاً عن مسلمي الأندلس . وبعد موته صفا الجو لابنه أبي عنان فسار هذا على سيرة أبيه في تحقيق الأعمال العظيمة ، وبموته تلاشت وحدة الشمال الإفريقي مرة أخرى . واشتد خطر المسيحيين على مسلمي الأندلس ، نتيجة لضعفهم .
- كان بنو حفص - حكام تونس - وبنو عبد الواد - حكام الجزائر - ينازعون المغرب من أجل تحقيق وحدة الشمال الإفريقي ، ولكن الغلبة كانت دائماً للملك المغرب المرينيين .

أسئلة

- 1 - ما موطن بني مرين الاصيلي ؟ كيف استقروا في المغرب ؟ في أي سنة ؟
- 2 - كيف تولى يعقوب المنصور ملك بلاد المغرب ؟ أذكر أعماله العظيمة في الناحية المدنية والحربية .
- 3 - ما أعظم عمل سياسي حققه أبو الحسن المريني في الشمال الإفريقي ؟ ما رأيك في ذلك ؟ كيف انتهت أيام أبي الحسن ؟
- 4 - كيف تولى أبو عنان ملك بني مرين ؟ أذكر أهم أعماله في المغرب والاندلس .
- 5 - ما علاقة بني مرين ببني حفص وبني عبد الواد ؟ على أي شيء كان تنافس هذه الدول الشقيقة ؟ ما رأيك في ذلك ؟

بنو الأحمر في غرناطة سقوط مملكتهم ونهاية دولة الإسلام بالأندلس



بنو الأحمر في غرناطة

بعد أن مني الموحدون بتلك الهزيمة النكراء في وقعة العقاب ، عاد الأندلسيون من جديد إلى فرقتهم وتناحرهم من أجل الملك والسيادة ، وعملوا متحدين على التخلص من حكم الموحدين ، بل وحاربوهم ، ونكلوا بشيوخهم وقادتهم وأنصارهم ، وهكذا عادت الأندلس إلى ما يشبه العهد الطائفي . ولكن في هذه المرة لم يكن العدو الإسباني مشغولاً بالحروب الداخلية كما كان من قبل ، بل كان متحد الكلمة ، قوي الشكيمة ، ثابت العزيمة على محاربة المسلمين ، والقضاء عليهم ، وتطهير إسبانيا من آثارهم .

وفي الوقت الذي كان العدو المسلم يبعث في أرضهم فساداً ، ويستولي

في كل يوم على عدد من حصونهم ومدنهم ، كانت الفتنة شديدة بينهم ، ولم يحسوا باستفحال الخطر عليهم إلا بعد سقوط قرطبة وإشبيلية ، قاعدتي الأندلس المسلمة . وكان يترعم هذه الفتنة في الأندلس رجلان هما : محمد بن يوسف بن هود الجُدّامي ، ونصر المعروف بالشيخ ابن الأحمر ، الذي قام ينازع ابن هود على رئاسة الأندلس الجريح . وكان كل من هذين الرجلين - خصوصاً ابن الأحمر - يستنجد بالعدو ليظهره على منافسه .

وهكذا تمكن ابن الأحمر في نهاية الأمر من القضاء على ابن هود ، وما أن صفا له الجو في الأندلس ، حتى بادر بمصالحة ملك الإشبانية ، على أساس ان يتنازل له عن أراضي الأندلس التي سقطت في يده ، والتي لم تسقط بعد ، وانتقل هو بفلول المسلمين وحطامهم إلى مدينة غرناطة وضواحيها ، الممتدة إلى البحر ، وكونَ له بها دولة بني الأحمر . وفي غرناطة ابنتى لنفسه قصرًا فخماً لسكناه ، وهذا القصر هو المعروف بالحمراء ، ثم عهد بأمر الدولة إلى ابنه محمد ، المعروف بالفقيه لطلبه العلم ، وأوصاه أن يطلب النجدة من بني مرين ، كلما ضيق الإشبانية الخناق عليه .

استنجد بني الأحمر ببني مرين

وما أن بدأ العدو يشن هجائته الشديدة على أطراف مملكته ، حتى بادر إلى طلب النجدة من بني مرين ، عملاً بوصية والده ، وهكذا حضر وفده إلى يعقوب المنصور ، ورغبه في الجواز إلى الأندلس من

أجل إنقاذ المسلمين هناك مما هم فيه من ضيق وحرَج . ولم يتوانَ الملك المغربي لحظة ، إذ استعد في الحال استعداداً عظيماً ، برأً وبحراً ، وأمر ابنه أبا زيان بالتوجه إلى عدوة الأندلس على رأس الجيوش المرينية والأساطيل البحرية ، فتزل بنو مرين بطريف سنة 673 هـ ، ثم اشتبكوا مع العدو الإسباني في معارك دموية ، تم للمرينيين فيها النصر المبين على عدوهم ، فأثخنوا في جنوده وغنموا سلاحه وأمواله ، وخربوا دياره ، ثم قفلوا راجعين بقيادة بطلهم أبي زيان بن يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء .

أما الأسبان فإنهم لم يدعنوا للسلم ، على الرغم مما أصابهم من انكسار شنيع وخيبة أمل . فما أن رجعوا إلى ديارهم حتى شرعوا في الاستعداد الهائل لاستئناف الحرب ضد المسلمين ، طمعاً في القضاء عليهم بالأندلس . وما أن علم يعقوب بذلك حتى وطّد العزم على أخذ الأبهة اللازمة ، والعبور بنفسه إلى الأندلس ، لمنازلة العدو هناك . وخوفاً من أن يطعنه من الخلف يغمراسن بن زيان ، صاحب تلمسان ، بعث إليه يعقوب بوفد لعرض الصلح بينهما ، تحقيقاً لوحدة المسلمين ، وتعاوناً على محاربة العدو الإسباني بالأندلس . فلبى يغمراسن طلب يعقوب ، وبذلك برهن هذا على همته العالية ، وأدى للإسلام والمسلمين أعظم خدمة .

الجواز الأول ليعقوب المنصور إلى الأندلس :

في سنة 674 هـ عبر يعقوب المنصور البوغاز ونزل مع جيوشه الجرامة بعدوة الأندلس لأول مرة ، وتسلم بعض الثغور الساحلية بناء على اتفاق بينه وبين ابن الأحمر . وكان سبب عبوره بنفسه أنه سمع باستعداد العدو

لشن هجوم عظيم على المسلمين ، لأخذ الثأر مما حل بهم من الهزائم المتكررة على يد المرينيين . وهناك وقعت معركة حامية الوطيس بين المسلمين وعدوهم ، فكانت العاقبة السيئة على النصارى ، حيث إنهم انهزموا شر هزيمة على يد ملك المغرب . فسقطت في الميدان آلاف من الجنود ، أمر يعقوب بقطع رؤوسها وتصنيفها على شكل مآذن . وأذن عليها المؤذنون صلاتي الظهر والعصر ، على غرار ما فعله يوسف بن تاشفين ، عقب انتصاره العظيم في معركة الزلاقة ، وسقط في المعركة أيضاً قائد الجيوش الإسبانية ، فبعث المنصور برأسه إلى ابن الأحمر ، كبشرى بالانتصار . ويقال بأن محمداً الفقيه ، خضّب رأس الزعيم الإسباني بأنواع الطيب ، ووضعه في صندوق بولخ في إتحاقه ، ثم بعث به إلى ملك الإسبان، راجياً من عمله هذا الظفر يرضى الإسبانين ، واتخاذهم أصدقاء وعوناً على بني مرين . ثم عاد يعقوب إلى المغرب مسقط رأسه الذي غاب عنه في الأندلس مدة ستة أشهر .

جوازه الثاني إلى الأندلس :

في سنة 676 هـ عبر يعقوب المنصور البوغاز مع جيوشه، ونزل بأرض الأندلس ، برسم الجهاد ، فحل بطريف ، ثم بالجزيرة الخضراء، ومنها إلى رُنْدَة ، ومن هذه توجه إلى إشبيلية ، التي كان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن أذفونش ، فخرجت عساكر النصارى من المدينة لللاقاة المسلمين في حشودها العظيمة . فنشبت معركة هائلة بين الفريقين ، ألبيا فيها معاً البلاء الحسن . ولكن خاتمتها انتهت بانتصار المسلمين على عدوهم انتصاراً حاسماً . وتتبع جيوش المنصور فلول العدو في مسارح الأرض، وفي غمرة مياه وادي الكبير ، ففتكوا بخلق لا يحصى منهم .

وهكذا أصبح ميدان القتال طافحاً بالجنث ، معظمها من النصارى ، ومياه وادي الكبير مختلطة بدم القتلى . وبات المسلمون ليلتهم يشخون ويأسرون ويسبون ويضرمون النيران في زروع العدو وحصونه بضواحي إشبيلية ، حتى لا يستفيد منها في المستقبل . أما النصارى فقد ظلوا طول ليلتهم ينفخون في الأبواق ، داخل المدينة ويحرسون أسوارها خوفاً من اقتحام المسلمين لها .

ولم يحاصر يعقوب المدينة حصاراً طويلاً ، بل ارتحل عنها إلى نواحٍ أخرى ، فدخل حصون قطنيانة ، وجليانة والقلعة ، ثم قفل راجعاً إلى الجزيرة الخضراء ، وبعد أن استراح بها مدة ، خرج غازياً مدينة شريس وغيرها ، كما بعث ابنه الأمير يوسف في عسكر كثيف للإغارة على إشبيلية وحصونها ، فحقق الابن وأبوه النصر على العدو .

وبعد ذلك توجه يعقوب بنفسه إلى قرطبة لغزوها ، وكانت يومئذ مركزاً مهماً من مراكز العدو ، واستنفر لهذه الغاية ابن الأحمر ، فلي الدعوة ، فحوصرت قرطبة من لدن يعقوب وابن الأحمر حصاراً شديداً بعد أن انهزم العدو في الحرب انهزاماً ذريعاً . فلما أيقن النصارى أنهم على وشك الهلاك ناشدوا السلطان المنصور أن يعقد الصلح معهم ، ولكن يعقوب رفض أن يتم ذلك على يده ، وهو ليس إلا ضيقاً في البلاد ومجاهداً في سبيل الله ، وأحاطهم على ابن الأحمر باعتباره رب البيت . وهكذا عقد الصلح بين المسلمين والنصارى بعد أن أقسموا بصلبانهم أنهم سيحترمون المعاهدة . ثم عاد السلطان المغربي إلى بلاده مسقط رأسه سنة 677 هـ .

الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر

عندما اجتاز يعقوب المنصور إلى الأندلس جوازه الثاني لم يستقبله ابن الأحمر حتى خاطبه السلطان المريني في ذلك وألح عليه ، فشاركه في العمليات الحربية ، وجاءه ابن شقيلولة بعد ذلك إلى المنصور وعرض عليه أخذ مدينة مالقة منه ، وإذا رفض فإنه يسلمها إلى النصارى دون ابن الأحمر خصمه ، وأمام ذلك لم يجد يعقوب بداً من قبول المدينة ، خوفاً على المسلمين ، فكان هذا أيضاً من الأسباب التي زادت في ثورة ابن الأحمر ضد السلطان المنصور ، وساءت العلاقة بين السلطانين المسلمين.

ولجأ ابن الأحمر - بدافع الخوف - إلى ملك الإشبانية لينصره على السلطان المريني ، فسر العدو بهذه الفرصة ، وخان العهد الذي كان قد قطعه على نفسه باسم الصليب للمحافظة عليه ، وهو ألا يثير الحرب ضد المسلمين . وهكذا أغار على الجزيرة الخضراء ، التي كانت بيد المرينيين ، وساعده على ذلك ابن الأحمر ، الذي استولى على مالقة التابعة لبني مرين أيضاً .

ولم يكتفِ ابن الأحمر بذلك، بل راسل هو وصديقه الإشبانية صاحب تلمسان يغمراسن ليهاجم من جانبه يعقوب المنصور. وهكذا اتفق الجميع على محاربة المرينيين ، الذين أوقفوا حياتهم على الجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن حومة الإسلام . ولكن يعقوب تغلب على يغمراسن ، واستعد استعداداً عظيماً لمقاتلة العدو الإشبانية في عقر داره . ولما رأى ابن الأحمر ان الجزيرة الخضراء على وشك السقوط في يد النصارى . وسمع أيضاً بتأهب السلطان المريني لفك الحصار عنها، ندم أشد الندم ، وأمر أسطوله

بمساعدة المرينيين في عمالهم الحربي ، تكفيراً لخطيئته . ونشبت معركة بحرية بين أساطيل المسلمين وأساطيل النصارى ، فتم الظهور فيها للمسلمين وفك الحصار عن الجزيرة . وصفح يعقوب عن ابن الأحمر كعادته .

الجواز الثالث ليعقوب :

وفي سنة 681 هـ قدم هراندة ، الملك الإسباني مع رجال حاشيته إلى المغرب ، واستقبل السلطان يعقوب ، وطلب منه مساعدته حرياً ومالياً على ابنه سانجه ، الخارج عليه . فاجتاز معه إلى الأندلس بجيوش بني مرين الشجاعة ، وانتصر له على ابنه وأمّده بما يحتاج من المال .

جوازه الرابع :

وفي سنة 684 هـ يمم يعقوب المنصور وجهه شطر عدوة الأندلس برسم الجهاد ، فلما انتصر على سانجه وجيوشه استعطفه هذا الملك الإسباني لقبول صلح معه . فأجابه السلطان لذلك عملاً بقول الله : « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ، وذلك بعد أن اشترط عليه شروطاً كلها في صالح المسلمين .

استصراخ أهل الأندلس بسلطان المغرب

ثم توقف الغزو المريني بالأندلس مدة من الزمان ، منذ عهد السلطان يوسف . وفي عهد أبي سعيد جاءت وفود أهل الأندلس إلى السلطان مستصرخين به لإنقاذهم من هجمات بطرس ملك اسبانيا، الذي صمم عزمه

على القضاء على المسلمين ، والاستيلاء على عاصمتهم غرناطة ، وذلك سنة 718 هـ . ولكن السلطان لم يتمكن من القيام بواجب الجهاد كعادة بني مرين . غير أن شيخ الغزاة المريني أبا العلاء كفاه مؤنة ذلك ، فهجم على العدو برجاله القليلين وهزمه . وفي تلك الموقعة قتل الملك بطرس وطائفة من قواده العظام .

وفي عهد أبي الحسن المريني تقدم بنو الأحمر بشكايتهم لعاهل المغرب بما يعانيه مسلمو الأندلس من العنت والإغارة من جانب النصارى ، فأمر السلطان جيوشه بالجواز إلى الأندلس للقيام بواجب الجهاد . وتمكنت جيوش المسلمين من استخلاص جبل طارق من يد العدو، وانتصرت عليه في كثير من المعارك الأخرى .

استئساد العدو واقتراب الساعة

وفي سنة 742 هـ استولى العدو على الجزيرة الخضراء ، وصمم العزم على دخول غرناطة والقضاء على دولة الإسلام، وتمكن من الاستيلاء على قلعة بني سعيد التي تعتبر المنفذ البحري لغرناطة .

وفي سنة 770 هـ استرد بنو الأحمر الجزيرة الخضراء بمساعدة عبد العزيز ملك بني مرين، الذي أمدهم بما يحتاجونه من المؤن والعتاد، ثم أخلى المسلمون الجزيرة وهدموها حتى لا يطمع العدو فيها مرة أخرى .

وفي سنة 818 هـ . استولى البرتغال على سبتة ، وفي سنة 869 هـ استولوا على طنجة ، بسبب ضعف بني مرين ، فكان سقوطها نذيراً بسقوط غرناطة ، وزوال ظل الإسلام بديار الأندلس العزيزة .

سقوط غرناطة ونهاية دولة الإسلام بالأندلس

ظل العدو يسلم دولة بني الأحمر تارة ، وينقض عليها تارة أخرى . وفي سنة 880 هـ قامت فتنة كبرى بين أبي عبد الله وأخيه أبي الحسن على الرئاسة والملك ، جرّت في أذيالها على المسلمين الخراب والدمار ، وأخيراً تنازل أبو الحسن لأخيه عما أراد . وفي إحدى المعارك مع النصارى ألقى القبض على . أبي عبد الله ابن أخ الملك أبي عبد الله ، ثم فكّ العدو سراحه ومنّاه ووعده بالتأييد إذا هو قام بمحاربة عمه السلطان أبي عبد الله .

وهكذا حصلت فتنة جديدة بين العم وابن الأخ ، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي ساعدت العدو على التعجيل بتحقيق أمله . وتمكن ابن الأخ من الدخول إلى غرناطة ، بسبب تواطؤ بعض رجالها ومساعدة العدو الإسباني ، وذلك في الوقت الذي كان عمه غائباً عن المدينة ، يحارب أعداء الإسلام ، وفي تلك الأثناء تقدم الإسبان إلى مالقة واستولوا عليها ، بعد دفاع أهلها دفاع الأبطال ، وذلك سنة 892 هـ .

ثم قلب العدو ظهر المجن لأبي عبد الله المتولي على عرش غرناطة ، فحاربه حرباً شديدة ، وحاصر غرناطة شهوراً ، حتى هلك خلق كثير من المسلمين بسبب الجوع ، وفي أثناء الحصار كان العدو يبعث فساداً في أعمال المدينة ، وأمام ذلك لم يجد السلطان أبو عبد الله وأهل البلد بداً من قبول الرضوخ لملك قشتالة ، بشروط تهم المسلمين ، فقبلها الإسبان ووافق عليها بابا رومة ، ووضع عليها طابعه حسب رغبة الأندلسيين زيادة في الحيطه من الغدر الذي ألفوه من النصارى الإسبان .

وهكذا دخل الإسبان غرناطة ، وعملوا على ترحيل أبي عبدالله الى المغرب آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وذلك سنة 897 . .
وبذلك انتهى مجد الإسلام وعز العرب في تلك الديار العزيزة والفردوس المفقود .

● نقاط التلخيص ●

- عادت الأندلس من جديد إلى ما يشبه العهد الطائفي، عقب واقعة العقاب التي انهزم فيها الموحدون بسبب ضعفهم ، والتي كانت السبب في انهيار سلطانهم ، سواء بالمغرب أو بالأندلس .
- أستنجد ابن الأحمر ، صاحب غرناطة بـيعقوب المنصور المريني فجاز هذا إلى الأندلس بنفسه أربع مرات. وحارب العدو المستأسد على المسلمين ، وانتصر عليه ، حتى أرغمه على طلب المهادنة .
- حصلت فتنة بين يعقوب المنصور وبين ابن الأحمر . ومن أسبابها: خوف هذا الأخير من قوة المرينيين ، وقبول سلطانهم يعقوب لمدينة مالقة ، التي دفعها إليه ابن شقيلولة عدو ابن الأحمر. وكان يطمع ان تكون له لا للمرينيين .
- لما ازداد تخوف ابن الأحمر من قوة المرينيين طلب من النصارى أن يأخذوا بيده ضد المرينيين ، واستولى هو على مالقة المرينية ، بينما تقدم النصارى إلى الجزيرة الخضراء . ثم تاب ابن الأحمر فحقا عنه المرينيون ، كعادتهم مع هذه الأسرة الأندلسية .
- في سنة 880 هـ قامت الفتن بين آل بني الأحمر على الملك ، فتقدم النصارى واحتلوا عاصمتهم غرناطة ، ونفوا سلطانهم أبا عبد الله إلى المغرب ، فأواه المغاربة وأكرموه .

أسئلة

- 1 - متى أحس مسلمو الأندلس بمعني النصارى في القضاة عليهم نهائياً ؟ صف ذلك .
- 2 - كم مرة جاز المرينيون إلى الأندلس بقيادة سلطانهم العظيم يعقوب المنصور ؟
- 3 - تكلم عن أسباب الفتنة بين المنصور المريني ، وبين ابن الأحمر . ما رأيك في ذلك ؟
- 4 - لم يستطع السلطان أبو سعيد المريني أن يستجيب لاستصراخ الأندلسيين به. من كفاء مؤنة ذلك؟
- 5 - عدد ما تعرفه من الأسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة في يد العدو . متى حصل ذلك ؟

هجوم الاسبانيين والبرتغاليين على شواطئ المغرب - كفاح المغاربة ضد هجماتهم - الوطاسيون (869 - 961 هـ)



بعد أن كان المغرب في عهد دولة المرابطين والموحدين ، وفي الفترة الأولى من دولة بني مرين ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، قوي الشكيمة ، واسع الرقعة ، أصبح منذ أواخر بني مرين يضعف وتساء أحواله ، ويتقلص ظله ، إلى أن صارت رقعته لا تتعدى بلاد المغرب الأقصى . وظل أمره كما هو منذ ذلك الوقت إلى نهاية دولة بني وطاس ، أعقاب بني مرين ، بعد ان كان حكمه يشمل - في أغلب الأحيان - الشمال الإفريقي كله إلى حدود مصر تقريباً ، وبلاد الأندلس . بل وحتى في عهد دوله الصغيرة ، كدولة الأدارسة ودولة بني مغراوة ، كان نفوذه يشمل أجزاء مهمة من القطر الجزائري الشقيق .

لقد ضعفت دولة المغرب في ذلك العصر ، ولم يعد لها تلك القوة

المعنوية والمادية اللازمتين لتوطيد الأمن ، وتوفير الحياة الكريمة للناس في ظل الاتحاد والأخوة والوئام ، فلا جيش منظم هناك ، ولا مال كاف بالخزينة ، ولا شؤون مضبوطة ، ولا أمن مستقر ولا رخص في المعيشة . ولا علم أو فن ، بل هناك فوضى شاملة في جميع مظاهر الحياة . وتبدلت أحوال المغاربة في ذلك العصر تبديلاً مزمياً يبعث على الأسف ، وأصبحت عقولهم تؤمن بما يردده المشعوذون من آن لآخر من دعوات خرافية ، لعبت دورها الخطير في إفساد الأذهان ، وتحطيم العزائم ، وحمل النفوس على الاستسلام . وكان الناس في إيمانهم بذلك الاعتقاد السخيف تابعين ومقلدين لبعض سلاطينهم ، الذين اتخذوا من أولئك المشعوذين أولياء ، يأتمرون بأوامرهم ويتحركون وفق رغبتهم .

وليت الأمر وقف بالمغاربة عند هذا الحد ، بل عظم الخطب وتفاحش البلاء ، عندما بدأ الأعداء ، الأجانب من الأسبان والبرتغال ، يشنون غاراتهم المتوالية على المغرب ، ويعيثون في أرضه فساداً ، ويحتلون ثغور شواطئه ، كتمهيد لاحتلاله كله ، لا يتراز خيراته الوفيرة ، وإذلال قومه الأحرار .

ولقد ابتدأ ذلك الاعتداء الإسباني البرتغالي على التراب المغربي قبل سقوط غرناطة، وتفاحش بعد السقوط . وكانت دولتا الإسبان والبرتغال، قد قويت شوكتها ، وعظمت مكانتهما برأ وبحراً ، وشرعنا - خصوصاً البرتغال - في إرسال أساطيلها البحرية إلى آفاق المعمورة، كي تحتل ما يروقه من البقاع ، في إفريقيا وآسيا . وذلك وفق تقسيم بابا رومة للعالم بين الدولتين ، ذلك التقسيم الذي شمل المغرب في جملته . هذا في الوقت الذي كان المغاربة فيه يرفأون في مجبوحة الفوضى والتأخر ،

حكومةً وشعباً .

وهكذا استولى البرتغال على ثغر سبتة سنة 818 هـ ، في العهد المريني ، أي قبل سقوط غرناطة بست وسبعين سنة ، وذلك بسبب حيلة استعملوها . وهي أنهم أنزلوا بمرساها عدداً من الصناديق ، على اعتبار أنها بضائع ، بينما كانت تحتوي على حوالي أربعة آلاف جندي . فانقض هذا الجيش على السكان الآمنين بغتة ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، واحتلوا المدينة . وكانت مرساها من قبل بيد بعض التجار البرتغاليين يتحكمون فيها كما شاءوا .

وفي سنة 867 هـ انتزع الإسبان جبل طارق من أيدي بني الأحمر ، على أساس بعض الشروط الخادعة . وكان بنو الأحمر قد أخذوه من المغرب ، كما أخذوا جميع ما كان له من أراضي الأندلس ، متتهزين فرصة ضعفه . وظلوا يحكمون الجبل أكثر من خمسين ومائتي سنة ، إلى أن انتزعه منهم الإسبان .

وفي سنة 869 هـ احتل البرتغال مدينة طنجة . وقد أتوا إليها من سبتة ، وظلت بأيديهم مدة طويلة من الزمان ، ثم قدموها هدية إلى ملك الانجليز ، بمناسبة المصاهرة ، التي تمت بين الأسرتين الملكيتين ، البرتغالية والإنجليزية .

وفي سنة 874 هـ استولوا على آففى ، التي سميت فيما بعد بالدار البيضاء . وظلت بأيديهم مدة تقدر بأربعين سنة . وفي سنة 876 هـ احتلوا آصيلا ، وألقوا القبض فيها على الأمير محمد بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي ، كما قبضوا على أسرته وطائفة من الوجهاء . وظل محمد هذا في الأسر

عند البرتغال مدة سبع سنين إلى أن افتكّه والده بمال جسيم . ومنذ ذلك الوقت عرف الأمير الأسير بالبرتغالي .

ورغم وقوف الوطاسيين وقوف الأسد المصور في وجه البرتغال الغاصبين ، فإن مقاومتهم إياهم اقتضرت على ثغور الشمال ، التي احتلها العدو كلها ، حتى لم يبق بأيدي المسلمين منها إلا ثغر كتامة ، بينما تركت الثغور الجنوبية عارية عن أي دفاع منظم . وهكذا انتهز العدو الفرصة فاستولى على الثغور المراكشية والسوسية ، كالبريجة (الجديدة) ، وعلى آسفي سنة 910 هـ ، وآزمور سنة 918 هـ وحصن فونتي (أكادير) ، من قبل سنة 875 هـ . وكان الإسبان قد استولوا على العرائش بالشمال في عهد محمد البرتغالي ابن السلطان محمد الشيخ .

وكان انشغال الوطاسيين عن الدفاع عن الجنوب ، وبالأخص عن الأصقاع السوسية ، من الأسباب التي ساعدت على ظهور الدولة السعدية فيها سنة 915 هـ . وفي سنة 910 هـ كان قد استولى الإسبان على بجاية ، وعلى وهران سنة 914 هـ ، وعلى تلمسان سنة 923 هـ . وفي نفس السنة بنوا في شمال المغرب حجر باديس الذي ما زال بأيديهم حتى الآن . وقد دام الصراع بين المغاربة والبرتغاليين زهاء 264 سنة .

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يستولون على ثغور المغرب ، كان الإسبان يستولون على ثغور المغربين الأوسط والأدنى ، واستطاعوا أن يحتلوا بهما مدناً هامة . ولكن الترك طردوهم منها جميعاً . وهكذا كان عصر بني وطاس في المغرب عهد ضعف وتأخر، شهد المغاربة فيه أحداثاً جساماً .

كفاح المغاربة ضد هجمات الإسبان والبرتغاليين

قلنا من قبل بأن الوطاسيين وقفوا في وجه الأعداء من البرتغاليين والإسبان وقوف الأسد المحصور ، بالرغم من ضعفهم وتأخرهم . ولكن دفاعهم عن الوطن ، لم يجد فتيلاً . وغاية ما استطاعوه ، هو إشغال العدو وإيقافه عند حده ، أي محاصرته في الثغور المغربية الكثيرة ، التي احتلها . وفي خضم تلك القوضى والضعف قامت جماعات متعددة من أبناء المغرب ، للذود عن حياض البلاد ، وتقديم أنفسهم وأموالها بسخاء في سبيلها ، مدفوعة في ذلك كله ، بصوت الواجب الديني، ونداء الوطن الغالي .

ومن هذه الجماعات : جماعة الأشراف العلميين أبناء راشد الذين أسسوا مدينة شفشاون سنة 876 هـ، لحماية المسلمين بواسطتها من اعتداءات نصارى سبتة ، الذين كانوا دائمي الإغارة على أهل المناطق المجاورة لهم.

ثم جماعة الأندلسيين بقيادة بطلهم أبي الحسن المنظري . وكانوا قد هاجروا من الأندلس ، بسبب ضغط الإسبان وعسفهم . ونزلوا بوادي مرتيل في عهد السلطان الوطاسي محمد الشيخ . ثم طلبوا من عاهل المغرب أن يمنحهم أرضاً يبنون عليها مدينة لهم، فأعطاهم المكان الذي به حصن تطوان القديم . فبنوا ما تخرب منه ، وزادوا فيه ، حتى أصبح مدينة على غرار مدن الأندلس .

ومن هؤلاء أيضاً جماعة أهل زمور ، الذين أوقفوا همتهم على محاربة العدو البرتغالي ، الذي احتل ثغورهم ، خصوصاً مع محنلي الجديدة .

وهكذا ساعدت هذه الجماعات المخلصة ، وغيرها الدولة الوطاسية الضعيفة ، على مكافحة أعداء الدين والوطن . ولكن تلك الجهود المبذولة ، لم تخلص البلاد مما هي فيه من خطر ، بل لم تستطع زحزحة العدو من الأقاليم التي احتلها ، وكل ما فعلته أنها أوقفت التيار الاستعماري الأجنبي من التوغل داخل الوطن .

الوطاسيون

بنو وطاس وبنو مرين أبناء عمومة واحدة . إلا أن بني وطاس ليسوا من بني عبد الحق . وعندما دخل بنو مرين المغرب اختار الوطاسيون بلاد الريف* بشمال المغرب مكاناً لاستقرارهم . وكانوا يتطلعون إلى الرئاسة دائماً . وحاول بعضهم عدة مرات الخروج على بني عبد الحق لتحقيق أمنيته ، إلا أنهم أخلدوا للطاعة ورضوا بما نالوه من المركز والجاه في عهد الدولة المرينية . فكان فيهم العمال والقواد والوزراء . وانتفع المرينيون من بني عبد الحق بهم ، حيث أعانواهم على تسير دفة الدولة .

إلا أن عبد الحق سلطان المرينيين لما رأى ما ناله وزيره الوطاسي يحيى بن أبي زكريا بن يحيى من الشهرة واتساع النفوذ ، خاف أن ينقلب عليه ويسلبه عرشه ، فتصيد الفرصة ، وعمد إلى قتله ، وقتل

* بلاد الريف هذه التي نكرر ذكرها لا تعني عندنا سكان البادية فقط وإنما تعني السكان البرابرة الذين يقطنون الشمال الشرقي من المغرب وإلى هؤلاء ينتمي بطل الريف المشهور ، وفي ذلك الريف الاشم قامت حركته التحريرية .

أخويه ، أبي بكر وأبي شامة ، وعمها فارس بن زيان ، وقرييهم محمد بن علي . ولما سمع بذلك اخوان آخران للوزير المقتول : محمد الشيخ ومحمد الحلو اختفيا ، ثم فرا إلى الصحراء نجاة بنفسيهما ، ثم منها دخلا آصيلا ، وهناك كونا لها أنصاراً كثيرين . وكان دخول الأخوين إلى آصيلا ، قبل استيلاء البرتغال عليها .

ولما سمع السلطان عبد الحق أن أهل فاس ينقمون عليه فعلته بالوطاسيين ، وأنهم يعطفون على حركة الوطاسيين التي قامت في آصيلا ضد دولته ، لم يشأ أن يعين وزيراً وعملاً على الأقاليم من الأهالي المسلمين ، بل عينهم من اليهود ، تشقياً منهم . فكانت النتيجة ، أن حاكم فاس اليهودي ، أهان - مرة - امرأة مسلمة شريفة ، وأشبعها ضرباً مبرحاً ، على مرأى ومسمع من الناس ، فلما علم السكان كلهم بذلك غضبوا أشد الغضب ، وثاروا ثورة عارمة على اليهود ، وساموهم سوء العذاب ، ثم رشحوا عليهم للملك رجلاً اسمه عبدالله الحفيد .

وكان السلطان عبد الحق ووزيره اليهودي هارون غائبين عن المدينة ، فلما بلغ مسامعها قيام الثورة بفاس العاصمة ، نصح اليهودي السلطان بأن لا يدخل فاسا ، بل يذهب إلى مكناسة ، وهناك يعدان الجيوش اللازمة ، لقمع الثورة ، وتأديب المحرضين عليها . غير أن اليهودي ما أن أتم كلامه ، حتى قذفه بعض الجنود بالرماح ، فأردوه قتيلاً ، وقالوا للسلطان : تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اختيار اليوم على نفسك ، فلما وصل به الجنود إلى فاس ، وقدموه إلى السلطان الجديد الحفيد ، أركبه هذا على بغل مبردع ، وانتزع منه شارة الملك ، وأمر بالطواف به في شوارع المدينة .

وهكذا طاف الجنود بالسلطان المخلوع في الأحياء الرئيسية بفاس على مشهد من جماهير غفيرة ، ثم قتل ، وبموته انتهت دولة بني عبد الحق المريني ، وحل محلها دولة بني وطاس .

وفي سنة 875 هـ عزل الحفيد من السلطنة على يد أبي الحجاج يوسف الوطاسي ، وبقي هذا يحكم المغرب من فاس عاصمته .

ولما كثر انصار محمد الشيخ بأصيلا ، وقويت شوكته ، وصار عليه القوم في فاس ، يكتابونه سراً ، ويعلمون له المبايعات ، ويحرضونه على احتلال مدينتهم ، آنذاك قصدها بجيوشه الكثيرة ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وذلك سنة 876 هـ . وهكذا أصبح محمد الشيخ ملكاً مطلقاً على المغرب بلا منازع . وفي عهد هذا الملك حصلت في المغرب أحداث عظيمة جررها في أذياله الاستعمار البرتغالي والإسباني ، وفي عهده أيضاً سقطت غرناطة في أيدي الإسبان ، آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس .

وقد كان هذا السلطان من المكافحين العظام ضد أعداء الوطن ، وانتصر عليهم في كثير من المعارك ، ولكنه لم يستطع أن يغير من الواقع شيئاً . ولما توفي سنة 910 هـ ، تولى من بعده ابنه محمد الملقب بالبرتغالي ، وكان نصارى سبتة وطنجة وأصيلا قد احتلوا معظم بلاد الهبط ، وضايقوا السكان المسلمين هناك مضايقة شديدة ، حتى لم يبق في أيدي الناس إلا ثغر كتامة .

هذا بالرغم من أن السلطان البرتغالي المتولي ، بذل قصارى جهوده في محاربة الأعداء . بينما ظلت بلاد الجنوب عارية عن دفاع الوطاسيين ،

فقام الأشراف السعديون بمهمة الدفاع المقدس عن الوطن ، كسائر المجاهدين الآخرين .

نهاية الوطاسيين وظهور السعديين

وكان ظهور السعديين سنة 915 هـ؛ وأول سلطان منهم هو أبو العباس الأعرج الذي عظم أمره في الجنوب بما أحرزه من الانتصارات الباهرة على أعداء الوطن المحتلين لثغور السوس . ثم دخلت مراكش في حوزته سنة 930 هـ تقريباً . وحاربه محمد البرتغالي الوطاسي بلا طائل . ولمّا توفي البرتغالي ، وتولى بعده أخوه أبو حسون ، قام ابن أخيه أبو العباس أحمد ضده ، واستطاع أن يلقي القبض عليه ، ويتولى السلطنة بدله .

ثم حصلت وقعة حربية عظيمة بين السلطان الوطاسي أبي العباس أحمد ، وبين السلطان السعدي أبي العباس الأعرج قرب مراكش ، وبعدها توصل الطرفان إلى صلح واتفاق على اقتسام المغرب بينهما ، وهكذا أصبح للسعديين من تادلا إلى السوس ، وللوطاسيين من تادلا إلى المغرب الأوسط . ودام السلم زهاء ستين بين الدولتين ، ثم تجددت الحرب بينهما ، وتمكن السلطان السعدي محمد الشيخ أن يستولي على فاس سنة 956 هـ ويأسر السلطان الوطاسي بها ، كما ألقى القبض على سائر الوطاسيين، وبعث بهم مصفدين إلى مراكش ، إلا أن أبا حسون المخلوع استطاع الفرار والاحتماء بأتراك الجزائر .

وفي سنة 960 توفي السلطان الوطاسي أبو العباس في أسرهم بمراكش،

فأصبح السعديون هم الحاكمين في البلاد . ثم أقنع أبو حسون الأتراك بمساعدته ، وهكذا جاء معه جيش كثيف من الترك بقيادة باشا صالح التركماني ، ودخل فاساً ، ثم رحل الجيش التركي عن المدينة بعد أن دفع لهم أبو حسون المال المتفق عليه .

وفي سنة 961 هـ عاد السلطان السعدي محمد الشيخ إلى فاس فحارب أبا حسون الوطاسي ، وحاصر المدينة ، إلى أن دخلها ، وظفر بالسلطان الوطاسي وقتله ، وبذلك انقرضت الدولة الوطاسية ، أو بقايا الدولة المرينية ، وأصبح للدولة السعدية وحدها السلطان على المغرب كله .

● نقاط التلخيص ●

- الوطاسيون ينحدرون من نفس الأرومة التي ينحدر منها المرينيون، وكانت الدولة المرينية تتخذ منهم الوزراء والعمال . ولكنها فتكت بهم أخيراً ، ونجا بعض الوطاسيين ، وتمكنوا من تأسيس دولتهم على أنقاض الدولة المرينية .
- ضعف المغرب في أواخر بني مرين ، وفي عهد الوطاسيين، وعمت الفوضى البلاد ، وساءت أحوال الناس ، وتمكن الغزاة الأجانب من احتلال معظم الثغور .
- في تلك الفترة العصيبة تألفت من الشعب فرق جهادية قامت بالدفاع عن الوطن ، ولكن رغم الجهود المبذولة سواء من الجانب الشعبي أو الحكومي ، فإنها لم تستطع زحزحة الغزاة من الأماكن المحتلة .
- من ضمن فرق الجهاد التي تألفت في مختلف أجزاء المغرب جماعة الأشراف العلميين الذين أسسوا شفشاون، وجماعة الأندلسيين بزعامة سيدي المنظري بتطوان ، وجماعة الأشراف السعديين في الجنوب . ولهذا الأخيرة أهمية سياسية عظيمة .
- قام الأشراف السعديون في الجنوب بدورهم في الجهاد والدفاع عن الوطن المهدد، وحققوا انتصارات على العدو . ثم سعوا إلى تقويض دولة الوطاسيين ، وتكوين دولتهم ، فنجحوا في مسعاهم .

اسئلة

- 1 - كيف أسس الوطاسيون ملكهم في المغرب ؟
- 2 - صف باختصار أحوال المغرب في عهدهم .
- 3 - قام كل من الشعب والحكومة الوطاسية بالدفاع عن الوطن ضد الغزاة الاجانب . فما دور كل منهما بالضبط ؟
- 4 - تكلم عن الدور الحربي الذي قام به المجاهدون من الاشراف العلميين ، والانذلسيين ضد أولئك الغزاة .
- 5 - كيف انتهت ايام الوطاسيين ؟ ما رأيك في ذلك ؟

المغرب في عهد السعديين واقعة وادي المخازن – المنصور الذهبي (961 – 1009 هـ)



تنحدر الدولة السعدية من سلالة علي بن أبي طالب . فهي على هذا دولة شريفة ثانية بعد الأدارسة ، بخلاف ما ادعاه خصومهم من أنهم ينتسبون إلى بني سعد بن بكر بن هوازن . كما أن الدهماء نسبتهم إلى السعد ، لأن الأمة سعدت في أيامهم . وقد ظهر السعديون في الميدان في أواخر الوطاسيين . فعندما بقيت ناحية الجنوب وثور السوس عارية عن كل دفاع . واستولى الأجانب على معظمها آنذاك اتفقت كلمة سكان تلك الناحية على اختيار أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله، ليتولى رئاستهم واستنفارهم للجهاد ضد البرتغاليين الغزاة . فكان هذا أول مؤسس للدولة السعدية ، واتخذ درعة عاصمته . وكان هذا يتصف بكثير من الصفات الكريمة ، كسرف الأرومة ، والشجاعة والتدين والعلم . ويقال بأنه كان

أشهر أمير مر في المغرب . ومن أقواله الحكيمة : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ، فإن طول الأمل ، وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح ، لأن الرعية تصلح بطول أمله » . ولكنه كان يغضب بسرعة ويطش بدون رحمة أو شفقة .

وكان ببدء جهاده ضد الأعداء سنة 915 هـ ، وحالفه النجاح في حروبه ضدهم ، وفي سنة 923 هـ توفي ، فخلفه ابنه أبو العباس أحمد الأعرج ، وصار هذا على منوال والده في متابعة الحرب ضد البرتغال . والعمل على طردهم من تراب المغرب . وتمكن هذا الأمير البطل من تحقيق جزء من أمله .. وهكذا ظهرت سواحل السوس كلها من الأعداء المستعمرين . وفي سنة 930 هـ بايعته مدينة مراكش فدخلها ، وجعلها عاصمة دولته بدل درعة .

وانزعج الوطاسيون من انتصارات السعديين ودخلهم مراكش فهبوا لمحاربتهم ، ولكن هيهات أن يتتصر الخروف الضعيف على الذئب القوي . وكان للأمير الموحيدي أخ يسمى محمداً الشيخ اتخذه وزيراً له ليساعده على القيام بأعباء الدولة . فكان أن حدثت عداوة بينها أدت الى تغلب محمد الشيخ على أخيه الأمير فألقى عليه القبض وسجنه ، وذلك سنة 946 هـ وتولى هو الإمارة مكانه ، ولقب نفسه بالمهدي .

وقد قام محمد الشيخ هذا بأعمال حربية مجيدة أيام توليته منها: استيلاؤه على حصن فونتي ، وعلى آسفي وآزمور وغيره . وهو الذي قضى نهائياً على دولة الوطاسيين سنة 961 هـ ، فاستقر له الملك في طول البلاد وعرضها . وقد كان وجود الأتراك في الجزائر الشقيقة ، التي احتلوها سنة 952 هـ ، وكذا تردد أساطيلهم البحرية قريباً من شواطئ المغرب

أمراً يشغل باله ، ويقلق راحته ، فكان دائم التحوط واليقظة منهم . وكان الأتراك يطمعون فعلاً في امتلاك المغرب ، بعد أن امتدت امبراطوريتهم العظيمة إلى حدود المغرب ، من جهة الجزائر . وكان في خلاف مستمر مع الأتراك حكام الجزائر. وكانت نفسه تواقه إلى الاستيلاء على المغربين : الأوسط والأدنى، وطرده الترك عنها .

وفي سنة 957 هـ تقدمت جيوشه إلى المغرب الأوسط ، فحاربت الأتراك وحاصر تلمسان مدة تسعة أشهر . وأخيراً سقطت في يده ، وطرده الترك منها ، فمد سلطانه إلى وادي شلف . وفي تلك المعارك قتل ولده المسمى الحران . غير أن الأتراك عاودوا الكر عليه، وأخرجوه من تلمسان .

ومن أعماله الأخرى ، أنه ثبت دعائم الدولة السعدية، وأدخل عليها كثيراً من مظاهر الحضارة والتأنق ، واستخلص الضرائب من المبيعات والمشتريات ، وغيرها . وصرف ما تجمع لديه من أموالها في سبيل المصلحة العامة ، وتطوير البلاد من كافة النواحي . وكان يردد دائماً: « لا بد لي أن أغزو مصر وأخرج الترك منها » .

وفي سنة 964 هـ توفي محمد الشيخ ، وكانت وفاته على يد جماعة من الأتراك ، كانت قد جاءت إليه ، وتظاهرت له أنها فرت من سلطانها سليمان العثماني . فاغتر السلطان المغربي بهؤلاء الأتراك ، وأضافهم إلى حاشيته ، فتربصوا به الفرصة وقتلوه، وذهبوا برأسه إلى السلطان التركي. وكان قد خلف أولاداً كثيرين ، تولى الملك منهم : عبدالله الغالب ، وعبد الملك المعتمد ، وأحمد المنصور .

وبعد وفاة السلطان محمد الشيخ تولى من بعده ابنه عبدالله الغالب بالله.

وأبرز ما يتصف به هذا الملك : الشجاعة والاستقامة والعدل ، ومراعاة المصلحة العامة ، والصبر الطويل ، الذي كان ينقص والده . ومن أعماله الحربية ، أنه في سنة 969 هـ قام بضرب حصار شديد على البريجة (الجديدة) التي شيدها البرتغال ، وكاد أن يستولي عليها ، لولا أنه أضطر لرفع الحصار عنها بسبب خوفه من هجوم الأتراك على البلاد . وكان قد استفحل خطرهم . ولم يجد السلطان المغربي أمام ذلك بداً من عقد صلح مع البرتغال ، كما أنه سمح للإسبان باحتلال حجر باديس ، التي كانت من قبل بيد الأتراك .

وكان الأتراك قد عاودوا الزحف على فاس ، قبل ذلك بقيادة حسن بن خير الدين باشا ، بعد ولاية هذا السلطان بسنة ، ولكنهم انهزموا شر هزيمة على يد جنوده البواسل . هذا بالرغم من أن المغرب كان ما زالت به الفتن الداخلية قائمة تمنعه من حياة الاستقرار والتقدم ، بينما كانت تركيا من جهة ، والبرتغال من جهة أخرى يتحيان الفرصة المواتية للاستيلاء عليه . فكانت خطة سلطان المغرب مقاومتها باستمرار . وظل كذلك إلى أن توفي سنة 981 هـ .

ومن أعمال السلطان الغالب بالله الأخرى ، أنه بنى جامع المواسين والمرستان بمراكش ، وغيرهما من الأعمال . وكان أخوا السلطان المتوفى ، أبو مروان عبد الملك ، وأبو العباس أحمد قد فرا منه يوم توليته ، ولجأ إلى الجزائر للاحتباء بالأتراك ، خوفاً من بطشه . فلما توفي ، تولى على عرش المغرب من بعده ابنه أبو عبد الله المتوكل على الله . فاستاء عمه الفاران من ذلك . وهكذا سافر عبد الملك إلى الآستانة . بتركيا ، وطلب من السلطان التركي سليم الثاني إمداده بالجيش ، ليستخلص ملك أبيه

من يد ابن أخيه . فلم يجبه إلى طلبه ، نظراً لأنه كان مشغولاً بإعداد
العدة لمحاربة الإسبان وإخراجهم من تونس ، التي استولوا عليها .

ولما وجه السلطان سليم الثاني حملته العسكرية إلى تونس ، ذهب عبد
الملك مع الحملة ، وشارك في الحرب مع الجيش التركي ، وأبلى فيها
البلاء الحسن . وحين تم النصر للأتراك على الإسبان واستردوا منهم تونس ،
كان عبد الملك أول من طير خبر ذلك النصر إلى السلطان التركي ،
فجازاه سليم الثاني على ذلك بأن أمر جيوشه التركية التي بالجزائر بالسير
مع عبد الملك ، إلى المغرب ومساعدته على بلوغ هدفه .

وهكذا قدم عبد الملك إلى فاس مع جيوش عظيمة من الترك ، وخرج
ابن أخيه المتوكل على الله بجيوشه للحرب ، ولكنها انشقت عليه ،
وانضمت إلى عمه عبد الملك ، وأنداك لم يجد المتوكل بداً من الفرار .
أما عبد الملك فإنه دخل فاس وبايعه الناس ، وذلك سنة 983 هـ ،
وبذلك استقر له الملك في المغرب ، وأصبح يلقب بالسلطان المعتمد بالله .

وقد نال هذا خبرة واسعة في شؤون الجيش والإدارة والسياسة في
الجزائر ، باحتكاكه مع الأتراك . فما أن تولى أمر المغرب ، حتى عكف
على تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا ، على غرار الجيوش التركية ، فقلدهم
في أسلحتهم وتكتيكهم الحربي ، بل وفي زيهم أيضاً ، وفي كثير من
العادات والمراسيم ، التي تخالف تقاليد المغرب ، مما كان السبب في
تضايق المغاربة من عمله هذا .

ولما فر المتوكل ، قصد مراكش وطاف في قبائل السوس ، وكون
منهم جيشاً تقدم به إلى مراكش فنشبت معارك طاحنة بينه وبين جيوش

عمه ، فانهزم فيها هزيمة نكراء ، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه للمرة الثانية ، ويلتجئ إلى جبل درن ، ومن هناك سار إلى مرسى باديس ، ثم إلى سبتة ، فطنجة . وهناك تمكن من مقابلة ملك البرتغال سبستيان ، وطلب منه أن ينجده بجيوشه ضد عمه ، فوافق الملك البرتغالي على ذلك ، لأنه رآها فرصة ينفذ بها إلى المغرب ، الذي كان دائماً يحلم بالسيطرة عليه . وهكذا جيش ملك البرتغال جيوشاً عظيمة تقدر بنحو ثمانين ألفاً من الرجال تقريباً ، مدججين بالبنادق والمدافع وسائر وسائل القتال الحديثة ، في ذلك الوقت ، وتقدموا مع المتوكل نحو القصر الكبير .

فما أن علم السلطان عبد الملك بتقدم الجيوش البرتغالية ، حتى استعد استعداداً عظيماً من جانبه ، وترك العدو يتوغل داخل البلاد عمداً .

واقعة وادي المخازن

وفي يوم الإثنين من سنة 986 هـ ، تقابل الجيشان المغربي والبرتغالي ، قريباً من القصر الكبير ، على وادي « المخازن » ، وقبل نشوب المعركة بعث عبد الملك فرقة من جيشه ، لهدم القنطرة الوحيدة ، التي على النهر ، كي يتعذر على العدو الفرار إذا ما انهزم . ثم خاض الطرفان معمة هائلة ، دوى فيها الرصاص وقنابل المدافع ، ثم التحما ، فعملت السيوف والخناجر عملها في الرقاب ، واختلط الحابل بالنابل ، وتلونت مياه النهر بدماء القتلى والجرحى ، ولم يمض وقت طويل حتى لاحت بشائر النصر للمغاربة الأبطال ، وحلت الهزيمة بالبرتغاليين ، وتفرقوا أيدي سباً . واتجهت فلول المنهزمين نحو القنطرة ، للنجاة بأنفسهم ، فوجدوها مهدامة

فألقوا بأنفسهم في النهر .

وكان الوقت وقت الحصاد ، فترك الفلاحون والفلاحات حقولهم ، وهرعوا إلى المعركة بقؤوسهم ومناجلهم وخاضوا المعركة ضد الأعداء فوجدوا في حصد رؤوسهم لذة أعظم من حصد سنابل القمح والشعير . وهكذا انتهت هذه الواقعة بفناء الجيوش البرتغالية ، وموت ملكها سبستيان ، والمتوكل المستنجد به ، وانتشل الناس جثة الخائن من النهر ، وسُلّخت، وحشي جلده تبناً ، وطيف به في الأحياء ، جزاء علي خيائنه للدين والوطن . وفي نفس اليوم والمعركة على أشدها فاضت روح سلطان المغاربة العظيم عبد الملك ، لأنه كان مريضاً جداً من قبل ، ولكن همته العالية وغيّره الوطنية وإخلاصه للمسؤولية الملقاة على عاتقه ، أبت إلا أن يحمل في محفة إلى ميدان القتال ، ليشاهد المعركة بنفسه ، ويتحمل ما قد يصيب المغاربة أبناء وطنه من نصر أو هزيمة . غير ان النية عاجلته والقتال مستمر .

ومن فطنة أخيه الملك المتوفى أبي العباس أحمد أنه لم يفش خبر موت السلطان في تلك اللحظة الحاسمة ، بل ظل يتردد على خبائه ، ويصدر الأوامر إلى القواد والجنود ، على أنها من غاهلهم المريض ، لا منه ، ولم يطلع الناس على وفاة سلطانهم إلا بعد انتهاء الواقعة بالنصر المبين .

وكانت تلك الواقعة نهاية لعظمة البرتغال ، ولم تستعد دولتهم مجدها الغابر من تاريخها إلى يومنا هذا . وبعد وفاة الملك العظيم عبد الملك، اتفقت كلمة الجميع على تولية أخيه الشهم أبي العباس أحمد .

أيام أبي العباس أحمد المنصور

تولى أبو العباس أحمد الملقب بالمنصور عقب وفاة أخيه عبد الملك ، فتوج هذا السلطان الحديد أيامه البيض بانتصارات أخرى ضد البرتغال ، وكان لذلك صدى في نفوس أهل الهبط ، الذين تشجعوا ، وضاعفوا نشاطهم ضد النصارى ، حتى تمكنوا من إخراجهم من أصيلا سنة 996هـ .

ومن صفات المنصور الطيبة ، أنه كان مثال الشجاعة والإقدام ، وحسن التبصر وسعة الخبرة والانصاف ، وكان على جانب كبير من الفضل والعلم والأدب ، وقد ألف كتاباً في السياسة بنفسه ولقب بالمنصور بعد توليته بمدة . وفي زمانه توطد الأمن وكثر العمران ، وازدهرت العلوم والآداب . ومن حسناته ، أنه كون مجلساً ديمقراطياً سماه (الديوان) ومهمته أن يجتمع أفراداه المختارون من رجال العلم والسياسة ، ليتناقشوا في مصالح الأمة ، برأي حر ، في يوم الأربعاء من كل أسبوع .

واهتم بتنظيم الجيش ، ولكنه أضاف إليه تقاليده المغربية ، إلى جانب الأساليب التركية المعاصرة ، فخالف بذلك عمل أخيه ، الذي كان جيشه ذا نظام تركي محض . وهكذا أرضى المغاربة ، الذين كرهوا أن تلغى تقاليدهم الخاصة نهائياً .

وتأقت نفس المنصور العالية إلى مد سلطانه . فبعد أن استتب له الأمن في المغرب ، بعث بعساكره إلى الصحراء ، فاستولى عليها سنة 1000 هـ . ومن بلاد السودان كانت تنقل إليه أحمال عظيمة من الذهب . وكان بدار السكة حوالي 1400 مطرقة تطرق الدنانير الذهبية . ولهذا السبب لقب بالمنصور الذهبي .

ويقال إن قصر البديع الذي بناه في مراكش كان أعظم قصر بُني في عهد السعديين ، لما احتواه من روعة الهندسة وجمال الفن ، كما بُني المنصور الحصون المتعددة، التي ما زال بعضها قائماً في فاس والعرائش إلى اليوم. وكانت مادة السكر موجودة في المغرب في العهد السعدي بكثرة ، حتى فاضت عن حاجة البلاد . وأخذ المنصور يصدرها إلى الخارج . فكان يدفع السكر إلى إيطاليا ، فتدفع له ما يعادل القيمة رخاماً . كما أحدث عدة مصانع لهذه المادة في البلاد .

وفاته وضعف السعديين من بعده

وفي سنة 1012 هـ توفي المنصور العظيم ، فأدى موته إلى انتشار عقد الدولة السعدية ، إذ مال الملوك الذين تعاقبوا بعده إلى التناحر من أجل العرش . فعمت الفوضى ، وقامت الفتن والثورات . واستمرت الحالة على ما هي عليه ، إلى أن قضى عليهم أخوالهم الشبانيون سنة 1069 هـ فلما تأسست الدولة العلوية دخل مولاي رشيد إلى مراكش وقضى عليهم فيها سنة 1079 هـ .

● نقاط التلخيص ●

- تكونت الدولة السعدية على أيدي الشعب ، وكان الهدف الأول من ذلك ، هو الدفاع عن المغرب ، ثم تحولت - بعد انتصارها على البرتغال - إلى محاربة الوطاسيين ، وقضت عليهم ، وملك المغرب من بعدهم .
- كان كل من الأتراك والبرتغاليين يهددون هذه الدولة ، ويتربصون الفرصة لاحتلال المغرب ، ولكن آمالهم كانت تخيب دائماً .
- حدثت معركة وادي المخازن قرب القصر الكبير ، وفيها انتصر المغاربة انتصاراً باهراً على البرتغاليين ، وقضوا بذلك على عظمتهم الحربية والسياسية إلى يومنا . وفيها مات ثلاثة ملوك: ملك البرتغال سبستيان ، والملك المخلوع المتوكل ، وسلطان المغرب، الذي مات بسبب مرض كان قد أصيب به .
- بعد أن استتب الأمن للمنصور الذهبي في البلاد استولى بجيوشه المنظمة على الصحراء والسودان ، الذي كان يجلب منه أحمال الذهب ، ولهذا لقب بالذهبي .
- في سنة 1012 هـ توفي أحمد المنصور، وبعده تعاقب ملوك ضعاف، كثر التناحر بينهم من أجل الملك والسلطان . فأدى ذلك إلى تمكن العلويين من القضاء عليهم سنة 1069 هـ .

اسئلة

- 1 - كيف تكونت الدولة السعدية ؟ من أول مؤسسيها ؟
- 2 - ما الاخطار الخارجية التي كانت تهدد هذه الدولة ؟
- 3 - صف معركة وادي المخازن؟
- 4 - بم تستدل على عبقرية أحمد المنصور الحربية والسياسية ؟ لم لقب بالذهبي ؟
- 5 - متى توفي أحمد المنصور ؟ إلى أي شيء آلت هذه الدولة ؟

الحياة الثقافية في عهد المرينيين والسعديين



الحياة الثقافية في عهد المرينيين

لقد سمي البعض عصر بني مرين بعصر العلم ، وهو بحق كذلك ، ففي الفترة الأولى من حياة الدولة المرينية ، أيام قوتها وعظمتها ، أي قبل قيام الفتن وانتشار الفوضى في العهد الوطاسي وقبله بقليل ، بلغت الحركة الفكرية من القوة والازدهار أعلى مراتب التقدم ، خصوصاً في عهد يوسف وأبي سعيد وأبي الحسن . وقد ساعد على ذلك الازدهار والتقدم عوامل شتى ، منها : أولاً هجرة العلماء الأندلسيين بكثرة إلى مبدن المغرب ، بعد أن بدأت مدنهم وقراهم في الأندلس تسقط في أيدي الإسبان ، الواحدة تلو الأخرى يوماً بعد يوم .

ثانياً: التشجيع الأدبي والمادي الذي كان سلاطين المغرب المرينيون يخصصون به العلماء والأدباء ، وإن كثيراً من هؤلاء السلاطين كانوا يتمتعون

بقسط وافر من الثقافة والمعرفة ، وكانوا يعتنون غاية الاعتناء ، ببناء المدارس وخزائن الكتب المجاورة لها . خصوصاً بالقرويين ، وتحبب الكتب على الطلاب للانتفاع بها في تثقيف عقولهم .

ثالثاً : أدت كثرة الأموال والخيرات إلى ترف الناس وميلهم إلى التأنق في المأكل والملبس والسكن . وصرفت الدولة قسطاً عظيماً من هذه الأموال في بناء كثير من المدارس ، في العاصمة فاس ، وفي سائر أجزاء الوطن . وتفننت وأبدعت في هندسة تلك المدارس وتجميلها ، الشيء الذي تطلب نفقات باهظة . ومن شاهد مدرستي العطارين ، التي أسسها السلطان أبو سعيد ، والمدرسة العنانية ، التي بناها السلطان أبو عنان ، وكلاهما بفاس - من شاهد تينك المدرستين يقف مبهوراً أمامهما من روعة الفن والإتقان الهندسي ، مما يدل على عظم الإمكانيات التي كانت تملكها الدولة ، ومبلغ عنايتها بمرافق الثقافة .

رابعاً : لقد نتج عن الأمن المستتب داخل البلاد وخارجها في عهد المرينيين الزاهر رواج الثقافة وتقدمها ، فضلاً عن رواج التجارة والصناعة والزراعة وتقدمها . ومما يدل على اتساع أفق العلم في العصر المريني هو وجود كثرة من العلماء . ولعلك تذكر في درس سابق ، أن عدد العلماء الذين غرقوا في أسطول أبي الحسن يبلغ 400 عالم . وهؤلاء العلماء الذين صحبوا السلطان في سفره ، لا شك أنهم مختارون من الطبقة العالية ، ناهيك بمن بقي منهم في المغرب ، في مرتبة إخوانهم الغارقين أو أقل منهم قليلاً أو كثيراً .

وأخص ما يتميز به العصر المريني في عالم الفكر والثقافة ، أنه كان يعمل على تعريب المغاربة تعريياً واسعاً ، شمل الحواضر والبوادي .

وشيدت المدارس الكثيرة لهذه الغاية . كما أنه كان يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً مرناً . ولهذا السبب كانت العلوم الرئيسية التي ظهرت في عهد بني مرين هي علوم الشريعة، ثم اللغة والأدب والشعر ، ثم علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافية . أما الفلسفة فلم يكن لها حظ مرموق بين هذه العلوم .

ويلاحظ أيضاً أن الشعب المغربي في عهد المرينيين كان مدفوعاً من تلقاء نفسه إلى الاهتمام بالحركة الفكرية ، والإقبال عليها إقبال الظمآن، في الحواضر والبوادي على السواء . وكان نشاط الشعب في هذا المضمار يفوق نشاط الدولة ، التي لا ينكر فضلها هي الأخرى في العمل على الازدهار الفكري في البلاد .

وقد حرص بنو مرين على أن يوثقوا علاقاتهم بالشرق الإسلامي ، كما وثقوه بالأندلس ، فترتب على ذلك انتقال كثير من علماء الأندلس وأدبائهم وشعرائهم من الشرق إلى المغرب ، فانتفع المغاربة بعلومهم وفنونهم انتفاعاً كبيراً . ومن هؤلاء العلماء : ابن الخطيب وابن خلدون وابن مرزوق .

ومن العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهوروا في العصر المريني الطويل في العلوم الشرعية : أبو القاسم عبد العزيز ، وأبو الحسن الصغير ، والورياغلي . ولهم كتب في فنهم . ومن كبار النحاة ابن آجروم المشهور والمكودي وابن هانيء السبتي . ومن أشهر الشعراء مالك ابن المرحّل . ومن المؤرخين : أبو الحسن الجنائي وابن زرع وابن خلدون ، الذي اشتهر كمؤرخ وعالم اجتماعي، وانتفع بكتبه الشرق والغرب على السواء . ومن الجغرافيين : ابن بطوطة الرحالة المشهور . ومن علماء الفلك

والرياضيات : الحادييري وابن البناء . ومن الأطباء والكيميائيين : أبو الحسن المراكشي وأبو العباس الجزنائي . واشتهر في الحديث والتفسير : ابن رشيد السبي الذي له مؤلفات منها « شفاء الغليل » . وفي التصوف اشتهر زروق ، وابن الحاج ، ولهما مؤلفات أيضاً .

وهكذا عمل بنو مرين على ربط حلقة الماضي بحلقة الحاضر في عالم الحضارة ، خصوصاً في الجانب الفكري . ورغم أن عملهم كان امتداداً للماضي ، إلا أن عصرهم كانت له الصدارة في الازدهار الفكري والطابع القومي إلى حد بعيد . وما زالت مدارس بني مرين وخزائن كتبهم باقية إلى يومنا ، تشهد بعظمتهم ، وبلوغهم غاية المجد في الحضارة والعمران والعلم والأدب والفن .

الحياة الثقافية في عهد السعديين

وصلت الحركة الثقافية في عهد الدولة المرينية إلى أوج عظمتها . ولكن ما أن مالت إلى الضعف في أواخر عهدها ، وفي أيام الوطاسيين حتى توقفت تلك الحركة المباركة توقفاً خطيراً ، وفقدت الحلقة التي تربط الماضي المجيد بحاضر تلك الفترة المضطربة ، التي لم يذق فيها المغرب طعم السلم والراحة . ولولا أن تداركها الله بقيام دولة عظيمة جديدة ، هي الدولة السعدية ، لانقطعت صلتنا بالثقافة الزاهرة القديمة ، وأصبح يفصلنا عنها ، اليوم ، هوة سحيقة غامضة .

ما أن قامت الدولة السعدية حتى أولت عنايتها الكبرى لشؤون الثقافة في البلاد ، فتجددت حركة العلم والأدب ، واحتل رجالها مكانتهم

المرموقة في المجتمع المغربي ، ونشطوا في تأليف الكتب في شتى العلوم والفنون والآداب ، خصوصاً في عهد الملك العظيم ، المنصور الذهبي ، الذي يعتبر بحق فريد عصره ، فيما أولاه من العناية ، بتشجيع العلم والأدب . ولكن يجب أن نثبت هنا ملاحظة هامة ، وهي أن هذا النشاط الثقافي ، الذي أستؤنف من جديد في العهد السعودي ، لم يستطع التقدم إلى الأمام في حرية وانطلاق ، بسبب قيود التأخر ، الذي كان قد أصابه من قبل .

ومن أسباب ذلك الازدهار العلمي والأدبي ، وجود كثير من نوابغ الفكر الأندلسي في المغرب ، الذين هاجروا إليه ، واتخذوه موطناً ثانياً لهم بعد ضياع فردوسهم ، ومضايقة الإسبان لهم في دينهم وعروبهم وثقافتهم . وكان من بين هؤلاء النوابغ علماء فطاحل ، في الطب والفلسفة والحساب والحيوان والنبات ، أو على أيديهم نبغ كثير من المغاربة الافحاح . ولزاوية الدلائن التي تأسست في نواحي تادلة فضل عظيم في الدور العلمي الذي لعبته في عهد هذه الدولة ، خصوصاً في أواخرها ، حيث كانت مصدراً للإشعاع الفكري في مختلف فروعهم ، وحيث حافظت بأمانة على ثقافة المغرب في ثوبها القشيب ، خلال فترة الاضطرابات السياسية ، التي سادت البلاد في آخر أيام الدولة السعودية ، ونشأة الدولة العلوية . وإلى جانب الدور الثقافي العظيم الذي قامت به هذه الزاوية ، قامت بدور سياسي أيضاً ، حيث عملت على تأسيس سلطان لها في المغرب . واشتبكت من أجل ذلك في حروب شديدة ، انتهت بتغلبها على السعوديين ، واستيلائها على فاس ، ومكناسة ونواحي تادلة . وأسست دولتها الدلائية ، واضطر السعوديون إلى عقد الصلح ، وتقسيم البلاد مع

الدلائل ، وهكذا أصبح المغرب مقسماً بين دولتين : سعية ودلائل .

وكان الانتاج الفكري في المغرب على ذلك العهد متنوعاً ، ينبع من الثقافة العربية الاصلية ، ومن بواصر الثقافة الأوروبية ، التي انتقلت إلى المغرب بسبب تردد علماء المغرب على الدول الأوروبية . ومن هذا وذاك تكونت ثقافة مغربية صميمة مع توالي الأيام .

ومن العلوم التي كانت سائدة في ذلك العصر الزاهر، العلوم الشرعية، كالفقه والحديث والتفسير وغيرها . والذي يلاحظ على التأليف في هذه العلوم ، أنه أصبح عبارة عن مختصرات، واقتصر في الاعتماد عليها وحدها وأهملت الكتب المطولة الوافية بالغرض ، التي كانت منتشرة في العهد المريني . وأشهر الرجال الذين نبغوا في تلك العلوم في العهد السعدي : الحاج الشطبي ، المتوفى سنة 960 صاحب كتاب : « اللباب في تفسير الكتاب » ، وابن القاضي صاحب : « الفتح النبيل في أسماء العدد في التزليل » وعبدالله بن طاهر الشريف صاحب : « الدر الأزهر في مناسبات الآيات والسور » المتوفى سنة 1045 هـ ، وعبد الواحد الأنصاري السجلماي المتوفى سنة 1054 هـ وهو صاحب كتاب : « تفسير القرآن ، وغيرهم من الفطاحل .

وانتشرت العلوم الأدبية أيضاً انتشاراً واسعاً . وكان المنصور الذهبي نفسه متضلعا فيها . ومن بين أدباء ذلك العصر والمؤلفين في المادة : علي ابن عبد الواحد ، صاحب ديوان خطب ، وعبد الرحمن التمنارتي صاحب ديوان شعر ، والنابعة الهوزالي صاحب شرح ديوان المتنبي ، وعبد العزيز الفشتالي صاحب مقدمة لديوان المتنبي وشرح مقصورة

المكوّدي ، وغير هؤلاء من النابهن .

وازدهر علم التاريخ بصفة خاصة ازدهاراً فريداً، فكثرت فيه المؤلفات وتعدد المشتغلون به . ولولا عناية أولئك المؤرخين بما كتبوه عن الدولة السعدية ، لكان من الصعب علينا اليوم أن نحيط تماماً بما جريات الأمور في عهدها ، كما هو الشأن فيما يتعلق بتاريخ الوطاسيين ، الذين يكتنف فترتهم كثير من الغموض ، لعدم وجود من أرّخ لعهدهم . ومن بين المؤرخين العظام الذين عاشوا في عهد هذه الدولة : العلامة المقرئ ، صاحب كتاب « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » ، وكتاب « أزهار الرياض » ، وعبد العزيز الفشتالي، وأبي العباس ابن القاضي، ومحمد بن علي النسب وغيرهم .

ومما يدل على تقدير المنصور الذهبي للعلم وأهله ، أنه بذل ألاف الدنانير الذهبية ، لافتكاك أسر العالم ابن القاضي ، السالف الذكر . كما بذل اهتماماً كبيراً أيضاً بعلوم الرياضيات من فلك وهندسة وحساب . وفي الطب نبغ كثير من المغاربة كما نبغوا في غيره ، ونالت هذه المادة العناية الفائقة من الدولة ، ومن رجالها الأفاضل : الوزير أبو القاسم ، وأحمد المُرِيد ، وابن سعيد المرغيثي ، وسواهم .

هذا إلى جانب التقدم الرائع في الفنون، وبالأخص في العمارة والموسيقى. ويتجلى ذلك الفن المعماري العظيم في القصور السعدية ، خصوصاً قصر البديع ، الذي فاق قصري « الزهراء والزهرة » في الأندلس وغيرهما من قصور بغداد . وما زالت مقابر ملوك هذه الدولة في مراكش تشهد بروعة ذلك الفن وجماله .

وبلغ فن الموسيقى مبلغاً عظيماً من الرقي ، حيث حوِّظ على الأَطباع
الأندلسية الرائعة ، كما أضيفت بعض آلات الطرب واخترعت أَطباع
جديدة تطبع الاستهلاك . هذا إلى جانب الازدهار الاجتماعي والسياسي
والاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك .

● نقاط التلخيص ●

● سمي البعض عصر بني مرين بعصر العلم ، وهو بحق كذلك ، خصوصاً في الفترة الأولى من عهدهم ، وأسباب ذلك كثيرة ، منها : هجرة العلماء الأندلسيين إلى المغرب ، والتشجيع الأدبي والمادي من لدن السلاطين ، وكثرة الأموال والخيرات ، واستتباب الأمن .

● أبرز ما يتصف به عصر بني مرين ، أنه كان عريياً محضاً ، وإن الشعب المغربي كان مندفعاً تلقائياً إلى الأخذ بأسباب العلم والثقافة ، إلى جانب تشجيع الدولة .

● من أبرز العلوم التي كانت رائجة في ذلك العصر : العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية والجغرافية والرياضية والطب وغيرها ، ونشط التأليف فيها جميعاً .

● كانت فترة الوطاسيين فترة خطيرة ، توقفت فيها حركة الثقافة توقفاً تاماً ، فلما جاء السعديون عملوا على تنشيطها وازدهارها من جديد ، ونشط التأليف في شتى الفنون نشاطاً كبيراً .

● من أسباب التقدم الفكري في العهد السعدي : هجرة كثير من نوابغ الفكر الأندلسي ، خصوصاً بعد سقوط فردوسهم بالأندلس وحركة الزاوية الدلائية العلمية ، والاحتكاك بالأوروبيين على نطاق واسع ، وغيره .

اسئلة

- 1 - في أي فترة من عهد بني مرين كانت الدولة مزدهرة في عالم الثقافة ؟ ما أسباب ذلك ؟
- 2 - ما أبرز ما يتصف به عصر بني مرين في عالم الفكر ؟ قارن بينهم وبين أمويي الشرق من تلك الناحية ؟
- 3 - أذكر بعض المعارف التي كانت رائجة آنذاك ، ورجلها .
- 4 - عدد أسباب الازدهار الفكري في عهد السعديين . ما دور اللاتين في ذلك ؟
- 5 - ما العلوم التي كانت مزدهرة في عهدهم ؟ قارن بين المرينيين والسعديين في المميزات البارزة حول التقدم الفكري؟

الدولة العلوية

عصر النشوء والاستقرار - المولى رشيد - المولى إسماعيل



ظهور العلويين في المغرب (1079 هـ إلى اليوم)

ينتسب العلويون الحاليون إلى جدهم عليّ الشريف ، السني ينحدر من سلالة علي بن أبي طالب . وقدم أجدادهم إلى المغرب من «يَنْبُعَ» بالحجاز، واستقروا بسجلماسة بتافيلالت . ومن هناك تهيأوا لإقامة دولتهم، التي تعتبر الدولة الثالثة في المغرب من حيث نسبها الشريف . فالأدارة والسعديون والعلويون كلهم أشراف .

وكانت لعلّي هذا صداقة متينة مع أبي حسون السملالي ، أمير البلاد السوسية ، كما كانت له عداوة شديدة مع أهل تبوعصامت ، الذين يقطنون في حصن قوي البنيان ، ولما اعتدى عليه أهل تبوعصامت استعان عليهم بصديقه السملالي ، بينما قام أعداؤه بالاستنجد بالدلائين أصحاب

فاس ومكناسة ونواحيها بما في ذلك تادلا . ثم سلك أهل تبوعصامت خطة جديدة في محاربة الشريف، وهي أنهم مالوا إلى أبي حسون السملالي وأطاعوه فيما أراد ، ثم عملوا على إفساد العلاقة القائمة بينه وبين علي الشريف ، وهكذا دأبوا ، إلى أن حققوا مرادهم ، وتحكمت العداوة بين الصديقين بالأمس .

وغضب لذلك محمد ولد علي الشريف ، وانتهاز الفرصة وغزا ليلاً حصن تبوعصامت ، على حين غفلة من أهله ، وفك بهم فتكاً ذريعاً ، وما أن علم الأمير أبو حسون بذلك ، حتى استشاط غضباً ، وكلف عامله بسجلماسة أن يحتال على إلقاء القبض على علي الشريف ، ويبعث به إليه ، فنفذ العامل الأمر ، ولم يفتكّ مراح الشريف إلا بعد أن دفع ولده محمد مالاً جسيماً إلى الأمير السملالي . وهكذا عاد علي الشريف إلى مسقط رأسه بسجلماسة وذلك سنة 1047 هـ .

ثم كثر أنصار محمد بن علي الشريف من أهل السوس، وكان معظمهم يحقنون على عمّال أبي حسون ، لشدة ظلمهم لهم . فحارب محمد بأنصاره أولئك العمال، بدون هوادة ، حتى طردهم من مراكزهم . وعقب ذلك بايعه السوسيون ، وذلك سنة 1050 هـ ، في حياة والده . وتصدى منذ ذلك التاريخ إلى مواصلة الحرب ضد أبي حسون ورجاله، فنشبت بين الطرفين حروب مهولة ، تم النصر فيها لمحمد ، بينما حلت الهزيمة النكراء بالسملاليين ، فثبت قدمه بذلك النصر المبين ، وقويت عزيمته ، فتعقب السملاليين ، واستولى على ما كانوا يستولون عليه من البلاد ، من أعمال السوس ودرعة .

ثم اصطدم مع جماعة الدلائين، التي كانت مسيطرة على فاس ومكناسة

ونواحيها، إلى مدينة سلا . وكان البادىء بالحرب هم الدلائون . فانهزم محمد بن علي الشريف، وأخضع الدلائون سجلماسة. ثم وقع صلح بينه وبينهم، على أن يحتفظ بالصحراء إلى بني عياش ، بينما يظل باقي المغرب في أيدي الدلائين .

ثم وقعت حرب أخرى بين محمد والدلائين تمكن فيها من الاستيلاء على فاس والقضاء على الدلائين ، وذلك سنة 1060 هـ . ثم استولى بعد ذلك على مدينة وجدة ، وقام بالإغارة على تلمسان ، التي يحتلها الترك، فأصاب أهلها وحماهم من الأتراك بشر عظيم .

وفي سنة 1069 هـ توفي علي الشريف ، فجدد الناس بيعتهم لابنه محمد ، وأنداك فرّ منه أخوه مولاي رشيد إلى الجبال .

عصر الاستقرار والعظمة

دور مولاي رشيد (1079 — 1082 هـ)

لما فرّ مولاي رشيد من أخيه الأمير محمد ، أخذ يتنقل في جنبات المغرب. من مدينة إلى أخرى إلى أن وصل أرض بني يزناسين . وهناك نزل ضيفاً على رجل فاضل . وبينما هو ذات يوم يتجول في أحياء بني يزناسين ، إذا به يرى يهودياً راكباً جواداً ، في حلة الملوك وأبتهم ، فسأل عنه : من يكون هذا ؟ فقبل له : أنه ابن مشعل اليهودي ، أغنى رجل في البلد . وفي تلك اللحظة طرأت عليه فكرة غريبة ، وهي أن يحتال على هذا اليهودي حتى يقتله ، ويسلب أمواله ، ليؤسس بها

جيشاً يحارب به أخاه محمداً ويستولي على عرش المغرب مكانه .
وفعلاً عمد إلى اليهودي الثري ، ونفذ فيه أمره . وهكذا أصبحت
لديه أموال طائلة، فرّق كثيراً منها على أنصاره . ولم يمض زمن طويل
حتى كثر عدد أنصاره، فكوّن منهم جيشاً عرمرماً . ولما طرقت أخباره
مسامع أخيه الأمير محمد خاف هذا على عرشه ، فأعد جيشاً كثيفاً ،
واتجه به لمحاربة أخيه رشيد . وفي بسيط آنكاد بشمال المغرب ، التقى
الجمعان ، وخاضا معارك دموية عنيفة . وأصاب أول رصاصة أطلقت
الأمير محمداً فأردته قتيلاً .

وعقب ذلك ببيع مولاي رشيد ملكاً على المغرب خلفاً لأخيه المتوفى،
وذلك سنة 1075 هـ . فكان هذا بحق المؤسس العظيم للدولة العلوية .
ونفض من أول وهلة لإخضاع الجهات التي لم تدخل بعد في حكمه .
فاستولى على فاس وغيرها ، وقضى على الدلائين . وفي سنة 1079 هـ
دخل مراكش ، وقضى على أسرة الشبانات ، التي كانت تحكم في تلك
الجهات ، والتي كانت القاضية على آخر ملوك السعديين كما استولت
بعدهم على مدينة مراكش العاصمة السعدية .

وكان مولاي رشيد يمتاز بخصال كريمة كالشجاعة والعزم والمعرفة .
ومن أعماله الهامة : أنه ثبت دعائم الأمن في البلاد ، خصوصاً بعد
توحيدها . وكوّن جيشاً من قبائل شراقة (القبائل الواقعة في شرق
المغرب) . وبنى قنطرة مهمة على وادي اسبو خارج فاس سنة 1079 هـ
ثم ضرب السكة باسمه ، وبنى بفاس مدرسة الشراطين ، التي تعتبر من
أجل أعماله في ميدان العلم .

وفاته وتولية مولاي اسماعيل امبراطور المغرب (1082 - 1139 هـ)

وفي سنة 1082 هـ توفي مولاي رشيد بمراكش ، بسبب ارتطامه بشجرة في بستان المسرة ، أثناء جموح الفرس الذي كان يركبه . مات هذا البطل وله من العمر اثنتان وسبعون سنة .

وبعد مولاي رشيد تولى الملك أخوه مولاي إسماعيل ، وكان هذا من قبل نائباً عن أخيه الأمير في مكناسة ، فلما أعلنت الوفاة بايعته جميع جهات المغرب إلا مدينة مراكش . لأن أهلها كانوا قد بايعوا ابن أخيه المسمى أبا العباس أحمد ، والتفوا حوله . وكان عمر مولاي إسماعيل يوم توليته ستة وعشرين ، وما أن تمت بيعته حتى نهض لمحاربة ابن أخيه بمراكش ، فتغلب عليه ودخل المدينة عنوة سنة 1083 هـ . وعفا عن أهلها .

وكانت مكناسة أحب بلد إلى قلبه ، ولذا اتخذها عاصمة لدولته ، وبنى بها القصور الفخمة والدور الأنيقة ، والمساجد الجميلة ، والمصانع المختلفة ، ومستودعات الأسلحة والمؤن ، ومهد طرقها ، وأحاطها بالبساتين الياقة . وكان يصبو إلى أن يجعل مكناسة تضاهي أجمل مدن فرنسا . واستعان في بنائه للمدينة بآلاف الأسرى من النصارى ، الذين قبض عليهم في حروبه المتعددة ضدهم .

وكانت مكناسة قبل الإسلام عبارة عن حصن منيع شيده البربر . فلما جاء الموحدون حاصروه مدة سبع سنين ، ولما استولوا عليه خربوه ، تشفياً من أهله الذين ظلوا يقاومونهم تلك المدة الطويلة ، وبعد ذلك بنى الموحدون مكناسة جديدة ، ولما جاء بنو مرين اعتنوا بالبناء في المدينة ، فشيدوا بها عدة مساجد ودوراً للعلم وغيرها .

ومن أعمال مولاي إسماعيل الحربية : أنه أرسل جيوشه لاستعادة المغرب الأوسط إلى حكمه كما كان الشأن في عهد الدول المغربية السابقة ، وهناك تقابل الجيشان : المغربي والتركي ، ولكنها لم يشبكا في حرب ، بل تصالحا ، وذلك سنة 1089 هـ . وفي هذه السنة نفسها فتك المجاهدون الريفيون بكثير من النصارى المحتلين لطنجة ، واستولوا على بعض مراكزها .

وفي سنة 1092 هـ استعاد المجاهدون مدينة العمورة (المهدية) من أيدي الإسبان ، حسب أوامر السلطان ، بعد ما مكثوا بها مدة اثنتين وسبعين سنة تقريباً ، أي منذ عهد السلطان المعروف بالشيخ ابن المنصور . وسمع ذات مرة بأن الأتراك دخلوا التراب المغربي من الجزائر واستولوا على بني يزناسين ، فأسرع لمحاربتهم ، ولكنه لما وصل إلى عين المكان ، وجد الترك قد رحلوا عنه .

وفي سنة 1095 هـ استعاد المجاهدون مدينة طنجة ، التي كانت بأيدي الانجليز في ذلك الوقت ، والتي لم يخرجوا منها إلا بعد أن هدموا معظمها ، حقداً وغضباً على المغاربة ، الذين نغصوا عليهم الحياة في تلك المدينة الجميلة الوادعة . وفي سنة 1102 هـ حاصر المجاهدون مدينة العرائش حصاراً شديداً ، إلى أن سقطت في أيديهم ، وكان الإسبان قد تمكنوا منها زمناً طويلاً ، منذ عهد السلطان الشيخ ابن المنصور . وفي نفس السنة توجه المجاهدون إلى آصيلا وتغلبوا على محتليها من الأجانب واستولوا على المدينة .

ثم باشر المجاهدون مع فرق جيش السلطان محاصرة سبتة محاصرة شديدة ، مدة طويلة من الزمان ، ولكنها لم تفتح . وغضب السلطان

بسبب ذلك على قواد جيشه المحارب .

كان المغاربة يلبسون نعلاً سوداء حداداً على ضياع أجزاء من التراب الوطني ، خصوصاً ثغوره الساحلية . فلما استعادها البطل اسماعيل ، حتى لم يبق في أيدي الأجانب من تلك الثغور إلا سبتة ، استبدلوا النعال السوداء علامة الحزن بنعال صفر علامة الفرح والسرور، لما حققه ملكهم من انتصار على أعداء الوطن .

وما زال المغاربة يلبسون النعال الصفر إلى يومنا . وإن دل هذا العمل من جانب الشعب على شيء فإنما يدل على قوة الشعور الوطني ، الذي كان يتأجج في نفسه في ذلك الوقت .

وبعد هذه الأعمال الجلييلة ، وجه السلطان اهتمامه الكبير إلى احتلال الصحراء وبلاد السودان ، فتم له ما أراد . ووصل في السودان إلى تخوم النيل . وهكذا شملت إمبراطوريته الواسعة : المغرب والصحراء وممالك السودان . وبسبب من سياسته وما أحرزه من الانتصارات العظيمة في حروبه هابته معظم الدول الأوروبية، وعقدت معه صلات ودية بغية تبادل المنافع ، خصوصاً فرنسا ، التي كانت علاقة المغرب بها قوية ، حتى سعى المولى إسماعيل في عقد قرانه بابنة ملكها لويس الرابع عشر ، ولكن المسعى لم يتحقق .

ومن أعماله أيضاً أنه كوّن جيشاً منظماً من قبائل المغرب وأطلق عليه اسم جيش الوداية . ثم كوّن جيشاً عظيماً آخر من العبيد السود ، وسماهم عبيد البخاري . وقد وصل تعداد هذا الجيش الأخير في نهاية الأمر إلى خمسين ومائة ألف مقاتل . وهؤلاء العبيد هم من بقايا السود الذين جلبهم المنصور الذهبي . وسموا بعبيد البخاري لأن السلطان إسماعيل

في اجتماعه الأول بهؤلاء العبيد طلب منهم أن يعاهدوه على كتاب صحيح البخاري ، الذي أحضر معه نسخة منه ، بأن يكونوا له أمناء مطيعين ، لا يحيدون قيد أنملة عما في الصحيح المذكور ، وأن يصحبوه معهم في حلّهم وترحالهم ، حتّى يكون لهم تذكرةً ، لما عاهدوه عليه .

وقد ساعد هذا الجيش القوي على استتباب الأمن في البلاد مساعدة فعالة . ووزع السلطان فرقاً منه على قرى المغرب وطرقه الهامة لمراقبتها ، وقع من تسوّّل له نفسه شقّ عصا الطاعة . وفي هذا الصدد جرّد إسماعيل جميع القبائل المغربية من أسلحتها ، ولم يستثن منها إلا أهل الريف ، لأنهم عرفوا دائماً بإخلاصهم للعرش وملازمة الجهاد من أجل الدين والوطن ضد الأعداء .

وهكذا ضبط مولاي إسماعيل الأمن في ربوع امبراطوريته الواسعة ، وطهر ثغورها التي كانت بأيدي الأجانب المغتصبين . ولم يبق في حوزتهم إلى الآن إلا سبّعة التي نرجو لها الخلاص إن شاء الله .

هذا إلى جانب ما شيده في طول البلاد وعرضها من المصانع والحصون والأبراج ، وما بناه من المدارس العديدة ، عنايةً منه بالشؤون الحربية والعلمية ، وما بذله من عناية فائقة في تخطيط البساتين ، وجلب المياه إليها في نظام متقن يفوق كل تقدير .

وفاة إسماعيل ومآل الأمر من بعده

وفي سنة 1139 هـ توفي السلطان العظيم مولاي إسماعيل بعد أن قضى في الحكم مدة 57 سنة ، لم يكدر عليه خلالها إلا ثورتان خطيرتان قامتا

ضده : ثورة ابن محرز، وثورة ابنه محمد العالم . ومن أخطائه السياسية، أنه قسّم البلاد بين بعض أبنائه سنة 1111 هـ ، فكان ذلك من أقوى الأسباب في ضعف الدولة العلوية ، إذ تقاتل الإخوة على الملك ، فجرّ ذلك على الشعب المغربي ويلات عظيمة ، ثم تفاحش خطر قواد جيش العبيد فبدأوا يولون ويعزلون ويقتلون من شاءوا من الملوك وموظفي الدولة. وانتهى أمر هؤلاء العبيد أيضاً بأن تفرقوا في البلاد شذرمذر . ولم يستعد مكانة الدولة العلوية وأمر هذا الجيش من جديد إلا السلطان مولاي محمد بن عبدالله .

● نقاط التلخيص ●

- ينتسب العلويون الحاليون إلى جدهم الأدنى علي الشريف، المنحدر من علي بن أبي طالب. وقد استقروا في سجلماسة بتافيلالت وأسسوا بها إمارتهم الأولى ، التي كانت غايتها مبدئياً الجهاد ضد الغزاة الأجانب .
- أسس مولاي رشيد دولته العلوية في بلاد الريف بسواعد أبنائه ، وبالأموال التي جمعها هناك . وهو الذي قضى على الزاوية الدلائية منافسته السياسية ، ولكنه أبقى على علمائها ليستفيد منهم الشعب ، كما قضى على إمارة الشبانات بمراكش ، أخوال السعديين . وبذلك صفا له ملك المغرب .
- في سنة 1082 هـ توفي مولاي رشيد ، فتولى من بعده أخوه مولاي إسماعيل ، فحرر هذا جميع ثغور المغرب من المحتلين الأجانب ، باستثناء سبتة . ففرح الشعب واستبدل النعال السود علامة الحزن بنعال صفر علامة الابتهاج .
- كوّن مولاي إسماعيل جيوشاً عظيمة منظمة من المغاربة العرب والبربر ، ومن العبيد السود ، الذين بلغ تعدادهم وحدهم 150 ألفاً . وبواسطة تلك الجيوش وطد إسماعيل أمن البلاد، واستعاد الصحراء ، والسودان ، الذي توغل فيه كثيراً .
- في سبيل الأمن أيضاً جرّد جميع القبائل المغربية من سلاحها، ولم يستثن إلا قبائل الريف، تقديراً لها على جهادها في سبيل التحرير، وشدة تعلقها بالعرش العلوي .

أسئلة

- 1 - من أين ينحدر العلويون ؟ أين استقروا في المغرب ؟ كيف تكونت إمارتهم الاولى ؟
ما السبب في تكوينها ؟
- 2 - كيف أقام مولاي رشيد دولته العلوية ؟ أين ؟ ما رأيك في حربه ضد أخيه ؟
- 3 - تحدث عن أهم أعمال مولاي إسماعيل الحرية والسياسة. ما أهمية جيش المييد الذي أنشأه ؟
- 4 - على أي شيء يدل استبدال المغاربة للتمال السوداء بتمال صفر ، في أيامه ؟
- 5 - لم استثن قبائل الريف من تجريدتهم من السلاح ؟ ما دور هذه القبائل الحربي في عهدي رشيد وإسماعيل ؟
- 6 - إلى أي شيء آلت حال البلاد بعد موت إسماعيل . ما علة ذلك ؟

عصى الازدهار المولى محمد بن عبدالله وحرركته الاصلاحية



تولية مولاي محمد وصفاته (1171 - 1204 هـ)

مال المغرب — كما قلنا — بعد وفاة بطله العظيم مولاي إسماعيل إلى أسوأ الحالات من الفوضى والاضطراب، حتى سئم الناس المهرج والمرج، ولم تهدأ العاصفة وبتحسن الجو إلا بعد أن تقلد أمور المسلمين مولاي محمد بن عبدالله . وما أن بويع هذا الملك الشهم سنة 1171 هـ حتى أسرع بالضرب على أيدي المفسدين ، فضبط أمن البلاد ، ووجد صفوف الأمة .

ومن صفات مولاي محمد هذا أنه كان قوي الحزم ، واسع السياسة شغوفاً بالإصلاح ، ميالاً إلى السلم ، كما أنه كان عالماً متضلماً في كثير من فروع العلم، محباً لمجالسة العلماء ، مشجعاً للطلاب بالمال والكتب

على الدراسة والتحصيل . وقد ألف بنفسه عدة كتب ، ولم يتعلم إلا بعد أن كبر . ولما تولى أمر البلاد ترك نهائياً دراسة الأدب والتاريخ ، بعد أن أصاب منها حظاً وافراً ، وعكف بعد ذلك على دراسة الحديث الشريف . وقد ضبط لدراسته أوقاتاً خاصة لم يكن يتخلف عنها أبداً .

نشاطه في الميدان الحربي

وكان يقوم بجولات عبر مدن المغرب ، خصوصاً ثغوره الساحلية ، وذلك من أجل استتباب الأمن ، وتحصين مرافق البلاد بما يلزم من وسائل الدفاع، كبناء الحصون والأبراج ، وإقامة المدافع الضخمة عليها ، وشراء المراكب البحرية ومعدات اللازمة من الدول الأوروبية ، التي كان معجباً كل الإعجاب بتقدمها وحضارتها ، خصوصاً في الميادين الحربية والسياسية والاقتصادية . كما شيد في موانئ المغرب عدة مصانع لبناء السفن ، خصوصاً في مدينتي العرائش وسلا . وقد بلغ أسطوله البحري حوالي ستين قطعة بين كبيرة وصغيرة ، وبلغ عدد بحارتها حوالي ستة آلاف جندي . وهكذا عمل على إحياء الأسطول المغربي القديم ، أيام عظمته . أما جيوشه البرية فقد كانت في غاية التنظيم ومزودة بأحدث أسلحة ذلك العصر .

وقد استطاع بقوته الحربية أن يطرد البرتغاليين المحتلين لمدينة الجديدة وأن يستعيدها إلى باقي الوطن سنة 1182 هـ . بعد أن ظلت في أيدي العدو منذ عهد السلطان الغالب بالله السعدي . وبذلك سجل آخر انتصار للدولة المغربية على دولة البرتغال . ولم يبقَ في يد المحتلين الأجانب من

أرض الوطن سوى سبتة ومليلية . اللتين كانتا ييسد الإسبان وما زالتا إلى يومنا .

وحصل ذات مرة أن المراكب المغربية ألقت القبض على عدة مراكب فرنسية في فترات مختلفة ، وساقتها إلى الموانئ المغربية . فما كان من الفرنسيين إلا أن هاجموا بمراكبهم البحرية ثغر سلا في أواخر سنة 1178 هـ ، وقذفوه بوابل من القنابل فردت المدفعية المغربية الحارسة للشواطئ بالمثل ، وأمام ذلك اضطرت المراكب الفرنسية أن تنسحب ، بعد أن أحدثت بالمدينة عدة تخريبات . وفي سنة 1179 هـ ، هاجموا بمراكبهم العرائش ورموها بالقنابل من البحر ، ثم أنزلوا إلى برها ألف جندي ، في قوارب ، وأحرقوا بمرسأها سفينة كبيرة ، كان المغاربة قد استولوا عليها من قبل ، كما أحرقوا بالميناء مراكب أخرى ، ولكن المسلمين هجموا عليهم على حين غفلة ، وتمكنوا من اغتنام أحد عشر قارباً ، بينما فر الباقي ، كما أسروا من جيش العدو مئات الجنود ، لم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعت دولتهم مالا كثيراً من أجلهم .

وفي سنة 1184 هـ ، قام بضرب حصار شديد على مدينة مليلية ، وأمطرها بوابل من قنابل مدافعه ، فبعث إليه ملك الإسبان يذكره بمعاهدة السلام ، التي كانت قد عقدت بينها منذ زمان ، فكان جواب السلطان : بأن تلك المعاهدة خاصة بالبحر ، ولا يدخل البر ضمنها ، ومليلية واقعة في التراب المغربي ، فلا مهادنة عليها . ثم مال الجانبان إلى الصلح ، بعد أن أطلع الإسبان السلطان على النص العربي للاتفاق على غير حقيقته ، إذ كان الأصل «بحراً لا برأ» فحذفوا «لا» ووضعوا مكانها «و» فصارت عبارة النص : «بحراً وبرأ» .

اهتمامه بالناحية الاقتصادية

لقد اهتم هذا الملك العظيم بالناحية الاقتصادية في البلاد اهتماماً بالغاً، فأكثر من الاتصال بالدول الأوروبية من أجل الاستفادة منها اقتصادياً وسياسياً . وشجع التجار المغاربة على توثيق العلاقات التجارية مع مختلف الدول الأجنبية . وهكذا .. كانت البضائع الأوروبية تحمل الى الموانئ المغربية بدون انقطاع . وقد بنى ثغر الصويرة سنة 1178 هـ ، كي يقوم مقام ثغر أكادير الذي كان يتعرض لهجمات الثوار من آن لآخر . كما أصلح مرسى الدار البيضاء وغيرها . وأعفى التجار الأجانب المقيمين بالثغور من كثير من الضرائب ، حتى ينشطوا في حركتهم التجارية التي تعود بالنفع العميم على المغرب .

وكان المغرب يأخذ ضرائب جمركية على ما يرد إليه من البضائع الأوروبية ، وكانت المراكب الأجنبية تعود إلى بلادها مُحملةً بأنواع من البضائع المغربية . وكثيراً ما كانت البضائع المجلوبة إلى المغرب من أوروبا أسلحة وذخائر حربية أيضاً .

علاقاته السياسية بالدول الأوروبية

كانت علاقة هذا الملك بالدول الأجنبية علاقة قوية جداً ، لأنه كما قلنا سابقاً ، كان معجباً بالتقدم الأوروبي ، وفي الميدان الحربي والسياسي والاقتصادي على الخصوص . وكان يسعى من وراء تلك العلاقة أن يؤمن المغرب من شر الدول الأوروبية من جهة ، وأن يستفيد منها من جهة أخرى .

ومن هذه الاتصالات السياسية ، أنه بعث بكتاب الى ملك الإسبان يطلب منه فيه أن يحسن معاملة الأسرى المسلمين . فما أن عرف الملك الإسباني فحوى الكتاب حتى طار فرحاً وسروراً ، وأسرع في الحال بإطلاق سراح ما لديه من أسرى المسلمين ، ووعده بإطلاق سراح الباقي منهم في أقرب فرصة . وبعث إلى سلطان المغرب وفداً من القسس والضباط ، مع هدية سنية ، وكتاب يتضمن عبارات الود والصفاء .

وفي سنة 1179 هـ بعث مولاي محمد إلى فرنسا وفداً مغريباً لعقد الصلح مع الفرنسيين ، وقبض مال أسراهم الذين أُلقي القبض عليهم أثناء هجومهم على العرائش . وكلف السلطان وفده أن يتهزز الفرصة فيشتري المراكب البحرية ولوازم الحرب . فقام الوفد بمهمته أحسن قيام . وفي سنة 1181 هـ، عُدّ اتفاق سياسي وتجاري بين المغرب والدانمرك وبموجبه تدفع الدانمرك للمغرب خمسة وعشرين مدفعاً في كل سنة ، ومبلغ ستة آلاف وخمسمائة ريال . ومثل هذا الاتفاق عقد مع السويد . إلا أن المال الذي كان عليه أن يدفعه هو عشرون ألف ريال فقط ، في كل سنة . وهكذا سار في اتفاقاته مع الدول الأخرى ، كإنجلترا وفرنسا .

وفي سنة 1182 هـ بعث إلى ملك الإسبان رسالة طلب منه فيها للمرة الثانية أن يطلق ما بقي تحت يديه من أسرى المسلمين . فأجابه الملك الإسباني بأنه لم يبق عنده أسير مغربي ، ولكن الذين بقوا عنده هم أسرى جزائريون . فعزّ على مولاي محمد أن يظل المسلمون في الأسر، سواء كانوا مغاربة أو غيرهم ، لأن المسلمين كلهم إخوة سواسية . وهكذا توسط بين باي الجزائر، وملك الإسبان في شأن الأسرى الجزائريين،

حتى أطلق سراحهم جميعاً .

وقد أنفق أموالاً باهظة في سبيل افتكاك الأسرى المسلمين بدون تمييز ، حتى لم يبق أسير مسلم في البلاد الأوروبية . وقد بلغ عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم خمسين ألف أسير مسلم تقريباً . وكان هذا الملك أول من اعترف رسمياً باستقلال الولايات المتحدة .

علاقاته بالدول الإسلامية

لقد نهج هذا الملك العظيم نحو الدول الإسلامية سياسة خاصة تتسم بربط أوثق العلاقات ووشائج الأخوة التي أوجبها ديننا الحنيف بين المسلمين ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

ففي سنة 1179 هـ بعث إلى السلطان التركي مصطفى العثماني وفداً مغرباً يحمل معه هدية عظيمة، هي عبارة عن مجموعة من الخيول المغربية الجيدة مع سروجها المذهبة والمرصعة بالأحجار الكريمة . فأدخلت هذه الهدية على السلطان التركي سروراً لا مزيد عليه . وبعث بدوره إلى سلطان المغرب هدية نفيسة هي عبارة عن مركب بحري موسوق بآلات الحرب من مدافع ومهاريس وبارود ولوازم بحرية .

وفي سنة 1180 هـ أرسل مولاي محمد إلى السلطان التركي مصطفى العثماني وفداً آخر مصحوباً بهدية مهمة تقديراً لهدية الأتراك الحربية .

وفي سنة 1181 هـ عاد ذلك الوفد إلى المغرب بهدية أعظم من الأولى، هي عبارة عن مركب مشحون بالمدافع ولوازم البحرية، وثلاثين مهندساً

وفنياً تركياً للعمل في الجهاز العسكري المغربي ، فرست المراكب بنغر العرائش، ووزع أولئك الفنيون الأتراك على مختلف المدن ليعمل كل منهم في دائرة اختصاصه .

وفي 1182 هـ زف السلطان محمد ابنته إلى الشريف سرور أمير مكة، وبعث مع العروس أخاها الأكبر مولاي علي ، وهديّة ذات بال إلى سلطان طرابلس ، وأخرى إلى سلطان مصر والشام ، وأموراً طائلة لتفريقها في المشرق على الشرفاء والعلماء في مكة على الخصوص . وبلغ جهاز ابنته مائة ألف دينار من الجواهر والذهب .

وفي سنة 1199 هـ أسر الجزائريون سيدة إسبانية من الأسر العظيمة ، ورجاه ملك الإسبان أن يتوسط في القضية لفك أسر المرأة بأي ثمن يطلب في شأنها . فاتفق في الحال سلطان المغرب بباي الجزائر التركي ، كتابة ورجاه أن يطلق سراح تلك السيدة ، مقابل الثمن الذي يرتضيه ، ولكن حاكم الجزائر أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في الموضوع ، لأن الأسيرة من سبي العسكر ، وليس في مقدوره أن يرغمهم على فدائها . فما كان من مولاي محمد إلا أن راسل السلطان التركي وهو عبد الحميد آنذاك، في نفس الموضوع ، فكتب سلطان الترك إلى حاكمه بالجزائر ، يوجّه على رد شفاعته سلطان المغرب العظيم ، وأمره بأن يطلق في الحال تلك المرأة ، ويسلمها إلى مولاي محمد بدون قيد أو شرط ، وان يطلب منه الاعتذار على رفضه السابق .

ومما قاله السلطان التركي في رسالته إلى صاحب الجزائر : إن الواجب عليكم أن تبادروا بإطلاق سراح تلك المرأة وتسلموها إلى سلطان المغرب بدون أي مال ، حتى ولو كانت ألف امرأة أسيرة لا امرأة واحدة ،

وقال أيضاً في الرسالة : أو ما رأيتم عدد الأسرى من الأتراك ومن سائر المسلمين ممن افتكهم ساطان المغرب من الأسر ، من كثير من الدول الأجنبية . حتى لم يبق في بلاد النصارى مسلم أسير واحد ؟ . وهكذا سلمت المرأة الإسبانية إلى مولاي محمد واعتذر له حاكم الجزائر التركي عما فرط منه . فسلمها سلطان المغرب بدوره إلى ملك اسبانيا ، بدون مقابل ، تعزيزاً للسلام وتدعيماً لروابط الصداقة السياسية . وقد أمد ذات مرة الدولة التركية بستة ملايين دينار ذهبي إعانة لها في حربها ضد روسيا .

وهكذا سار هذا الملك العظيم في سياسته الأخوية مع كافة الدول الإسلامية ، خصوصاً مع الأتراك باعتبارهم المتزعمين للعالم الإسلامي آنذاك ، فكان بذلك يعمل بحق في سبيل توحيد صفوف المسلمين ، أو على الأصح في سبيل تحقيق فكرة الجامعة الإسلامية ، التي عمل من أجلها قادة الإسلام في الشرق ، قديماً وحديثاً .

أعماله العظيمة الأخرى

وبالإضافة إلى ما قام به هذا المصلح الكبير من الأعمال الحربية والسياسية والاقتصادية، داخل البلاد وخارجها ، حتى انسم عصره بالقوة والسلام والازدهار في كافة النواحي - بالإضافة إلى ذلك كله فقد أولى ميادين أخرى اهتماماً بالغاً . ففي الناحية الدينية والعلمية والعمرانية بنى عدة مساجد ومدارس في كافة مدن المغرب ، وأصلح برامج التعليم ، وشجع العلماء على تأليف كتب دراسية تسير وفق المنهاج المقرر الذي وضعه

واعتنى مادياً وأديباً بتحسين أحوال القضاة وأئمة المساجد والعلماء والطلاب ، وأنشأ خزائن الكتب ، وشجع المهتمين بالعلم على الاطلاع والتحصيل مما في تلك الخزائن من الكتب النفيسة . وما زالت آثاره العمرانية ماثلة للعيان إلى يومنا هذا في كل المدن المغربية ، ومنها مدينة الصويرة ، وما تحتوي عليه من المنشآت العسكرية والمدارس ، وكذا مسجد السنة بالرباط وسواها .

وقد ساعده على تحقيق تلك الإصلاحات العظيمة، والمشاريع الحيوية ، وجود الأموال الوفيرة التي كانت خزانة الدولة ملأى بها ، والتي كان مصدرها الجمارك المفروضة على المراكب الأجنبية وبضائعها وضرائب أخرى سنها في البلاد على المنتوجات الوطنية لصالح الأمة .

وفاته :

وفي سنة 1204 هـ اختطفته يد المنون بمدينة الرباط . وبموته طويت صفحة من أعز صفحات المجد والعظمة في تاريخ المغرب .

● نقاط التلخيص ●

● بعد وفاة مولاي إسماعيل عاد المغرب إلى أسوأ الأحوال . ولم يستعد هدوءه وقوته إلا بعد أن تولى أمره مولاي محمد بن عبد الله .

● في الناحية الحربية قام هذا الملك بجولات عبر مدن المغرب وقراه ، من أجل استتباب الأمن ، وتحصين ثغوره بالمدافع لصدد هجوم الأعداء . كما كوّن جيشاً قوياً ، وأسطولاً بحرياً عصرياً للغرض نفسه .

● في الناحية التجارية والاقتصادية ، أنشأ عدة علاقات مع مختلف الدول الأوروبية ، عادت بالنفع على المغرب مادياً وأدبياً . وكان المغرب في عهده أول من اعترف باستقلال اميركا من بين الدول .

● بالغ في العناية بالمعرفة ، فأصلح برامج التعليم ، وشجع العلماء على تأليف الكتب . وبنى عدة مدارس وخزائن للكتب . وأباح لطلاب العلم الاطلاع والاستفادة مما حوته من المؤلفات النفيسة .

● كانت علاقاته بالدول الإسلامية تكتسي أهمية خاصة ، خصوصاً مع تركيا التي كانت تمثل العالم الإسلامي والعربي في المجال الدولي آنذاك . وقد ساعد السلطان المغربي هذه الدولة مالياً في حربها مع روسيا ، إلى جانب مساعدتها سياسياً .

اسئلة

- 1 - تحدث عن أعمال مولاي محمد بن عبدالله الحربية واستعداداته العسكرية .
- 2 - ما مبلغ الاهتمام الذي أولاه للاقتصاد ؟ ما الذي ساعده على ازدهاره ؟
- 3 - كيف كانت علاقاته السياسية مع الدول الاوروبية ؟ ما رأيك في سياسته تلك ؟
- 4 - بم امتازت علاقاته مع الدول الإسلامية ؟
- 5 - تكلم عن مدى التقدم العلمي في عهده .

المغرب والمطامع الأجنبية

المولى الحسن وأعماله الإصلاحية

(1290 - 1311 هـ)



مبايعة مولاي الحسن وصفاته

في سنة 1290 هـ اعتلى مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن أريكة الملك ، في وقت كانت فيه أحوال المغرب قد ساءت كثيراً ، من جراء الفوضى والاضطراب والضعف الذي ساد البلاد طويلاً وعرضاً . أضف إلى ذلك وجود الأطماع الأجنبية في الأفق المغربي ، نتيجة لتسابق الدول الأوروبية من أجل الاستئثار بخيرات المغرب الوفيرة ، ومزاومة أهله في العيش .

وكان هذا السلطان العظيم يتحلى بصفات عالية : كقوة الشخصية والشجاعة والحزم والتبصر السياسي والدين والورع والعلم والكرم والتسامح

واليقظة والتفاني بل التضحية براحته ثم بحياته من أجل مصلحة المغرب والمغاربة. فكانت توليته على الأمة - في تلك الظروف الصعبة - برداً وسلاماً ، بل معجزة بعثها الله اليها لإنقاذها ، ولو إلى حين، من الوقوع في قبضة الاستعمار ومذلة الخنوع لسلطانه الغاشم .

أعماله وإصلاحاته

توطيده للأمن وتقويته للجهاز الدفاعي :

كان أول عمل قام به هذا الملك المهام أنه أخذ يطوف أنحاء المغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويضرب على أيدي أولئك المفسدين ومثيري الفتن والقلاقل ، مستعملاً القوة والعنف مع من طغى منهم وتجبر ، ولم يرض أن يذعن إلى الخلود والسكينة، ومفضلاً التسامح والكرم مع من تاب وأصلح، وعاد إلى التمسك بحبل الطاعة . وهكذا أحل الأمن بالبلاد ، فاطمأن الناس على حياتهم وأموالهم وأحبوا أميرهم المنقذ حباً جمّاً . وإلى جانب هذا العمل الجبار كان يبني الحصون والأبراج ، وينصب فوقها المدافع الضخمة والمهاريس ، ويشحن المخازن بالقنابل والبارود ولوازم الحرب، وخصوصاً في الثغور الساحلية التي هي أكثر تعرضاً لخطر الغزو الأجنبي . وأقام بتلك المراكز عدة فرق من الجيش ، وأمرها بالتشديد في الحراسة واليقظة . ولهذا الغاية اشترى كثيراً من المدافع وأسلحة الحرب الأخرى، من عدة دول أوروبية ، كألمانيا وإنجلترا ، كما استعان في بناء جهازه الدفاعي العسكري ببعض الخبراء الألمانين والإنجليز . وكان من عادة السلطان أن يستعرض جيوشه للتأكد من استعدادها .

واهتم اهتماماً زائداً بتنظيم جيشه ، وزوده بالأسلحة النارية المعاصرة لذلك الوقت ، المجلوبة من الخارج والمصنوعة في المغرب . كما استعان على تنظيمه بضباط أوروبيين مع بعض أفراد بعثاته الذين عادوا إلى المغرب بعد أن استكملوا ثقافتهم العسكرية . وقد شيد أيضاً داراً للأسلحة ، خصوصاً في فاس ، وكلف بعض الفنانين الإيطاليين بإدارتها ، فكانت تمد الجيش بما يحتاجه من البارود وغيره .

كما اشترى من إيطاليا باخرة تجارية سمّاها : « بشير الإسلام بخوافي الأعلام » . وكان المأمول أن تكون هذه البخرة نواة لإحياء الأسطول المغربي القديم ، أيام دوله العظيمة ، خصوصاً في عهد دولتي الموحدين والمرينيين ، ولكن الجهل المطبق والأحداث السياسية المتعاقبة ، وسوء التبصر ، حالت دون تحقيق تلك الأمنية العزيزة آنذاك .

إيفاده البعثات إلى الخارج

وفي سنة 1291 هـ أوفد السلطان مولاي الحسن إلى أوروبا بعض البعثات ، وجعل على رأس كل بعثة رجلاً من رجال العلم والصلاح ، لصيانة أفرادها . وقد خصص لذلك اعتمادات مالية مهمة . ولما أنهى المبعوثون ثقافتهم في مختلف الفنون العسكرية عادوا إلى وطنهم ، غير أنهم ويا للأسف ، لم يلقوا التشجيع المنتظر من طرف الدولة ، ليعمل كل فرد في دائرة اختصاصه ، فتقدم البلاد . ذلك لأن المغاربة كانوا في ذلك الوقت غارقين في الجهل والتأخر، حكومة وشعباً . وهكذا عمل السلطان برأي تلك الطبقة المترمة من حكامه وفقهائه ، حيث نصحوه

بألا يوظف أولئك المبعوثين العائدين من الديار الأوروبية ، بدعوى أنهم أصبحوا متشبعين بالروح الأوروبية النصرانية .

وفي نفس السنة التي أوفد المغرب فيها بعثاته إلى أوروبا ، أوفدت اليابان أيضاً عدة بعثات ، غير أن المغرب أهمل أفراد المبعوثين ولم ينتفع بخبرتهم إلا قليلاً جداً ، بينما استفادت اليابان من شبابه العائد من أوروبا ، والحامل لمختلف الثقافات الحديثة ، فتقدمت البلاد اليابانية تقدماً مطرداً ، حتى بلغت أوج الحضارة والرقى ، بينما تأخر المغرب .

أعماله المدنية في شتى الميادين

لقد أولى مولاي الحسن اهتماماً بالغاً للشؤون الإسلامية، فنظم الأوقاف، واختار القضاة التزهة ، وحسّن أحوالهم وأحوال أئمة المساجد، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية بكل دقة ، وأنشأ عدة مدارس وكتاتيب لدراسة الدين والعلم، خصوصاً القرآن الكريم والعلوم الدينية ، لأن الدولة كانت ذات طابع ديني محض ، إلا أن رجال الدين بالغوا في التعصب الأعمى ، حتى حادوا بعض الشيء عن روح التحرر الذي هو ميزة الإسلام . وهكذا أصبح لأولئك الرجال النفوذ والرأي ، حتى كانوا سبباً في منع إدخال الأساليب الأوروبية التقدمية إلى البلاد .

وأصلح مولاي الحسن برامج الدراسة لجامعة القرويين وغيرها، وشجع العلماء على تأليف الكتب المناسبة لذلك . وكان أيضاً مولعاً بالموسيقى، ومدركاً لفوائدها في تهذيب الخلق ، وترقية الذوق ، فشجعها كل التشجيع ، كما فعل والده من قبله مولاي محمد بن عبد الرحمن .

وقد أسس بالبلاد بعض المرستانات (المستشفيات) لتقوم بواجبها في مجال الصحة العمومية ، وضرب عملة وطنية جديدة تحمل اسمه ، وهي الريال الحسني المعروف ، والنصف ريال والربع ريال وغيره .

وفي الميدان الاقتصادي وجه أيضاً عناية فائقة ، فشجع التبادل التجاري مع الدول الأجنبية . واقترحت عليه بعض الدول الأوروبية أن يعمل على إدخال الأساليب التقدمية الحديثة في بلاده ، كالتلفون والتلغراف والسكك الحديدية ، وإصلاح الطرق، وتنظيم الجهاز العسكري والاقتصادي تنظيماً عصرياً ، واستخراج المعادن من باطن الأرض ، غير أنه كان يتخوف من أن يكون ذلك سبباً في التدخل الأجنبي في شؤون المغرب الداخلية إذا هو أسند تلك الأعمال إلى مهندسين أوروبيين وكان يأمل أن تنهيا في المستقبل طائفة من المهندسين المغاربة فيتولون القيام بهذه المشاريع الإنشائية في البلاد . وكان يذكي تخوف السلطان من الأوروبيين رجال حكومته المترمتون . وهكذا حرم المغرب من هذه الفرصة .

المطامع الأجنبية

علاقاته الخارجية بالدول الأجنبية :

لكي ندرك حقيقة الأخطار الأجنبية التي واجهها السلطان مولاي الحسن العظيم ، ينبغي لنا أن نرجع قليلاً الى الوراء ، إلى عهد مولاي عبد الرحمن على الخصوص ، حتى نتبع حلقة المشكل المغربي من جهة ، ولنقدّر الدور الجبار الذي قام به هذا البطل في سبيل تخليص البلاد من الوقوع في الهاوية ، من جهة أخرى . ففي عهد مولاي عبد الرحمن

كثرت الثورات الداخلية ، وتجسّد المشكل السياسي المغربي الأوروبي ، حتى أدى الأمر في النهاية إلى نشوب حرب بين المغرب وفرنسا ، خسر المغرب فيها خسراً ميبئاً ، بسبب ضعفه وسوء قيادته ، وهي المعروفة بحرب إيسلي ، وهو واد قريب من وجدة .

وكان المحرك لتلك الحرب، أنه بعد استيلاء فرنسا على القطر الجزائري الشقيق ، وطردها لحكامه الأتراك سنة 1259 هـ ، استمر الجزائريون يحاربون جيوشها ستّ عشرة سنة ، بقيادة أميرهم البطل الحاج عبد القادر محي الدين الجزائري ، الذي كان يعتبر نفسه تابعاً للملك المغرب . وكان المغرب يساند المجاهدين الجزائريين بالمال والسلاح ، وبالرجال أحياناً على دأبه في مساندتهم ومساندة كافة العرب والمسلمين ، فحاولت فرنسا أن تقنع دولة المغرب بالعدول عن عملها العدواني ضدها. فلم تفلح، فنتج عن ذلك نشوب حرب إيسلي التي انهزم فيها المغرب : وتمكنت الجيوش الفرنسية من الاستيلاء على مدينة وجدة ، ولم تنسحب عنها إلا بعد أن دفع المغرب غرامة مالية كبيرة للدولة الفرنسية .

وفي عهد السلطان نفسه أي مولاي عبد الرحمن تقدم أهل أنجرة بدافع الغيرة الوطنية الى بيوت الحراسة الإسبانية التي على حدود سبتة ، فهدموها واحتقروا الشعار الإسباني . ومات مولاي عبد الرحمن سنة 1270 هـ وخلفه ابنه مولاي محمد والمفاوضات جارية بين الدولتين المغربية والإسبانية في شأن تسوية المشكل ، غير أن بعض المفاوضين المغاربة الذين لم تكن لهم الخبرة السياسية الكافية أساءوا تفهم الوضع ، فأدى ذلك إلى مغادرة السفير الإسباني لطنجة ، وقيام الحرب بين المغرب وإسبانيا . فانهزم المغاربة شر هزيمة ، بالرغم من دفاعهم المجيد ،

وكانت علة انهزامهم هي ضعفهم وسوء قيادتهم أيضاً .

وتمكن الإسبان في تلك الحرب من احتلال تطوان ، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن دفعت حكومة المغرب لاسبانيا عشرين مليوناً من الريال المغربي ، كغرامة حرية . والغريب أن المغرب دفع عشرة ملايين واثني عشر ألف ريال على تعيين بعض رجال اسبانيين للقيام بجمع القدر الباقي من نصف مداخيل الموانئ المغربية . وظل هؤلاء الإسبان في المغرب مدة عشرين سنة ، مما يؤكد أنهم كانوا يخلسون الأموال اختلاساً .

وعقب هذه الحرب ازداد تدخل الدول الأجنبية في قضايا المغرب ، بمقتضى الفصل التاسع والعاشر من المعاهدة التي أبرمت بين مولاي محمد والدولة الإسبانية ، بدعوى المحافظة على المصالح الأجنبية في البلاد . وهكذا كثرت الحمايات الفردية الأوروبية لقسم من الرعايا المغاربة ، خصوصاً منهم اليهود ، الذين أصبحوا بموجب ذلك خطراً على النظام وسير العدالة .

وقد ابتدأت تلك الحمايات الفردية منذ عهد السلطان مولاي عبد الرحمن ، واستمرت إلى نهاية الحماية الفرنسية الإسبانية على المغرب وإعلان استقلاله وحريته . ولما تولى مولاي الحسن عرش البلاد بعد وفاة والده السلطان مولاي محمد كان من جملة إصلاحاته ومسايعه المشكورة أن نجح في حمل الدول الأوروبية التي لها مصالح مع المغرب ، على عقد مؤتمر دولي بطنجة سنة 1296 هـ ، ولكنه لم يسفر عن أي نتيجة إيجابية . ثم بذل مساعي جديدة حتى نجح في عقد مؤتمر بمدريد سنة 1297 هـ ، وحضرته من الدول : المغرب ، اسبانيا ، فرنسا ، البرتغال ، إيطاليا ، ألمانيا ، إنجلترا ، السويد ، بلجيكا ، الدانمرك ، النمسا والولايات المتحدة .

وعلى الرغم من أن هذا المؤتمر لم يحقق الغاية التي كان يتوخاها السلطان المغربي العظيم ، فإن الوفد المغربي، وعلى رأسه رجله السياسي المحنك ، السيد بركاش ، وزير البراية (الخارجية) استطاع أن يحدد بوضوح سياسة المغرب - باعتباره دولة حرة مستقلة - إزاء دول المؤتمر ، وحصل على ضمانات مهمة فيما يخص الامتيازات الأجنبية ، وتحديدتها ، بعد أن كانت من قبل متشعبة .

ولكن تلك الامتيازات على الرغم من تضيق الخناق عليها ، ظلت عاراً في جبين المغرب وشوكة في حلقه . وكان المرجو أن يعمل الملوك الذين أتوا بعد مولاي الحسن على تخليص المغرب وتحريره من تلك القيود الأجنبية نهائياً ، تكميلاً للعمل الجبار الذي قام به مولاي الحسن ، لكن شيئاً من ذلك لم يقع ، بل ازدادت الحالة خطورة من بعده .

والخلاصة أن مولاي الحسن رغم شخصيته القوية ، التي كان يتمتع بها ، وسياسته اللبقة الفطرية ، فإنه لم يوفق التوفيق الكامل في التغلب على مشاكل المغرب السياسية والاقتصادية، رغم ما بذله من جهود مخلصه، ورغم أنه استطاع بفضل نيته الحسنة وكرمه ووفائه للتعهدات أن يكتسب صداقة دول كثيرة ، وأن يجنب المغرب بسياسة السلمية الخوض في غمار الحروب ، التي لا تجر في أذيالها إلا الويل والثبور ، خصوصاً بالنسبة لدولة ضعيفة كالمغرب ، في ذلك الوقت .

ولكن لا ينبغي لنا أن نحمل السلطان مسؤولية ذلك التأخر العام للمغرب ، فقد كان لأحداث الماضي نصيبها وللعلماء والحكام المترممين الذين كان يستشيرهم في الشدة ، النصيب الأوفى ، كما أن للوسط المغربي المتأخر ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً في ذلك الوقت حظه

من المسؤولية أيضاً . وماذا يستطيع أن يعمل بطل السباحة وحده في خضم محيط نائر الأمواج ١٢.

وفاته :

وفي سنة 1311 هـ مات السلطان الهام مولاي الحسن ، فكانت وفاته بداية لتعقد المشاكل المغربية ، وازدياد خطرها ، حتى انتهى الأمر إلى إعلان الحماية المشؤومة على المغرب ، في عهد مولاي عبد الحفيظ .

● نقاط التلخيص ●

- في سنة 1290 هـ اعتلى مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن أريكة الملك ، في وقت كانت فيه أحوال المغرب عصية جداً ، بسبب القلاقل الداخلية ، ووجود الأطماع الأجنبية ، فكان أول عمل قام به هو تثبيت الأمن وتقوية الجهاز الدفاعي في البلاد ، خصوصاً الشواطئ .
- أوفد إلى أوروبا بعض البعثات ، فلما عادت إلى الوطن بعد أن استكملت ثقافتها ، لم تجد من الدولة التشجيع المنشود إذا أهمل شأنها . وذلك بسبب التعصب والجهل ، الذي كان مستولياً على رجال الحكومة والفقهاء ، الذين عارضوا في إدخال الإصلاحات الأوروبية التقدمية على البلاد .
- رغم ذلك فقد شجع السلطان التجار على الإكثار من التبادل التجاري مع دول أوروبا ، فاستفادت البلاد اقتصادياً من ذلك .
- قام مولاي الحسن بعدة إصلاحات أخرى في ناحية الدين والتعليم والفن ، فأصلح أحوال القضاة والأئمة والشؤون الدينية ، ونظم برامج التعليم ، خصوصاً في جامعة القرويين ، وشجع على التأليف ، واهتم بالموسيقى غاية الاهتمام كوالده .
- استطاع أن يجنب بلاده من الاشتباك في الحروب ، مع الدول المتكاملة على المغرب ، بسياسته اللبقة الفطرية، وذلك بربط علاقات الصداقة مع الدول جميعاً والوقوف إزاء مشاكلها موقف الحياد .

أسئلة

- 1 - صف أحوال المغرب يوم تولية مولاي الحسن على العرش . هل استطاع عمل شيء الوضع ؟
- 2 - ما أعماله في ميدان الامن والدفاع ؟
- 3 - كيف كانت علاقاته السياسية مع الدول الاوروبية ؟ من أي شيء جنب المغرب العلاقات ؟
- 4 - تحدث عن بعثات هذا السلطان إلى الخارج . قارن بينها وبين بعثات اليابان . في إهمال أولئك والاستفادة هؤلاء ؟
- 5 - أذكر ما أسفر عنه مؤتمر طنجة ومديرد . ماذا جناء المغرب منها ؟

المغرب والاحتلال الاجتبي
أسباب الاحتلال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية-
(1311 - 1330 هـ)



تولية مولاي عبد العزيز وقيام وزيره بأمر الدولة

بعد وفاة السلطان العظيم مولاي الحسن خلفه على عرش المغرب ابنه-
مولاي عبد العزيز ، ولصغر سنه قام الوزير المقتدر أحمد بن موسى
بالمحافظة على الملك الصغير . وتسيير دفة الدولة . وكان هذا الوزير
قوي الشخصية ، استطاع أن يضبط الأمن في ربوع المملكة المغربية ،
وكان القواد والباشوات يخافونه ، لأنه كان شديد البطش . وقد تولى
ابن موسى هذا منصب الحجابة منذ أمد طويل ، في عهد مولاي إسماعيل
أيام كان خليفة بفاس ، ثم في عهد مولاي الحسن . وفي عهد مولاي
عبد العزيز تولى رئاسة الوزارة . وبسبب ممارسته السياسية لشؤون الدولة-
طوال تلك المدة أصبح محكماً .

أعمال الوزير في سبيل الأمن والسياسة

من الثورات التي قامت ضد الدولة في عهد هذا الوزير الكفو تلك الثورة العارمة التي قامت بها قبائل الرحامنة ، يزعامه مبارك بن سليمان فبعث الوزير إليها جيشاً حكومياً قوياً استطاع أن يقضي على الثورة ، ويقبض على متزعمها ابن سليمان ، الذي وضع في قفص من حديد ، وطيف به ، ثم قتل . وذلك سنة 1313 هـ . ثم قامت ثورة ثانية بناحية الشاوية وهي المعروفة بثورة الأعشاش ، فقضى الجيش عليها أيضاً ، وألقي القبض على زعمائها وقتلوا ، وذلك سنة 1314 هـ . وهكذا تمكن هذا الوزير المقتدر من توطيد دعائم الأمن ، ونشر ألوية السلام ، في طول البلاد وعرضها .

وقد أرسل ابن موسى باسم السلطان جماعة مختارة بمعية قوة عسكرية صغيرة إلى طرفاية ، لاستلام مرساها من لدن الإنجليز مقابل خمسين ألف جنيه ، دفعتها الحكومة المغربية في طنجة الى السفير الانجليزي ، كتعويض لما كلفه بناء المرسى .

وكما بعث وفداً إلى مدريد للتباحث مع الحكومة الإسبانية في شأن إدخال بعض التعديلات على المعاهدة المغربية الإسبانية المبرمة سابقاً في عهد مولاي الحسن ، فنجح الوفد في مهمته .

وفي سنة 1318 هـ توفي الوزير أحمد ، فكان فقدانسه خسارة عظيمة للمغرب ، إذ اضطرب حبل الدولة بعده ، وساءت الأحوال .

التدهور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي

بموت ذلك الوزير البطل ، انقلبت وضعية المغرب رأساً على عقب ، من حالة الأمن والاستقرار ، إلى حالة الفوضى الضاربة أطنابها في كل مكان . وأظهر السلطان مولاي عبد العزيز ، الذي أصبح يعتمد على نفسه ، صبراً وجلدأً وحكمة في معالجة الموقف ، فطلب من الدول التي لها ارتباط بالمغرب بسبب المصالح المشتركة أن تبادر بإدخال الإصلاحات التقدمية الضرورية على البلاد . ولكن رغم ذلك الإلحاح . فإن السلطان في الواقع كان عاجزاً عن تنفيذ المشاريع العصرية التي تحتاجها البلاد ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك الوقت الكافي للبناء والتشييد، إذ كان الحرق قد اتسع على الراقع .

ثم استدعى مولاي عبد العزيز رجال دولته وعلية قومه لعقد اجتماع شوري، قصد منه دراسة الوضع في المغرب . وكان السلطان يأمل أن يستنير بآراء ممثلي شعبه للخروج من المأزق الحرج، ولكنه كان كلما سأل أولئك النواب في مسألة يجيبونه : « الخير فيما اختاره سيدنا السلطان » . وهكذا ضاعت الغاية من ذلك الاجتماع ، الذي برهن الممثلون فيه على جمودهم العقلي وتخدرهم بفكرة الحكم المطلق ، الذي اعتادوه من ملوك المغرب .

ثم قامت ثورة عظيمة بزعامة الجيلالي الزرهوي المعروف بأبي حمادة . واعتمد هذا الرجل الشعوذة وأعمال السحر في التأثير على الناس . وادعى باطلاً أنه أحد أبناء السلطان مولاي الحسن ، فتبعته عدة قبائل . واستمر هذا التأثير يحارب الجيوش الحكومية ، ويلحق بها الهزائم المتكررة طيلة سبع سنوات . ولم يقض عليه نهائياً إلا السلطان مولاي عبد الحفيظ ،

الذي تولى الملك سنة 1327 هـ ، بعد أخيه مولاي عبد العزيز .

وقد كلف هذا الثائر الطائش الدولة ثمناً غالياً جداً ، فقد أنهك قواها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، مما اضطرها إلى طلب قروض مالية من فرنسا . فكان ذلك سُمماً جديداً فتّ في عضد الدولة ، وأتاح للفرنسيين أن يتدخلوا في الشؤون الداخلية للمغرب أكثر من ذي قبل .

وعقب ذلك قامت ثورة أخرى بقيادة أبي العباس الريسولي ، الذي دعا لنفسه ، فعاث في الأرض فساداً . ثم تمكنت الدولة من القاء القبض عليه ، بعد جهد جهيد وخسائر فادحة . ثم أودع في سجن الصويرة . ولكن أهل الثائر تقدموا بشفاعتهم إلى السلطان ، فأطلق سراحه . وما أن عاد الريسولي إلى مسقط رأسه في تازروت حتى استأنف نشاطه الإجرامي ، وكلف الدولة خسائر باهظة من جديد . وقد ظل هذا الثائر مستمراً في طغيانه يقتل ويسلب ، ويحابي الإسبان تارة، وينقلب ضدهم تارة أخرى ، إلى أن تمكن المجاهدون الريفيون أخيراً من القاء القبض عليه بأمر من المجاهد الأكبر الأمير عبد الكريم الخطابي ، وسبق إلى أجدير: بالريف حيث مات سنة 1342 هـ، في نفس السنة التي أسرف فيها.

وكانت الدول الأوروبية ذات المطامع الإستعمارية قد انجذبت نيتها إلى اقتسام المغرب ، لولا تنافسها مع ألمانيا، مما حمل غليوم الثاني إمبراطورها إلى القيام بزيارة ملك المغرب مولاي عبد العزيز في طنجة، حيث أكد له مناصرته باعتباره ملكاً لدولة مستقلة . وإثر هذا التحدي الألماني الخطير لفرنسا وغيرها ، عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1333 هـ (الموافقة

• أجدير كانت عاصمة الأمير عبد الكريم الخطابي في ثورته الوطنية .

سنة 1906 م) وحضرته الدول الأوروبية الثلاث عشرة ، التي حضرت من قبل في مؤتمر مدريد .

وأهم ما أسفر عنه هذا المؤتمر - بالنسبة للمغرب - اتفاق الدول على تعيين فرنسا واسبانيا للقيام بإدخال الإصلاحات على الدولة المغربية ، والإشراف على كثير من المصالح الحيوية في البلاد بدعوى تنظيمها . ورغم أن تلك الإصلاحات مفيدة للمغرب إلى حد ما ، إلا أنها كانت تدخلاً سافراً في شؤونه الداخلية ، ووصمة في جبين حريته واستقلاله . أما حالة الشعب المغربي فقد ظلت كما هي ، من حيث الفوضى والوهن .

وفي سنة 1325 هـ اتفق أن رفع الطبيب الفرنسي الدكتور موشان علم دولته على منزله بمراكش ، فهجمت عليه الغوغاء وقتلته بالحجارة والعصي .. ثم تتابعت أعمال الاعتداء والسلب والنهب ، فتتج عن ذلك احتلال فرنسا لمدينة وجدة ، أخذاً بالثار ، وطلباً بحقوق المقتول . ثم حصلت حادثة فظيعة كان لها أكبر الأثر في زيادة تدهور الدولة ، مادياً وأدبياً . ذلك أن أحواز الدار البيضاء كأولاد زيان ومديونة ، لما رأوا جلوس بعض المراقبين الفرنسيين والإسبانيين إلى جانب الأمناء المغاربة في المرسى ، لاستخلاص قدر من المدخول ، حسب اتفاق سابق بين الدولة العززية ، والدولتين الفرنسية والإسبانية - لما رأوا ذلك ثارت ثائرتهم ، وهجموا على الأوروبيين ، فقتلوا منهم تسعة ، ثم تقدم أولئك الرعاع ، فأمتدت أيديهم إلى قتل الأنفس وسلب الأموال من الدكاكين والبنوك ، وأوقعوا باليهود في حيزهم الخاص « الملاح » .

وتعذر على الحكومة المغربية أن تضبط الأمن في المدينة . وأمام ذلك العجز أرسلت فرنسا واسبانيا باخرتين محملتين بالجنود ، واحتلتا المدينة

عنوة بدعوى حماية السكان الأوروبيين ، وذلك سنة 1825 هـ موافق سنة 1907 م .

وعقب ذلك اجتمعت قبائل الحوزية ، وقررت خلع بيعة السلطان مولاي عبد العزيز ، بحجة أنه عجز عن دفع الأعداء عن البلاد ، وأعلنت بيعتها لأخيه مولاي عبد الحفيظ ، الذي كان خليفة بمراكش، والذي ثار من قبل على شقيقه السلطان، قصد تنحيته عن العرش والجلوس عليه بدله . وقد وقعت بين الأخوين حروب طاحنة، كما جرّ تنافسهما الخطير على عرش الأمة أهوالاً وويلات . وكان ذلك من أسباب احتلال فرنسا لوجدة ، ثم احتلالها مع الإسبان للدار البيضاء .

وكان مولاي عبد الحفيظ أثناء قيامه على أخيه يعلن للقبائل بأنه ما قام إلا لتخاذل أخيه السلطان وعجزه ، وأنه عازم على الجهاد لإخراج النصارى من البلاد . وهكذا استعذب الشعب هذا الأمل الخلب . وساعده ضد أخيه مولاي عبد العزيز حتى انتصر عليه ، واضطره أمام إجماع الشعب على خلعه ، إلى التنازل عن العرش ، من حيث ذهب إلى طنجة واستقر فيها إلى أن توفي هناك .

وما أن هدأت العاصفة قليلاً وأتيحت الفرصة للسلطان الجديد كي يعمل ويحقق ما وعد به ، حتى بدا عجزه في صورة أعظم من سابقتها . وأمام ذلك ثارت عليه قبائل بني مطير وشراكة وغيرها، وهزمت جيوشه هزيمة نكراء ، وحاصرته في عاصمته فاس ، حصاراً شديداً ، لإنزاله عن العرش الذي عجز أن يثبت دعائمه . وفي تلك الأثناء قامت أيضاً ثورة خطيرة في مكناس بقيادة مولاي الزين أخي السلطان ، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد ، وضرب على نفس النغمة المخدرة حيث أعلن للقبائل

بأنه قام للجهاد ضد التصاري وإخراجهم من بلاد المسلمين ، بعد أن ظهر له عجز أخيه مولاي عبد الحفيظ عن تحقيق ذلك .

استنجد السلطان بالجيش الفرنسي

وأمام ذلك لم يجد السلطان خلاصاً من ورطته إلا أن يطلب النجدة من الجيش الفرنسي المحتل للدار البيضاء ، فأجيب طلبه في الحال . وذلك سنة 1911 م . وهكذا تقدمت الجيوش الفرنسية في قوة عظيمة جداً ، وفكت حصار السلطان ، ثم توجهت تلك القوة العاشمة إلى مكناس ، ودخلتها بعد معارك عنيفة وألقي القبض على مولاي الزين ، وسبق إلى فاس ، فعفا عنه أخوه السلطان .

ولما انتهى الجيش من مهمته التي استدعي لها شكر السلطان قائده الجنرال موانيه على حسن صنيعه، كما كلفه بتبليغ شكره للحكومة الفرنسية على مساعدتها إياه في موقفه الحرج . وبعد ذلك أذاعت المصادر الفرنسية أن السلطان راغب في إبقاء فرقة من الجيش الفرنسي في فاس ، تقدر بنحو ستة آلاف جندي، حيلة من تجدد للفتنة بالبلاد . ولما رأت اسبانيا ذلك ، لامت فرنسا على مخالفتها لعقد الجزيرة ، وأمرعت بدورها فاحتلت العرائش والقصر الكبير. ثم لامت ألمانيا وانجلترا دولتي فرنسا واسبانيا على عملها ، وانتهت المهزلة السياسية باتفاق تلك الدول على اقتسام الشمال الإفريقي ، فكان المغرب من نصيب فرنسا وشماله من نصيب اسبانيا . ومصر من نصيب انجلترا، أما ألمانيا فأعطيت لها أراضي في وسط إفريقيا. ولما سمع السلطان مولاي عبد الحفيظ بذلك الاتفاق تظن للخطر ،

وأراد أن يلعب دوره السياسي ، في وقت انتهى فيه لعب الأدوار ، فبعث رسالة إلى المسيو دوسلف يبارك فيها الاتفاق الحاصل بين فرنسا وألمانيا في شأن المغرب ، ويستعجله بإيفاد الممثلين الفرنسيين لادخال الإصلاحات على بلاده المستقلة . ولكن هيهات أن ترحم الذئاب الجائعة فريستها وقد ظفرت بها بعد جهد جهيد وتنافس خطير ...

اعلان عهد الحماية المشؤوم

وعقب ذلك تقدم القائد الفرنسي الجنرال موانيه إلى السلطان، وعرض عليه ، بأمر دولته قبول الحماية الفرنسية على المغرب ، فمكف مولاي عبد الحفيظ على دراسة بنودها مدة خمسة شهور ، حتى اطمأن إلى ضمان حقوقه وحقوق خلفه في العرش ، واحترام الدين الإسلامي ومصالح الأمة . وفي يوم 29 مارس سنة 1912 م ، أبلغ السلطان الجنرال الفرنسي موانيه بأنه مستعد للتوقيع على صك الحماية غداً .

وفي الغد أي يوم 30 مارس سنة 1912 م حضر ممثل فرنسا إلى القصر السلطاني ، وحصل على توقيع السلطان مولاي عبد الحفيظ بإعلان الحماية الفرنسية على المغرب . وبعد ذلك أحس السلطان بالمصيبة التي أوقع بلاده فيها ، فتنازل عن العرش ، وسافر إلى فرنسا ، وظل مقبلاً بها إلى أن توفي سنة 1330 هـ ، فنقل جثمانه إلى فاس في سيارة مدفعية تحف بها الجنود والأعلام . وهناك دفن . وقبل تنازله عن العرش كان قد أشار بتولية أخيه مولاي يوسف خلفاً له . فأسند الأمر إلى هذا الأخير يوم الثلاثاء 29 شعبان 1330 هـ موافق 12 آب سنة 1912 م .

ومما تقدم ، ندرك بوضوح مدى الضعف والإنحطاط الإقتصادي والسياسي والإجتماعي ، الذي تخبط فيه المغرب، خصوصاً بعد وفاة وزيره المقتدر أحمد بن موسى، فلا الأمن مستتب، وليس هناك ضماير نزيهة ولا وعي سياسي ولا مال بالخزينة . فكانت النتيجة أن فقدت البلاد استقلالها لأول مرة في تاريخها الإسلامي ، ووقعت في قبضة الاحتلال الأجنبي .

● نقاط التلخيص ●

- تولى مولاي عبد العزيز وهو صغير السن بعد وفاة والده مولاي الحسن ، فقام بأمر الدولة وزيه المقتدر أحمد بن موسى ، ورغم قساوة هذا الوزير ، فإنه استطاع أن يحافظ على استقلال البلاد .
- بعد موت ابن موسى آلت أحوال المغرب إلى التدهور وقامت على السلطان الشاب عدة ثورات ، أخطرها ثورة أبي حمادة ، التي استنزفت أموال الدولة ، ثم ثورة الريسولي بجباله (بتازروت) .
- انفقت الدول الاستعمارية سرياً من قبل على اقتسام الشمال الإفريقي ، على أن يكون المغرب من نصيب فرنسا وشماله من نصيب إسبانيا ، ومصر لانيجلترا ووسط إفريقيا لألمانيا .
- حدث أن رفع طبيب فرنسي في مراكش علم دولته على داره فقتلته الجماهير ، فدفع ذلك فرنسا إلى احتلال وجدة أخذاً بالتأثر ، ثم قتل بعض الرعاع المغاربة جماعة من الأوروبيين في الدار البيضاء فكان ذلك حافزاً لفرنسا وإسبانيا على احتلال المدينة بدعوى حماية السكان الأوروبيين .
- ثارت القبائل المغربية على السلطان مولاي عبد العزيز لعجزه عن القيام بأعباء الملك ، ثم ثارت على خلفه مولاي عبد الحفيظ لنفس السبب . ولكن هذا الأخير استعان بالجيش الفرنسي ضد القبائل . فكان دخول تلك الجيوش الأجنبية سبباً في إعلان الحماية من بعد على البلاد في يوم 30 مارس سنة 1912 م ثم تنازل مولاي عبد الحفيظ بعد ذلك عن العرش لأخيه مولاي يوسف .

أسئلة

- 1 - ماذا أفاد وجود الوزير أحمد بن موسى في العهد الميزي ؟ أذكر أعماله .
- 2 - تكلم عن الثورات الخطيرة التي قامت في عهد مولاي عبد العزيز . ما أخطرها ؟
- 3 - لم قدم غليوم امبراطور ألمانيا إلى طنجة ، وما تأكيده للسلطات تأييده لاستقلال المغرب ووحدة ترابه ؟ ما رأيك في ذلك ؟
- 4 - ما السبب في احتلال فرنسا لوجدة ، ثم احتلالها مع إسبانيا للدار البيضاء ؟
- 5 - لم ثارت القبائل على السلاطين : مولاي عبد العزيز ، ومولاي عبد الحفيظ ؟ في أي تاريخ أعلنت فرنسا الحماية على المغرب ؟

المقاومة الوطنية للاحتلال

ثورات : الريف ، والصحراء والأطلس ، الحركة الوطنية



ثورة الأطلس والصحراء

أعلنت الحماية على المغرب وتولى مولاي يوسف على العرش عام 1330هـ موافق سنة 1912 م عقب تنازل أخيه مولاي عبد الحفيظ عن الملك ، الذي زعزع كيانه بقبوله الاحتلال الأجنبي على البلاد . ولم ترض الأمة على بكرة أبيها عن هذا الوضع الجديد، الذي فرض عليها فرضاً، وجردها مع توالي الأيام من كل شيء إلا من كرامتها الأصيلة في نفسها . لقد استاء الشعب برمته من الحماية المشؤومة باستثناء طغمة من الخونة وعباد المصلحة الذاتية ، الذين لا تخلو منهم أمة من الأمم .

وفي الوقت الذي كان فيه الفضاء يستقبل طلقات المدافع ابتهاجاً باعتلاء مولاي يوسف عرش المغرب ، كان الفضاء نفسه يستقبل وابللاً من الطلقات النارية إيداناً بانفجار الغضبة الشعبية ، واندلاع الثورة التحريرية

ضد المحتل الغاشم في الجنوب . إذ قام احد الأبطال واسمه هبة الله بنجل ماء العينين ، وأعلن الجهاد المقدس ضد المحتل الغاصب . فتبعه خلق عظيم من الغيورين على الدين والوطن وتقدم بهم إلى مراكش . فاستولى عليها بعد معارك طاحنة أبدى فيها الحلاوي الذي كان منوطاً بالدفاع عن المدينة كثيراً من ضروب الشجاعة والجلد . وذلك في يوم 16 آب سنة 1912 م ، أي بعد مضي أربعة أيام فقط من اعتلاء مولاي يوسف على العرش .

غير أن البطل هبة الله لم يكتب له النجاح طويلاً، فسرعان ما وُجِعت إليه حملة فرنسية عظيمة بقيادة الكولونيل مانجان وحاربه باسم الحماية ، ولما رأت صلابة المقاومة الوطنية استعملت كل صنوف القسوة، وتمكنت بعد اللتي واللتي من التغلب على المدافعين الأحرار ، واقتحمت مراكش عنوة يوم 8 سبتمبر من نفس السنة المتقدمة، وقتلت من المجاهدين حوالي ألفين . وأمام ذلك فر هبة الله ، واضمحلت سلطته التي كان قد أعلنها من قبل .

ولكن المواطنين في الأطلس والصحراء جددوا كفاحهم ضد المستعمرين الفرنسيين ، وضد الإسبان في جزء من الصحراء المغربية . وظلت تلك المقاومة فترة طويلة من الزمن كبدت الأعداء خلالها خسائر عظيمة في الأرواح والعتاد . وتعذر على الأعداء التغلب على الأحرار بقوة السلاح وحدها ، فلجأوا إلى بث سماسرتهم من الخونة بين صفوف المناضلين ، فأفسدوا الضمائر ، وأضعفوا من الإيمان بالحق . ومن هذا الباب نفذ المستعمرون كعادتهم، فقصوا على تلك المقاومة المباركة القضاء المبرم، بعد نضال طويل ، استمر مع الإسبان على الخصوص إلى سنة 1934م

حيث استولوا بعد ذلك على منطقة إفني . أما طرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب فكانوا قد استولوا عليها من قبل ، بناء على اتفاق سري بينهم وبين الفرنسيين حول اقتسام الصحراء المغربية .

حرب الريف .

لما أعلنت الحماية على المغرب عينت فرنسا الجنرال لوطي مقيماً عاماً على المغرب ، فوجد البلاد في أسوأ الأحوال من القوضى والانحطاط ، وكان أول عمل قام به هو إقرار الأمن ، استعداداً لتنفيذ بنود الحماية بنزاهة وإخلاص، لأنه كان رجلاً متحرراً في أفكاره . غير أن الحكومة الفرنسية عارضته في تطبيق الحماية، بالرغم من إلحاحه عليها أكثر من مرة، وتنبيهه إياها إلى أن المغاربة شعب ذكي نشيط عريق في المجد والتقاليد، ولا بد له في يوم من الأيام أن ينهض ويستعيد حريته المسلوبة ، ومن الأفضل لفرنسا أن تساعد على التقدم ، لتضمن صداقته قبل فوات الأوان .

وقامت اسبانيا من جانبها ، وعينت مقيماً عاماً من قبلها على منطقتها الشمالية كما عينت مولاي المهدي بن مولاي إسماعيل خليفة عن سلطان المغرب وجعلت تطوان عاصمة منطقة احتلالها . أما منطقة طنجة فانها احتفظت بنظام دولي . وما أن شرعت قوات الاستعمار الإسباني في احتلال مراكزها بشمال المغرب ، حتى أعلن الأمير عبد الكريم الخطاطبي الحرب على اسبانيا ، وألحق بقواها العسكريين العظام خسائر باهظة . وما زال العالم كله يذكر معركة أنوال التي اندحر فيها الجنرال الإسباني

سيلفتر اندحاراً شنيعاً يوم 23 يوليو سنة 1931 م مع قواته. البالغ عددها خمسة وعشرين ألف جندي . وفي تلك المعركة غنم المجاهدون الريفيون ما لا يحصى من الغنائم والعتاد الحربي ، فكان ذلك عاملاً قوياً في دفعهم إلى الأمام ، وإحرازهم نصراً بعد نصر .

وقد ضيق المجاهدون الريفيون بقيادة بطلهم العظيم عبد الكريم الخناق على الإسبان ، واستولوا على معظم ما كان بأيديهم من الأراضي المحتلة في شمال المغرب . وأصبحت قبائل الريف وقبائل « جباله » التابعة للبطل تهدد تطوان عاصمة منطقتهم في الشمال . كما حاصر المجاهدون مملية حصاراً شديداً ، حتى كادت تسقط في أيديهم ، ولكنهم تخلوا عنها ، وقد أسف الأمير على ذلك بعد فوات الأوان ، إذ لو أنه كان احتلها لكانت القوة الإسبانية قد انهارت نهائياً .

ولما رأى الفرنسيون انتصار الريفيين المستمر وانهمزام الإسبان المتوالي ، دسوا أنوفهم في الموضوع ، فأسندت الحكومة الفرنسية قيادة الجيوش الفرنسية لتحارب ضد البطل عبد الكريم إلى المارشال بتان . وحضر هذا إلى تطوان يوم 28 يونية سنة 1925 م ، وانفق مع الجنرال برعمو دي ريبيرا ، المقيم العام الإسباني لمنطقة الاحتلال الإسباني في الشمال على القضاء على عبد الكريم ، وأن يكون عملها الأول هو احتلال الحسيمة . هذا بعد أن تسبب الفرنسيون عمداً في إحداث مشاكل على الحدود الريفية المستقلة ، والحدود المغربية المحمية . وكان الأمير البطل يرغب في تسوية المشكل بالطرق السياسية السليمة ، غير أن بعض ضعاف النفوس، أوّلوا ذلك التفكير الحكيم من جانب الأمير بموقف الضعف ، بل بالتواطؤ مع الفرنسيين .

وأمام ذلك لم يجد الأمير بداً من خوض الحرب مع الجيوش الفرنسية، وهكذا أصبح عبد الكريم يحارب دولتين قويتين ، وفي واجهتين حريبتين مختلفتين . وبالرغم من ذلك فقد تمكن من إلحاق عدة هزائم بالفرنسيين، واستولى على كثير من الأراضي المغربية التي كانت بأيديهم ، ووصل المجاهدون الريفيون إلى فاس وهددوها ، حتى كادت تسقط في أيديهم، غير أن قوى الشر تعاونت على محاربة الأمير من كل جهة . فإلى جانب هجمات الأعداء القوية ، لعبت الخيانة دورها الوضيع . وليس هناك أدهى وأمر من خيانة أفراد من الأمة لوطنهم .

وهكذا تسربت البليلة في الصفوف الريفية بعد أن كانت قوية متحدة، ونتج عن ذلك ضعف المقاومة ضعفاً متوالياً . وبدأت أراضي المجاهدين تسقط تباعاً يوماً بعد يوم في أيدي العدو ، حتى أصبحت أجدير عاصمة البطل ، قاب قوسين أو أدنى من السقوط . آنذاك لم يجد الأمير مفرأ من إعلان الكف عن القتال واللجوء مع عائلته إلى الفرنسيين ليأخذوه أسيراً ، بدل الإسبان الذين كانوا أكثر وحشية في حروبهم . وتم التسليم في يوم 22 ماي سنة 1926 م . وهكذا انتهى هذا الجهاد المقدس الذي دام سنين طويلة .

ونقلت الحكومة الفرنسية البطل وعائلته إلى جزيرة الرينون . وبعد ما قضى بها زمناً طويلاً ، إلى سنة 1366 هـ، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عازمت الحكومة الفرنسية على نقله من الجزيرة إلى سجن آخر بفرنسا . ولما رست الباخرة الفرنسية التي نقله بمرسى بورسعيد المصري، عملت عناصر وطنية مغربية مع رجال مصريين مسؤولين وباتفاق مع الجامعة العربية على إنقاذ الأمير العظيم هو وأسرته . وهكذا استطاعت

هذه العناصر بلوغ هدفها حسب خطة مرسومة من قبل . ومن المرسى
حل في الحين في سيارات مخصوصة إلى القاهرة ، حيث خصص لإيوائه
قصر فخم . وبالف المصريون في إكرامه والحفاوة به . واعتمدت له
الحكومة المصرية أموالاً طائلة ليعيش بها مع أسرته الكريمة عيشة راضية
مطمئنة .

ولما زار ملكنا الراحل - طيب الله ثراه - أرض الكنانة في سنة
1958 م تقابل مع المجاهد الكبير لأول مرة ، وألح عليه عاهلنا الكريم
في العودة إلى الوطن العزيز ، بعد أن تحرر ، إلا أن الأمير البطل ظل
متمسكاً برأيه ، وهو ألا يعود إلى مسقط رأسه حتى تتحرر الجزائر
الشقيقة من ربة الاستعمار الفرنسي الغاشم . فلما استقلت شقيقتنا وأصبح
الشمال الإفريقي الذي تزعم الأمير البطل حركته السياسية من القاهرة كله
متحرراً ، استعد للعودة إلى وطنه، تلبية لرغبة الملك الراحل محمد الخامس
ورغبة الملك الحالي الحسن الثاني - نصره الله - ورغبة الأمة جمعاء .

وفاة المجاهد عبد الكريم

وبينا نحن في انتظار أوبته بفارغ الصبر ملكاً وشعباً لنتملى بطلته
الميمونة ، ونهتف بحياته الغالية ، ونسكب دموع الفرح والابتهاج ببقائه
العزيز ، إذا بالأخبار تفاجئنا بنعيه في 11 رمضان سنة 1382 هـ ، موافق
5 فبراير سنة 1962 م ، فطارت قلوبنا شعاعاً من هول الكارثة ، وعم
الحزن العميق العالم الإسلامي والعربي . ولكن ماذا يجدي الحزن الطويل ،
والبكاء المتصل أمام قضاء الله .

إن البطل عبد الكريم قد أدى واجبه الوطني أحسن أداء ثم توارى ،
كما تفعل الشمس . إلا أن حرارة إيمانه ونور تعاليمه ما زالا يغمران
نفوسنا . ولن تخمد تلك الحرارة أبداً ، ولن ينطفئ ذلك النور بتاتا .
فسيظل عبد الكريم في قلوبنا وقلوب الأجيال من بعدنا إلى ما شاء الله
رمزاً للكفاح المقدس من أجل الحق ، وفكرة راسخة للمثل العليا .

الحركة الوطنية

بعد انتهاء المعارك الريفية اطمأن الإستعمار ، وظن أن المغاربة رضخوا
لمشيئته ، واستجابوا لدعوته الباطلة ، التي تتضمنها « الحماية » المفروضة
عليهم . ولكن سرعان ما ظهر سوء تقديره للأمور ، إذ برز إلى الميدان
نوع جديد من الكفاح البطولي هو الكفاح السياسي . ففي سنة 1920 ،
أي بعد الحماية بثمان سنوات، تقدمت طائفة من الشباب المغربي المتحمس،
إلى الإدارة الفرنسية بمطالب ، تنص على تحقيق بعض الإصلاحات في
دائرة الحماية : كاعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد ، وإطلاق حرية
الصحافة ، ونشر التعليم ، واحترام سلطة الملك . وكان الجالس على
عرش المغرب آنذاك السلطان مولاي يوسف ، فأبدى من جانبه سروره
بتلك المطالب المشروعة .

وبدل أن تلبى الإدارة الفرنسية تلك المطالب لجأت إلى تهية مشروع
خطير ، يرمي لفصل البربر عن العرب ، أو على الأصح لإخراج البربر
من العائلة الإسلامية . وذلك المشروع هو المعروف بالظهير البربري
المشؤوم الصادر بتاريخ 16 مايو 1930 م . وهكذا سعى الإستعمار الفرنسي

لفريق الأمة ، عملاً بحكمته الماثورة « فرق تسد » . ولكن ذلك الظهير بالرغم من عواقبه الوخيمة ، كان له الفضل الأعظم بالنسبة للمغاربة . إذ ما أن أعلنته الحكومة الفرنسية حتى حي غضب الشعب، وثارت ثائرتة وأجمع شيبه وشبابه على إعلان سحقهم ضد السياسة الفرنسية الجديدة . وكان ذلك الظهير أيضاً إيداناً بقيام حركة سياسية منظمة ضد الحماية . ثم لجأت فرنسا وإسبانيا باتفاق سري بينهما إلى اقتطاع أجزاء من المغرب في القسم الجنوبي . وهكذا جعلت فرنسا « موريتانيا » تابعة لإفريقيا الشرقية الفرنسية ، بينما استولت إسبانيا على طرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب .

وعقب كل ذلك تكونت كتلة وطنية من شباب المغرب الغيور وقدمت هذه الهيئة إلى الملك والإدارة الفرنسية مجموعة من المطالب تنص على إصلاحات مهمة في دائرة الحماية أيضاً . ولكن الفرنسيين لم يستجيبوا لدعوة الحق . وبعد ذلك تحولت تلك الكتلة الوطنية إلى حزب سياسي يحمل اسم « الحزب الوطني » . فعمدت الإدارة الفرنسية الغاشمة إلى اغلاق مراكزه في المدن والقرى ، وسجنت ونقت وشردت زعماءه وأنصاره . وظل أولئك المجاهدون المخلصون في معاقلهم إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية، التي شارك فيها الجنود المغاربة مشاركة فعالة، إلى جانب الحلفاء ، فأطلق سراح أولئك الوطنيين المكافحين .

وما أن رجعوا إلى بيوتهم حتى استأنفوا تجمعهم وكفاحهم، متعاونين ، وقدموا مطالب جديدة تنص هذه المرة على إعطاء المغرب حريته واستقلاله . وما أن أطلع ملكنا الراحل محمد الخامس على نسخة تلك المطالب حتى رجب بها وأيدها التأييد المطلق . فلجأت الحكومة الفرنسية إلى خطتها

الجهنمية المألوفة ، وهي الزّج بأولئك الأبطال في غياهب السجون والمتنفي وإنزال شتى أنواع التعذيب بهم . ولكن الأزمة ظلت على ما هي عليه من التوتر السياسي . وفي سنة 1947 م بدا أن تلك الأزمة على وشك الانقشاع ، فسافر جلالة الملك محمد الخامس إلى طنجة ، وهناك أعلن صراحة في خطابه التاريخي أن المغرب يطالب باستقلاله ، وأنه جزء لا يتجزأ من الأسرة العربية التي تمثلها الجامعة العربية . فوقع ذلك الخطاب على قلوب الفرنسيين وقع الصاعقة ، وعادت الأزمة بين المغرب وفرنسا إلى سابق عهدها من التوتر والشدة .

● نقاط التلخيص ●

- لم يرض الشعب بإعلان الحماية عليه ، فقامت ثورة عظيمة في الجنوب تزعمها البطل هبة الله ، وكانت ترمي إلى تخليص البلاد من الاحتلال الأجنبي ، غير أن الجيوش الفرنسية تمكنت من إخادها بعد معارك شديدة .
- ثم أعلن الأمير عبد الكريم الخطابي حربه على الجيوش الإسبانية ، فحقق عليها انتصارات حاسمة في عدة معارك أهمها معركة أنوال ، التي اندحر فيها الجنرال الإسباني سيلفتر اندحاراً شنيعاً .
- بعد ذلك اشتبك المجاهد الخطابي اضطراراً مع الجيوش الفرنسية وتغلب عليها غير ما مرة ، وكاد يستولي على فاس ، غير أن قوى الشر تكاثرت عليه ، وعملت الحياة من جانب آخر عملها ، فاضطر إلى الكف عن القتال ، وتسليم نفسه مع عائلته للفرنسيين .
- استطاع البطل بعد ذلك بمدة طويلة الافلات من أيدي الفرنسيين ، ودخول مصر ، وعاش بين إخوانه المصريين معززاً مكرماً ، إلى أن وافاه الأجل رحمه الله سنة 1382 هـ .
- في سنة 1930 م أصدرت الإدارة الفرنسية الظهير البربري ، الذي يرمي إلى فصل البربر من العائلة الإسلامية فعارضه الشعب والملك ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قدم الوطنيون طلب المغرب لحريته واستقلاله ، فأجابت فرنسا كعادتها بالسجن والنفي .

اسئلة

- 1 - ما أعظم معركة حقق فيها المجاهدون الريفيون النصر على الإسبان ؟ ماذا غنموا فيها ؟
- 2 - على أي شيء تأسف الأمير عبد الكريم في حياته الحربية؟ لم حارب الجيوش الفرنسية أيضاً؟ ماذا كانت النتيجة ؟
- 3 - كيف أفلت البطل المجاهد من الاسر الفرنسي هو وعائلته ؟
- 4 - ماذا كان غرض الفرنسيين من إصدار الظهير البربري ؟ ماذا قدم الوطنيون للإدارة الفرنسية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ؟
- 5 - اذكر موقف الملك محمد الخامس - رحمه الله - من الظهير البربري ومن مطلب الشعب المتعلق بحرية المغرب واستقلاله .

عهد الانبعاث والاستقلال جلالة محمد الخامس - جلالة الحسن الثاني



تولية محمد الخامس وصفاته (1346 هـ - 1380 هـ)

تولى ملكنا الشهم - قدس الله روحه - على عرش المغرب سنة 1346 هـ موافق 1927 م ، عقب وفاة والده المرحوم مولاي يوسف . ومن صفاته الكريمة التي حبيت الشعب فيه : غيرته الشديدة على الإسلام والعروبة ، وتفانيه العظيم في خدمة الوطن . وتسامحه وعطفه وتواضعه وقوة شخصيته ، وغير ذلك من كريم الخصال وحيد السجايا ، التي ما اجتمعت في شخص إلا وأصبح أهلاً للمحبة والتقدير .

مواقفه السياسية المشرفة

كان أول امتحان سياسي واجهه هذا الملك الفذ، وبرهن على استعداد

الشخصي الموروث من أرومته العلوية المجيدة ، هو معارضته الشديدة للظهير البربري الممقوت ، الذي صنعتته الإدارة الفرنسية لفصل البربر عن الإسلام . ولم يوقع جلالته على ذلك الظهير أبداً بالرغم من إلحاح الفرنسيين عليه .

ولما أسست فرنسا وزارة ما وراء البحار التي تضم المستعمرات الفرنسية ألحقت المغرب بها . فرفع ملكنا البطل احتجاجه الصارخ إلى الحكومة الفرنسية على اعتبار أن المغرب ليس مستعمرة . وإن ذلك الإحتجاج في ذلك الوقت العصيب ليعتبر جرأة خطيرة وعملاً جباراً قام به عاهلنا الكريم . ولما حاولت فرنسا مرة أخرى ، جعل المغرب ضمن اتحادها ، كباقي المستعمرات، عارض هذا المشروع بكل شدة ، وبعث باحتجاجه للحكومة الفرنسية .

ولما أتاحت له الظروف زيارة طنجة ، ذات النظام الدولي ، سنة 1947 م صرّح في خطابه التاريخي بكل جرأة ووضوح ولأول مرة بحق المغرب في الحرية والإستقلال ، وأنه جزء من الأسرة العربية التي تمثلها جامعتها . وفي سنة 1950 م قام برحلة إلى فرنسا . ودخل مع الحكومة الفرنسية في مباحثات حول تسوية المشكل المغربي ، واشترط عدم حضور المقيم الفرنسي العام بالمغرب، لأنه ذو عقلية استعمارية . وفي تلك المحادثات قدم مطالب المغرب المتعلقة بإلغاء الحماية عليه، وإعلان حريته، واستقلاله . إلا أن الدوائر الفرنسية أجابت : بأن طلب الحرية والإستقلال سابق لأوانه . وانها مستعدة لإدخال إصلاحات جزئية على المغرب في دائرة الحماية ، فرفضها الملك الشهم ، وعاد إلى وطنه .

وعقب ذلك تكتلت الأحزاب الوطنية السياسية بالمغرب، وجعلت طلبها

الوحيد هو الحرية والإستقلال . وتم ذلك التكتل الوطني الرائع في طنجة ، تحت إشراف ممثل الجامعة العربية ، وسكرتير المؤتمر الإسلامي ، وبمحضر جمع من الصحافيين المصريين . وبعد ذلك اتخذت الإجراءات السياسية لعرض قضية المغرب على المحافل الدولية ، في دورتها السادسة سنة 1951 م . وفي ذلك الاجتماع الدولي انسحب الوفد الفرنسي احتجاجاً على عرض القضية المغربية باعتبارها قضية هم فرنسا وحدها .

ثم كان أن عرضت هذه القضية من جديد على الجمعية العمومية لتفصل في إدراجها في جدول دورتها أولاً ، وكانت اللجنة السياسية قد أوصت من قبل بتأجيلها . ورغم أن القضية لم تحز على عدد الأصوات المطلوبة لطرحها على بساط البحث الأممي ، فإن تلك الخطوة اعتبرت نجاحاً سياسياً عظيماً ، بالنسبة للمغرب في الحقل الدولي . وعقب ذلك ازداد التوتر بين المغرب وفرنسا ، فانتهز الملك الهام الفرصة ، وبعث إلى الحكومة الفرنسية في مارس سنة 1952 م بمذكرة ، يقترح فيها أن تقدم فرنسا للبرهنة على نواياها الطيبة ، وتحسين الجسو السيامي المتوتر بالشروع في تحقيق بعض المطالب المستعجلة: كمنح الحرية العامة والخاصة ، والحرية النقابية ، وتأليف حكومة وطنية جديدة بصفة مؤقتة ، لتقوم بمهمة المفاوضة معها ، قصد تسوية المشكل من كافة وجوهه ، بالطرق السلمية . غير أن الحكومة الفرنسية لم تستجب لهذه الدعوة الكريمة .

وفي سنة 1952 م عرضت قضية المغرب على أنظار الأمم المتحدة ، فحازت هذه المرة ، بفضل الدول العربية والإسلامية والأجنبية المحبة للسلام على نجاح باهر ، إلا أن الجمعية كلفت فرنسا أن تقوم بتسوية المشكل بينها وبين المغرب . فانتهز الملك البطل تلك الفرصة أيضاً ،

وبعث إلى الحكومة الفرنسية برسالة يوم 12 يناير 1953 م يطلب فيها الدخول معه في المفاوضة . وقد أيدت هذا المسعى الحميد كثير من الهيئات والصحف الفرنسية والعالمية ، ولكن فرنسا ظلت متمسكة بعنادها . وتمادى طغيانها فألقت في نفس السنة بالأحرار في السجون ، وشجعت طائفة من الخونة على معارضة المطامح الوطنية ، وانتهت النتيجة بأن تقدم المقيم الفرنسي العام ، ومن ورائه قواته الغاشمة والخونة ، فخير ملك البلاد بين اثنين: إما قبول ادماج المغرب في العائلة الفرنسية ، أو تنازله عن العرش ، فكان جوابه جواب المؤمن الأمين ، والبطل الشهم ، قال - رحمه الله - للمقيم الفرنسي : لا هذا ولا هذا .

بدأ الكفاح المسلح

وآنذاك نجي عن عرشه ، وسبق مع أسرته الكريمة إلى منفاه السحيق بجزيرة كورسيكا، ومنها إلى جزيرة مدغشقر . ونصبت الإدارة الفرنسية المسمى ابن عرفة سلطاناً مزيفاً على عرش المغرب ، فهاج الشعب على بكرة أبيه ، ونهياً للكفاح المسلح . وما أن مرت بضعة أيام على مغادرة ملك البلاد الشرعي ، وتنصيب إمعة الاستعمار على العرش ، حتى تقدم الفدائي العظيم علال بن عبد الله نحو الصنيعة الاستعمارية ، وهي خارجة لأداء صلاة الجمعة، فهاجمها في سيارته ، وتمكن من اسقاطها من فوق الفرس ، ثم اشتبك مع ضابط فرنسي في معركة بخنجره الذي كان يريد أن يقتل به السلطان المزيف ، فانتهت باستشهاده ، فكان عمله الجريء هذا بداية المعركة المسلحة ضد القوة الاستعمارية الغاشمة .

وهكذا راحت فرق الفداء تهاجم المستعمرين والخنوة ، بدون انقطاع في المدن والقرى ، وفي كل مكان ، بالمسدسات والبنادق الرشاشة والقنابل اليدوية ، حتى أصبحت أيام السلطان ابن عرفة أيام محن ، عادت بالويل العظيم عليه وعلى أذنبه . وقاطع الشعب البضائع الفرنسية وشرب الدخان ، فكان ذلك وبالأعلى على الاقتصاد الفرنسي . ولما وجدت فرنسا نفسها أنها في مأزق حرج ، بسبب ضربات مطارق الكفاح المسلح في الداخل، والكفاح السياسي في الخارج، أخذت تدعو الأحزاب السياسية الوطنية للتباحث معها ، في شأن إدخال جملة من الإصلاحات ، ولكنها لم تجد من يفاوضها حول ذلك ، إذ كان جواب تلك الهيئات المخلصة دائماً : الحرية والإستقلال لا الإصلاحات .

النصر المبين وعودة البطل الأمين

في يوم أول أكتوبر 1955 م خطت تلك الهيئات الوطنية العاملة خطوة أكثر فعالية ، حيث كونت فرقاً من جيش التحرير في جبال الريف ، وانطلق ذلك الجيش يشن غاراته الشديدة على معازل الفرنسيين ويدكها دكاً . وتزايدت أعمال الفداء في أنحاء المغرب . وأمام ذلك لم تجد قوى الاستعمار الغاشم بداً من الرضوخ لداعي الحق . فوافقت فرنسا كرهاً على منح المغرب حريته واستقلاله ، وإعادة ملكه المفقدي محمد الخامس إلى عرشه ، وإطلاق سراح جميع المناضلين المعتقلين .

وفي يوم 16 نوفمبر 1955 م عاد الملك الحبيب إلى شعبه يحمل معه وثيقة الاستقلال ، بعد غيبة طويلة دامت سنتين وخمسة أشهر . وبعد

يومين فقط من رجوعه حل يوم عيد العرش المجيد الذي يوافق 18 نوفمبر . فألقى الملك المجدى خطابه العظيم، الذي أعلن فيه حصول المغرب على الحرية والإستقلال . وهكذا عاش الشعب المغربي في تلك الأيام الخالدة في غمرة من الأفراح ، أفراح بالحرية والاستقلال، وأفراح بعودة كتزه الثمين محمد الخامس ، وأفراح بعيد عرشه المجيد .

وما أن حل يوم سابع ديسمبر من نفس السنة الفارطة حتى تألفت أول حكومة مغربية حرة ، وتفاوضت مع فرنسا في الشؤون المتعلقة بينها وبين المغرب ، فأسفر ذلك عن اعلان فرنسا اعترافها الرسمي باستقلال المغرب ووحدة ترابه ، كما حصلت مفاوضة مماثلة بين المغرب واسبانيا فأعلنت بدورها عقبها عن اعتراف الدولة الاسبانية بذلك الاستقلال . وهكذا توحدت منطقة الشمال أو المنطقة الحليفية ، مع منطقة الجنوب أو المنطقة السلطانية ، بعد أن كانت الأولى تحت الحماية الإسبانية والثانية تحت الحماية الفرنسية ، كما ضمت منطقة طنجة ذات النظام الدولي سابقاً الى باقي الوطن .

وفي شهر يوليو سنة 1956 م حصل المغرب على عضويته في هيئة الأمم المتحدة ، كما أصبح عضواً عاملاً في الجامعة العربية .

أعماله الجليلة في الميادين الأخرى

ملكنا الراحل — طيب الله ثراه — أعمال كثيرة في مختلف الميادين، سواء في عهد الحماية أو في عهد الاستقلال ، ونقتصر على ما حققه أيام الحماية بالرغم من عراقيل الاستعمار فيما يأتي : حثه المستمر للمواطنين

على التعلم وفتح المدارس الحرة ومحاربة الأمية ، مذكراً إياهم في خطبه العديدة أن التعليم هو السبيل الوحيد لرقى الأمم ، فلبى الشعب عن بكرة أبيه هذه الدعوة الرشيدة وأقبل على التعلم وأكثر من فتح المدارس الحرة، الابتدائية والثانوية حتى أصبح مجموع التلاميذ المقبلين عليها يفوق عدد المقبلين على المدارس الحكومية الفرنسية ، كما حث - رحمه الله - على العناية بالصناعة المغربية وتشجيعها والاهتمام بالفلاحة، وإعانة الفقير والمحتاج. واعتنى بنهضة المرأة المغربية اعتناء بالغاً ، لأنه كان يؤمن كما نؤمن جميعاً أن المرأة جزء مكمل للأمة ، ولا اعتبار لنهضة بدون مشاركتها مشاركة فعالة .

وما أن عاد الملك الحبيب إلى وطنه حتى شرع في تنفيذ ما كان يصرح به في أعياد العرش ، من أسباب التقدم والعزة والكرامة لشعبه الوفي . فبعد ما كوّن أول حكومة وطنية حرة ، وأصبح استقلالنا أمراً واقعياً بوجود وزارتي الداخلية والخارجية والحرية أنشأ جيشاً وطنياً، أطلق عليه اسم القوات الملكية المسلحة وشعاره : الله ، الوطن ، الملك . وأصبح الملك رئيساً أعلى لتلك القوات الفتية، وسمو الأمير المحبوب مولاي الحسن رئيساً لأركانها ، كما هيأ فرقاً من الشرطة ورجال الدرك للمحافظة على الأمن ومساعدة المواطنين .

وفيما يتعلق بنظام الحكم في البلاد جعله ديمقراطياً ملكياً دستورياً . وأسس المجلس الاستشاري ، الذي يعتبر نواة للبرلمان . وأصدر ظهيراً قرر فيه الحق النقابي . فتأسست النقابات الحرة . وتأسست في عهده أول جامعة مغربية عصرية في الرباط ، كما بنيت عدة مدارس ابتدائية وثانوية جديدة . فأقبلت الأمة شبيها وشبابها، نساؤها وأطفالها على التعليم إقبالاً منقطع النظير . وكثرت الصحف والمجلات والكتب الدراسية . وبنيت مستشفيات جديدة كثيرة .

واعتنى - رحمه الله - بأبناء الشهداء وأراملهم ، فضمن لهم العيش الكريم ، تخفيفاً لآلامهم ، وتقديراً لتضحياتهم . وأمر ببناء بيوت صحية عصرية لسكنى الفقراء، بدل بيوت القصدير التي تسيء إلى سمعة الوطن . لقد أصلحت الطرق والقناطر وبني غيرها. وأمر بالتنقيب عن معادن جديدة، خصوصاً البترول . ووجه عنايته الكريمة نحو الفلاحة والصناعة مهياً لها كل أسباب التقدم والرقى ، وغيرها من الأعمال المفيدة ، التي يضيق هذا الدرس بذكرها . وبذل عونه العظيم للشعب الجزائري الشقيق في سبيل تحريره .

وفاته :

وأثناء عملية جراحية أجراها ملكنا الهمام بعاصمته فاضت روحه العزيزة في 10 رمضان 1380 هـ، مليحة دعوة ربها . فأظهرت الأمة برمتها مقدار ما تكنه من الحب والتقدير لمن جلس على عرشها وحافظ على أمانتها . فانهمرت الدموع كالطرر، ودوت صيحات الحزن والألم كالرعد من كل بيت ، بل ومن كل قم . ولم يصدق الكثيرون أن يصيب الموت محمداً الخامس الذي خرج من الوطن على أيدي الجناة عزيزاً مرفوع الرأس ، وعاد الينا عزيزاً مرفوع الرأس، وفي يده قبس الحرية ونبراس الاستقلال. ولولا أننا شعب مؤمن بالله وبرسوله الكريم ، ونتمثل لقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » . لولا أننا نؤمن بهذه الآية العزيزة المتعلقة بسيد المرسلين محمد (ص) لجننا من الصدمة الثقيلة بفقدان أعز ما أحبه القلوب على اختلاف ألوانها ومشاربها، فرحم الله البطل العظيم ، وعاشت أفكاره ومبادئه الغالية مدى الحياة .

تولية الحسن الثاني وبعض منجزاته (1380 - إلى يومنا)

وبعد وفاة ملكنا الراحل اعتلى على أريكة العرش ابنه البار الملك

الشاب الحسن الثاني ، وهو بحق مثال للذكاء المتوقد ، والمعرفة الصحيحة والحنكة السياسية وسعة الصدر ، والتشبع بالحرية .

وقد مر على توليته حتى أيامنا أمان ونيف ، وفي خلال هذه المدة القصيرة ، استطاع هذا الملك المقتدر أن يحقق كثيراً من المنجزات الهامة ، من بينها الدستور ، الذي يضمن للأمة الحرية والكرامة ، والإنعاش الوطني ، الذي يقوم على تشغيل العاطلين قبل أن يكون مخصصاً للمنح والصدقات . وفي الناحية الاقتصادية والصناعية تواصل الجهود لبلوغ الهدف المنشود من تقدمها ورفقها ، وفي السنة الدراسية المقبلة (63 - 64) سيلتحق جميع الأطفال المغاربة الذين يبلغون سن الدراسة ذكوراً وإناثاً بالمدارس ، وسيسن قانون التعليم الإجباري ، هذا إلى جانب اتساع نشاط الجامعة المغربية بإنشاء كليات جديدة في مركزها بالعاصمة وبفاس ، وتزايد النشاط الثقافي من حيث تأليف الكتب وصدور الصحف والمجلات وإلقاء المحاضرات في المراكز الثقافية وبواسطة الراديو والتلفزيون ، الذي يعتبر أيضاً من حسناته المشكورة . أما النهضة النسوية فتمثل في إقبال الفتاة على التعليم الابتدائي والثانوي والعالي إقبالاً متزايداً ، ومشاركتها الفعالة في إدارة مصالح البلاد ، إلى جانب دورها الأول وهو العناية بالبيت وتربية الأولاد . أطال الله عمر ملكنا المفدى حتى يحقق لشعبه الوفي كل ما يصبو إليه من عظمة ومجد ، ويتم على يديه إن شاء الله تحرير باقي أجزاء الوطن التي ما زالت في قبضة الإستعمار الإسباني والفرنسي . كما نرجو أن تتحقق في أيامه وحدة المغرب العربي ، التي عمل من أجلها سائر ملوك المغرب ، وبذل من أجلها ملكنا الراحل محمد الخامس غالي التضحيات مع شعبه الوفي . وسار على خطته في هذا السبيل ابنه البار الحسن الثاني .

● نقاط التلخيص ●

- للملكنا الراحل محمد الخامس مواقف سياسية مشرفة كثيرة في عهد الحماية ، منها معارضته للظهير البربري ، ورفضه لإلحاق المغرب بالعائلة الفرنسية ورفضه التنازل عن عرش الأمة .
- ولما نفي الملك إلى منفاه السحيق على يد الساطة الفرنسية الغاشمة قام الشعب على بكرة أبيه ، وخاض الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم طيلة غيبة ملكه .
- لما رأت السلطات الفرنسية أن لا سبيل لتهدة الحالة الخطيرة رغم ما استعملته من شدة وعنف رضخت كرهاً إلى أن تعترف باستقلال المغرب وتعيد كثره الثمين الذي أنزلته عن العرش ونفته . وبعودة الاستقلال وملك الشعب عاد الهدوء وشرع في بناء المجد .
- من أعماله الجليلة في عهد الاستقلال : تأليف أول حكومة مغربية تتوفر على كامل حريتها ، وجعله نظام الحكم في البلاد ديمقراطياً ملكياً ، ومنح الحرية النقابية وحرية الصحافة ، وتأسيس المجلس الاستشاري، وإنشاء أول جامعة مغربية عصرية في العاصمة وغير ذلك.
- بعد أن توفي حبيب الشعب محمد الخامس تولى العرش ابنه الحسن الثاني - أطال الله عمره - ومن منجزاته الهامة : تهيء الدستور الديمقراطي للأمة ، وتأسيس الإنعاش الوطني ، وإنشاء كليات ومدارس كثيرة ، ومصانع جديدة ، وغير ذلك .

استئلة

- 1 - ما مواقف الملك محمد الخامس السياسية ؟
- 2 - متى شرع الشعب في الكفاح المسلح ضد المستعمر ؟ ما نتيجة ذلك ؟
- 3 - في أي تاريخ عاد الملك البطل إلى وطنه من منفاه ؟ صف فرحة الشعب بذلك ؟
- 4 - عدد بعض أعماله الجليلة في عهد الاستقلال ؟ متى توفي رحمه الله ؟
- 5 - حدثنا عن تولية الملك الحسن الثاني ؟ ماذا تعرف عن منجزاته الهامة ؟

● نقاط التلخيص ●

- لم تتأثر الحركة الثقافية بما حصل من ضعف وتأخر في أواخر أيام السعديين وبداية نشأة العلويين ، لأسباب عدة ، منها : أن معظم ملوك هاتين الدولتين كانوا علماء وأدباء ، ثم قيام زاوية الدلائين بذلك الدور العظيم في ميدان الثقافة والفكر ، وتردد رجال العلم والأدب على دول أوروبا .
- يلاحظ في العصر العلوي أن الفقهاء شاركوا بدورهم بإنتاجهم العلمي والأدبي في تغذية الثقافة ، كما كان الحال في الأندلس .
- من ضروب الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر: العلوم الشرعية والأدبية ، وعلوم الجغرافية والتاريخ والرياضيات والفلسفة .
- في فترة الضعف والاضطرابات والتدخل الأجنبي التي أدت في النهاية إلى إعلان الحماية ، توقفت تلك الحركة توقفاً تاماً، وعمل الأجانب المحتلون للبلاد على القضاء عليها . ولكن جامعة القرويين حافظت على تراث الأجداد من الضياع ، كما كان ظهور محمد الخامس عاملاً قوياً على استعادة ذلك المجد الغابر في عالم الفكر والثقافة .
- في عهد الدولة العلوية علا شأن المجتمع المغربي ، خصوصاً أيام ملوكها العظام . ففي أيامهم استقر الأمن واستبحر العمران وكثرت الحبرات وترقت أحوال الناس من كافة الوجوه، وما زالت حياتنا الاجتماعية وكذا الثقافية ، في حاجة إلى مزيد من التقدم والرفق في دائرة الدين والعروبة وتقاليدنا المغربية .

أسئلة

- 1 - لم لم تتأثر الحركة الثقافية في أواخر أيام السعديين ، بما اعتري الدولة من ضعف ؟ عا أسباب ذلك بوضوح ؟
- 2 - ما دور زاوية الدلائين في الناحيتين العلمية والسياسية ؟
- 3 - حدثنا - باختصار - عن الحركة الثقافية في عهد الملوك العلويين ، قبل قيام الاضطراب وإعلان الحماية ؟
- 4 - كيف كانت الحياة الاجتماعية في العهد العلوي السالف ؟
- 5 - ما أبرز ما يتصف به عصرنا في حياته الثقافية والاجتماعية منذ ملكنا الراحل محمد الخامس وأيامنا هذه على عهد الحسن الثاني ؟

الفهرست

ص	
3	مقدمة
5	برنامج التاريخ الاسلامي المقرر
7	تمهيد
12	1 . المغرب قبل الفتح الاسلامي
20	2 . الفينيقيون
30	3 . آثار الحضارات
37	4 . الفتح الاسلامي في المغرب
49	5 . فتح الأندلس
59	6 . الأدارسة
68	7 . قيام الدولة الأموية بالأندلس
78	8 . الأمويون في الأندلس
90	9 . المغرب بين الفاطميين والأمويين
100	10 . سقوط دولة بني أمية في الأندلس

111	11 . المرابطون
122	12 . المرابطون في الأندلس
132	13 . الموحدون في المغرب والأندلس
144	14 . الحياة الفكرية والفنية في المغرب والأندلس
155	15 . عهد بني مرين
168	16 . بنو الأحمر في غرناطة
179	17 . هجوم الاسبانيين والبرتغاليين
191	18 . المغرب في عهد السعديين
202	19 . الحياة الثقافية في عهد المرينيين والسعديين
212	20 . الدولة العلوية
223	21 . عصر الازدهار
234	22 . المغرب والمطامع الاجنبية
245	23 . المغرب والاحتلال الاجنبي
256	24 . المقاومة الوطنية للاحتلال
267	25 . عهد الانبعاث والاستقلال
277	26 . الحياة الفكرية والاجتماعية في عهد العلويين



دار الكتب
الدار البيضاء